

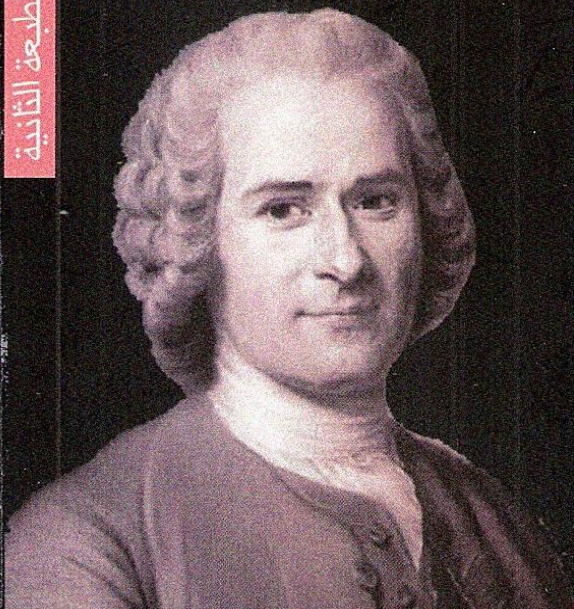
جان چاک روسو

ميراث الترجمة

أحلام يقظة
جوال مُنفرد

ترجمة وتعليق: ثريا توفيق
مراجعة: صالح جودت

الطبعة الثانية



أحلام يقظة جوال منفرد

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: طلعت الشايب

- العدد: ٢ / ٩٤٥

- أحلام يقظة جوال منفرد

- جان چاك روسو

- ثريا توفيق

- صالح جودت

- ٢٠٠٩

هذه ترجمة

Les Rêveries du Promeneur

Par: Jean - Jacques Rousseau

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

أحلام يقظة جوال منفرد

تأليف: جان چاك روسو

ترجمة: ثريا توفيق

مراجعة: صالح جودت



رقم الإيداع: ١١٦٥٣ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولي: 1 - 389 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تمهيد

يشير «جورج سارتون» (١) George Sarton الى انه «مما أفسد فهم العلم القديم كثيرا من الاحيان ظاهرتان من الاهمال الذى لا يمكن التسامح فيه: أما الظاهرة الأولى: فتتعلق باهمال العلم الشرقى فمن سداجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ في بلاد الاغريق ، فان « المعجزة اليونانية » سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرها من الأقاليم ، والعلم اليونانى كان احياء أكثر منه اختراعا . والظاهرة الثانية: اهمال الاطلس الجغرافى الذى نشأ فيه العلم ، لا الشرقى فحسب ، بل اليونانى ذاته كذلك وكفانا سوءا اننا أخفينا الاصول الشرقية التى لم يكن التقدم الهلينى مستطاعا بدونها » .

والواقع أن « سارتون » لم يحد عن جادة الصواب ذلك لان مشعل الحضارة فى الشرق الادنى القديم كان يرفعه ساعدان : بلاد ما بين النهرين من يمين ومصر من يسار ثم معبر فى الوسط . هو سورية ازدوجت فيه الحضارتان وامتزجتا فأشعثتا على العالم القديم دهرًا طويلا حتى أذن الله أن تنتقل الشعلة الى يد اليونان الذين نقلوها بدورهم الى أوروبا . .

وقصة العلم - اذن - قصة واحدة طويلة لانستطيع أن ندرك فصولها الاخرة ما لم نتفهم تماما المراحل التى مرت بها منذ البداية فنستوعبها ونتابع تطورها . وهى ليست قاصرة على قطر من الاقطار أو بلد من البلدان بل هى مشاع للانسانية قاطبة تنتقل بين شعوبها بوساطة الحروب حيناً وعن طريق الهجرات والارتحال أو التجارة أحيانا أخرى ومن ثم كان «نقل العلوم على هذا الوجه وترجمتها من لغة الى لغة الوسيلة المشتركة دائماً الناجحة أبدا» (٢). وقد شهد تاريخنا الثقافى ثلاث موجات من الترجمة

(١) راجع « تاريخ العلم » الجزء الاول - التمهيد ص ٢٠ و ٢١ ترجمة الاستاذ محمد خلف الله أحمد وآخرين .

(٢) تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية ص ٥ : الدكتور جمال الدين

الشيال .

إلى العربية اولها في العصر العباسي . . وثانيهما في القرن الماضي وآخرها
وهي التي نخوض غمارها اليوم .

أما الأولى (في العصر العباسي) فقد جاءت على دفعتين متلاحقتين ،
أولهما : قبل عصر المأمون وكانت تتضمن مجهودات فردية ، وثانيتهما : من
عصر المأمون وخلفائه وقد تمت الترجمة خلال هذه المرحلة تحت رعاية
الدولة عن اليونانية والسريانية والفارسية ، وكان ما نقل عن الاخيرتين
مترجمة أصلا عن اليونانية والسنسكريتية (الهندية) - كان معظم ماتمت
ترجمته علم وفلسفة ، ولم يظفر الادب الا بقسط ضئيل لعل أبرز ما فيه
كتاب «كلية ودمنة» الذي ترجمه ابن المقفع عن الفارسية (وهذه بدورها
عن السنسكريتية) ولعل السر في أن حركة الترجمة لم تبدأ قبل العصر
العباسي - بصورة واضحة على الأقل - انه حين بدأ الاسلام ينتشر في
أنحاء العالم المعروف في القرن السابع الميلادي بدأ العرب يتزاجون مع
الشعوب جميعا جنسا ولغة وحضارة ولم تحدد معالم العصر الذهبي
للحضارة الاسلامية الا في عنفوان الدولة العباسية حين أقبل العلماء على
الترجمة عن اللغات الاجنبية(١) وعند هذه المرحلة بدأت معالم الحضارة
الاسلامية تتضح وبدأت شخصيتها تبرز فنشأت علوم اسلامية نتيجة لذلك
أضافت للعلم المعروف في هذه المرحلة الشيء الكثير وثبتت من دعائم ما كان
موجودا منه فعلا أو عدلت فيه طبقا لمقتضيات الظروف . . وعلى أثر ذلك
أخذ العلم الاسلامي - بفضل بروز المسلمين على العالم - يمد أشعته في
كل الآفاق حتى نهلت منه أوروبا فكان مبعث نهضتها . . وأما وسيلة ذلك
مرة أخرى فكانت الترجمة عن العربية ذلك لان مؤلفات المسلمين في مختلف
العلوم ترجمت في هذه المرحلة الى اللاتينية بخاصة (وهي لغة العلم في
أوروبا اذ ذاك) ، بل ودرست كتب العرب في جامعات أوروبا واعترف
بها كمراجع علمية لها قدرها . . هذا الى أن بعض علماء العرب كانوا
يقومون بالتدريس فعلا في بعض هذه الجامعات وبخاصة في ايطاليا -
وبرزت الاندلس بعلمائها قبيل هذه المرحلة وخلالها فظهر بها الكثيرون من
العلماء والمترجمين والناقلين الذين ترجموا من العربية الى مختلف اللغات
الاوروبية وبخاصة اللاتينية كذلك .

وأما مصر فقد كان لها شأن آخر . . ذلك أنها كانت تمر - وبخاصة
في أعقاب الفتح العثماني - بمرحلة تدعو الى الأسى فضعفت الحركة
العلمية - أو خمدت - ويرجع ذلك الى أن القوة العثمانية « حالت بلا شك

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٤٧ - ١٦٢ .

دون اتصال أمم الدولة بالحضارات الاجنبية عموما وبالحضارة الاربوية خصوصا ، (١) لا عن قصد بل لان الدولة العثمانية تولت امر أمم كانت على نوع من الاعياء لم يكن الحكم العثماني قادرا على أن يزيله عنها فالعثمانيون كانوا قوما يأخذون ولا يعطون . . وكان تحول التجارة الى رأس الرجاء الصالح مما أضعف الصلة بين مصر وأوربا فى هذه المرحلة اذ لم يعد يتردد عليها الا قلة من التجار همهم الاكبر كسب المال . . وأما نقل العلوم فقد توقف نهائيا . . وقد دعا هذا كله الى أن يسود الجهل جميع نواحي الحياة فلم يبق سوى الازهر يقوم على رعاية الدين وما يتصل به من علوم . . وهى ضئيلة قليلة بالغة التأخر مختلفة عن نظائرها فى أوروبا . . بل أخذت تسيطر الخرافات على العقول حتى أصبح الايمان بالمعجزات يقوم عند الشعب - بل وعند العلماء مقام الدين . .

وجاءت الحملة الفرنسية الى مصر وضافت الدولة العثمانية بهذا الأمر وانزعج الماليك فقاوموا مقاومة المستيئس . . ولكنهم غلبوا على أمرهم . . ثم تدخلت انجلترا حين عز عليها أن تترك مصر للفرنسيين لقمة سائغة . . وأما الشعب فقد تحرك كذلك فثار على الحكام الجدد ممن لا يرعون حرمة الدين ويمعنون فى ارتكاب المساوى والشورور . . وقاوم الفرنسيون مدى ثلاث سنوات ثم اضطروا للانسحاب . ولكن هذه السنوات الثلاث كانت بالغة الأثر فى حياة مصر :

صحبت الحملة مجموعة من العلماء توافرت على دراسة مصر وكانت ثمرة هذه الدراسة كتابها المشهور Description de l'Egypte واستطاعوا أن يجذبوا اليهم بعض شيوخ الازهر ويطلعوهم على جانب من علومهم وبحوثهم وأدواتهم وآلاتهم ثم عقدت بعض أوامر الصداقة بين بعضهم وبين بعض المستشرقين من علماء الحملة ومن أشهرهم الشيخ العطار الذى كان « من أكبر علماء مصر الممتازين والذى لم يكن تضلعه فى العلوم الدينية كتضلعه فى الدراسات الادبية » (٢) والذى قال عنه على باشا مبارك (٣) « واتصل بناس من الفرنسية وكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم ويفيدهم اللغة العربية » وهو صاحب الفضل على تلميذه رفاة الطهطاوى

(١) دكتور جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ص ١٣٠ نقلا عن مقدمة كتاب « الشرق الاسلامى فى العصر الحديث » للدكتور حسين مؤنس وهى المقدمة التى كتبها الاستاذ محمد شفيق غربال .

(٢) Lane: The Manners and Customs of the Modern Egyptians, P. 27

(٣) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٢٨ .

زعيم النهضة العلمية الحديثة . وهو الذى قدمه لمحمد على ليكون امام البعثة المصرية الى فرنسا ثم هو الذى أشار عليه أن يسجل مشاهداته فى هذه البعثة التى أخرجها رفاعة فيما بعد فى كتابه « تخلص الابريز فى تخلص باريز » .

كانت الحملة الفرنسية اذن - برغم قصر أمدها - نقطة تحول فى الحياة المصرية وكانت تحمل معها مطبعة هى « المطبعة العربية » أو « مطبعة جيش الشرق » أو « مطبعة الجيش البحرى » - كما كانت تسمى وهى فى طريقها الى مصر - وبدأت عملها والحملة تشق طريقها الى مصر بطبع منشور نابليون المشهور . . بالعربية . . وسميت هذه المطبعة فيما بعد بالمطبعة الأهلية وكان مقرها الاول دار عثمان بك الأشقر بالازبكية ثم نقلت الى الجيزة فالقاعة وأخذها الفرنسيون معهم عند ارتحالهم وحلت محلها فى عهد محمد على مطبعة عربية أخرى فى بولاق .

كانت الترجمة فى خلال الحملة أمرا ضروريا لضرورة التفاهم بين رجالها وبين المسئولين من قادة الشعب ورجال الديوان . وكان المترجمون من الماطيين أو المقاربة أو السوريين كما تعلم بعض شبان الاقباط الفرنسية وصحبوا الحملة فى عودتها ومن بينهم الياس بقطر صاحب القاموس الفرنسى العربى (١) .

وكان من رجال الحملة متخصصون فى الترجمة وكانت مكتبة المجمع عامرة بالآلاف الكتب ومن بينها كثير من الكتب الاسلامية مترجمة بلغتهم وقد طبعت بمطبعة الحملة مجموعة من الكتيبات القليلة المترجمة هى « وصايا لقمان الحكيم » وقد طبعت بالعربية ومعها ترجمة بالفرنسية ثم « محضر محاكمة سليمان الحلبي » وكذا « أجرومية اللغة العامية » ورسالة فى مرض الجدري لكبير أطباء الحملة وترجمة الأب « رفائيل زاخور » وقد طبعت كذلك بالفرنسية والعربية .

وابتداء من عام ١٨٠٥ بدأت مصر تمر بمرحلة كانت ثمرة اليقظة الجديدة - وتمثل الموجة الثانية - فأنشئت المدارس ودعى المتخصصون لنشر العلم الاوروبى كما أنشئت المدارس الفنية وبدى فى ترجمة الكتب المدرسية من الايطالية والفرنسية . ثم أنشئت مدرسة الألسن وعين رفاعة الطهطاوى أول ناظر لها وكان أول أهدافها القيام بأعمال الترجمة وتخريج مترجمين ليعملوا فى ادارة الحكومة ثم أوفدت البعثات الى فرنسا بخاصة

(١) الشيال : المرجع السابق ص ٦٣ .

ليعود منها المبعوثون ويتوافروا على ترجمة خيرة الانتاج العلمى هناك الى العربية ٠٠ وفي عهد عباس الاول حدثت نكسة فأغلقت مدارس الطب والهندسة واللغات كما ألغى مكتب الترجمة ٠٠ وبعده موته تابعه خلفه سعيد فى فكرته من ناحية « أن الشعب الجاهل يسهل حكمه » فألغى كذلك وزارة المعارف ومدرسة الهندسة ثم مدرسة الطب بعد ذلك بقليل لفترة ما ٠٠٠ ولم يكن ليشجع حركة الترجمة ٠٠٠ ودفعته الظروف بعد ذلك الى اعادة تعيين رفاة الطهطاوى مديرا لقسم الترجمة بوزارة المعارف ثم لم تغد مدرسة الألسن مستقلة فأدمجت مع مدرسة الادارة التى عرفت فيما بعد باسم مدرسة الحقوق ٠٠ وكانت اللغة الفرنسية فى هذه المرحلة هى اللغة الاوربية التى تدرس فى المدارس الابتدائية والثانوية والخاصة وكانت ترجمة الكتب العلمية مهمة عاجلة فأنشئ مكتب للترجمة ووضع قاموس للمصطلحات الفنية بالعربية والفرنسية والانجليزية ٠٠ وأنشئ مكتب للترجمة بوزارة الحربية مستهدفا ترجمة القوانين العسكرية الفرنسية كما تمت ترجمة مجموعة كبيرة من كتب الطب ٠٠ ولعبت مدارس الارساليات الدينية الاجنبية دورا هاما فى حركة الترجمة فى مصر وكان خريجوها يعملون فى الشركات والبنوك والادارات الحكومية ٠٠

وقد بلغ عدد الاجانب المقيمين فى مصر عام ١٨٧٩ مائة ألف مما دعا الى انشاء مكتب للاوربيين عين به عدد من المترجمين المصريين ٠٠ وأسهمت المحاكم المختلطة فى حركة الترجمة مما دعا الى ترجمة القانون المدنى والتجارى وقوانين الاجراءات والعقوبات ٠٠ وترجم رفاة الطهطاوى - قطب رحي هذه المرحلة - كتابا فى الجغرافيا وآخر فى الرحلات وثالثا فى القانون التجارى الفرنسى وغيرها ٠ وترجم غيره كتب فى الرياضة والشئون العسكرية أو مختلف العلوم كالكيمياء والطبيعة والحيوان والتاريخ ثم الروايات والمسرحيات ٠٠ وترجمت قصص لافونتين La Fontaine الى الشعر العربى كما ترجمت رواية بول وفرجينى لسان بيير Paul et Virginie de Bernardin de Saint-Pierre وروايات لولير Molière وروايات راسين Racine ولو أن ذلك كان تعريبا أكثر منه ترجمة دقيقة ٠

ويلاحظ أنه بعد عام ١٨٨٠ سارت حركة الترجمة بخطى واسعة فتناولت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والادبية والعلمية ٠

وقبل الاحتلال الانجليزى كان التعليم فى المدارس بالعربية وكانت مدرسة الألسن مفتوحة الابواب لمن يريد اتقان اللغات الاجنبية ٠٠ وفى ظل الاحتلال أغلقت مدرسة الألسن وتوقف ارسال البعثات الى الخارج وتحول التعليم الى تعليم باللغتين الانجليزية أو الفرنسية وقل الاهتمام

بالعربية ثم نجح الانجليز في الغاء اللغة الفرنسية كلفة رسمية للتعليم. في المدارس الابتدائية ٠٠ وان ظلت كذلك في مدارس الارساليات الدينية الاجنبية .

وظل الأمر كذلك حتى انكشفت الغمة قليلا فعادت اللغة العربية الى مكانها من التعليم كما ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالى مجموعة من الأدباء دأبت على النقل من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية فترجمت مئات الكتب فى مختلف العلوم والفنون والآداب مما تتطلبه حالة الدراسة بالمدارس أولا ، ومما تحتاجه الثقافة الشعبية ثانيا . وبرز فى هذا المضمار جماعة ممن أتيح لهم حظ السفر الى الخارج فعادوا يقدمون للبلاد ثمرات دراساتهم .

وكان انشاء الجامعة المصرية عام ١٩٢٥ خطوة جديدة فى هذا المضمار فدأب أساتذتها على محاولة القاء دروسهم باللغة العربية برغم ما لقوا فى سبيل ذلك من عنت حتى أصبحت الكليات النظرية تقوم الدراسة فيها أساسا بلغة البلاد .

وبقيام الثورة دخلت البلاد فى مرحلة جديدة من هذا التطور الفكرى والثقافى فكان من بين ما استحدثته فى هذا المضمار مشروع « الألف كتاب » الذى يستهدف نقل أمهات الكتب الى العربية وتشجيع الترجمة على أوسع نطاق واعادة فتح مدرسة الألسن لتعليم اللغات الاجنبية ثم التوسع فى ايفاد البعثات الى الخارج، وأخيرا تكوين لجان من أساتذة الجامعات لترجمة أمهات الكتب فى مختلف العلوم والفنون وتوطئة لتعميم التعليم فى الكليات العملية باللغة العربية ٠٠٠ وشجعت البلاد أخيرا حركة الترجمة اذ أنها أمر ضرورى ولان العالم وحدة متكاملة وأن علينا أن نطلب « العلم ولو فى الصين » وأن الشعوب التى تطمح الى المجد يجب أن تكون على اتصال وثيق بمختلف ألوان الحضارات وأن هذا لا يكون ميسورا الا بمطالعة ما ينشر باللغات الاخرى وهكذا نجد المطابع لا تفتأ تقدم ألوانا من الثقافات والمعرفة تيسرها أحيانا للعامة من ذوى الثقافات المتوسطة فى كتيبات رخيصة غزيرة المادة ميسرة الاسلوب وأحيانا أخرى للخاصة فى مجلدات ضخمة تنشر نواحي العلم الحديث حتى يفيد منها المجتمع بمختلف طبقاته .

ولكن اذا كانت ترجمة العلوم فى العهد الحاضر لم تكد تخطو خطوة الا على أيدي أساتذة الجامعة الذين أرادوا أن يقدموا لطلابهم موادهم العلمية عطبوعة فى كتب ، والا عن طريق وزارة الثقافة التى من أهدافها الكثيرة الكبيرة نقل أمهات المصادر العلمية كلها فى خمس سنوات ٠٠ فان ترجمة

الآداب لم يكن هذا شأنها دائما اذ نهض بجزء كبير منها هواة ٠٠ وهو أمر طبيعي ٠٠ فلا ينقل الادب الا محبوه ٠٠ ومع ذلك فالفارق واضح بين ترجمة أدبية يقدمها محب لها شغوف بها وبين ترجمة أدبية تجيء عن تكليف فتخرج باردة ، أو فاترة على الاقل ، ومن ثم اختلفت الموازين في ترجمة كتب الادب بخاصة اختلفا بينا ٠٠٠

والترجمة من لغة أوربية الى أخرى أيسر من غير شك من الترجمة من لغة أوربية الى لغة شرقية ذلك لان أصول اللغات تتقارب في الاولى وتتباين في الثانية فالترجمة من الفرنسية الى الاسبانية أو الايطالية مثلا أيسر من الترجمة من الفرنسية الى الانجليزية أو الالمانية وكلاهما أيسر من الترجمة الى العربية ٠٠ ذلك لان الفرنسية والاسبانية والايطالية يمكن ارجاعها الى أصول لاتينية حتى أن مفرداتها تكاد في أحيان كثيرة تكون واحدة بل وكذلك التركيبات والصياغة ٠٠ والانجليزية تجمع بين الاصول اللاتينية والجرمانية . وأما مجموعة اللغات الغربية فبعيدة كل البعد عن مجموعة اللغات الشرقية من ناحية الالفاظ ومن ناحية التراكيب معا .

واللغة العربية لغة عرفت بأنها غنية بمفرداتها غنى يستلقت النظر وهذه صعوبة جديدة لان تحديد اللفظ المناسب الدقيق في هذه الحالة من العسر بمكان كبير في أحيان كثيرة ومن الاستحالة في أحيان أخرى ولكن برغم وفرة الالفاظ نلتقى في اللغة العربية بصعوبة بارزة بالنواحي المعنوية الفنية أو العملية تشح فيها الالفاظ حتى لتكاد تستحيل التفرقة بينها . وبرغم ذلك فقد حرصت تماما وبقدر ما وسعني ذلك على المحافظة على روح النص ومعناه بل ومعناه أيضا وهو قصدته في هذه الترجمة فهي ليست ترجمة حرة أقدم بها النص على الصورة الميسرة التي قد يلجأ اليها المترجم أحيانا بل هي ترجمة مقيدة بروح الكاتب ملتزمة بأسلوبه بقدر الامكان .

هذا الى أن روسو نفسه يميزه عن غيره من الكتاب أسلوب خاص به ومفردات معينة ٠٠٠ فأسلوبه يتسم بصيغ فعلية يدأب على استعمالها أحيانا حين لا تدعو الضرورة الى ذلك . . وهو أسلوب تنعكس عليه في مظهر واضح العاطفة والحساسية المرهفة التي هي من خصائصه ككاتب . كما أنه ينحو ناحية التعبير عن الماديات بالفاظ معنوية أحيانا لا تتفق مع المادية التي يتناولها في تعبيره عنها أو هو يسوق أحيانا صفات بعيدة كل البعد عن المنطق التحليلي للفكرة التي يقدمها وما تستلزمه من أفاظ محدودة حتى لنتلقى ببعض هذه الالفاظ

التي تبدو متعارضة مع بعضها لأول وهلة أو التي تقدم صفات لا يمكن أن تعطى صورة حقيقية - بمعناها اللفظي - لما يراد التعبير عنه . وقد حرصت برغم ترجمتي لهذه الإلفاظ على الصورة التي أوردتها الكاتب على أن أنتقى أقربها مما يحقق ما يريد التعبير عنه بقدر الامكان .

وأرجو بذلك أن أكون وفقت لترجمة « أحلام يقظة جوال منفرد » على الوجه الذي يرضى روح الكاتب وأن أكون بذلك قد أضفت الى (الترجمة العربية) صفحة من الادب الفرنسى لم تسبق ترجمتها من قبل .

منذ أكثر من مائة وثمانين عاما كتب جان جاك روسو
 Jean-Jacques Rousseau الجولة العاشرة من
 « أحلام يقظة جوال منفرد » ولم يقدر له أن يكملها .
 كان ذلك في الثاني عشر من ابريل من عام ١٧٧٨ .
 في يوم « عيد الفصح المزهر » ٠٠٠ أى قبل وفاته بما
 يقل عن ثلاثة شهور اذ أنه قضى في الثاني من شهر
 يولييو من العام نفسه .

هذه الجولات اذن هي مؤلفه الاخير وآخر ما سجل من
 خواطر وخلجات سجلها ابتداء من ربيع عام ١٧٧٦ .
 كتب الاربعة الاولى منها في عامي ١٧٧٦ و ١٧٧٧ (١).
 وكتب الاربعة التالية في عام ١٧٧٧
 وكتب الجولتين الاخيرتين فيما بين يناير ١٧٧٨ حتى
 الثاني عشر من ابريل من العام نفسه .

(١) اختلف من تناولوا التعليق على حياة روسو في التحديد
 الزمنى لكتابة هذه الجولات ولكنني ارى أن ما أورده M. Monglond
 في كتابه Vies Préromantiques P. 30 برغم محاولة L. Courtois
 Chronologie de Rousseau تصحيح بعض هذه التواريخ
 يتفق وما أورده Henri Roddier في كتابه عن جان جاك روسو
 (وهو آخر ماظهر في هذا الصدد) على الاقل من ناحية تاريخ البدء
 في كتابة هذه الجولات وتاريخ الانتهاء منها .

وترجمة هذه الجولات والتعليق عليها من ناحية الظروف التي أحاطت بكتابتها ومن ناحية موضوعها ومغزاها ومن ناحية أهميتها كعمل أدبي هو ما أعرض له في هذا البحث .

لما كانت « أحلام يقظة جوال منفرد » *Les Rêveries du Promeneur* آخر ما كتب روسو في حياته تتصل اتصالا وثيقا بهذه الحياة وتبين عن دواحي نفسية الكاتب الكبير بما فيها من قوة وضعف ، فمن بساطة وتناقض ، هي خلاصة خمسة وستين عاما قضاها بين مد وجزر يتأرجح بين السعادة والشقاء ، يتنوق حلاوة الاستقرار حينما ويتشرد ضاربا في الأرض أحيانا كثيرة ، تسلط عليه أضواء الشهرة والمجد مرة وسيطاط الاضطهاد والاذلال مرات ، فقد وجدت لزاما على ، اذ أقدم للقارىء العربى هذا المؤلف مترجما الى اللغة العربية ، أن أستعرض معه مراحل صاحبها المختلفة بحلوها ومرها ، بما تخللها من أحداث شكلت ذاته وتركت انطباعاتها غائرة في نفسه عميقة الاثر وبما أنتج خلالها من كتابات هي وليدة تلك الانطباعات وتلك النفس .

حياة روسو وأثرها في انتاجه الأدبي

نشأته وطفولته :

أما طفولته فمريرة قاسية : منحته أمه الحياة ثم لقيت ربها بعد ذلك بثمانية أيام حتى أن روسو كان يقول فيما بعد « كان مولدى أولى تعاساتى » فكفله أبوه اسحق روسو Issac Rousseau وكان صانع ساعات فكان يرى في طفله صورة زوجه التى فقدتها يذرف الدموع سخية كلما قبله وكلما ذكرها . ولما بلغ روسو السادسة أخذ أبوه يعوده القراءة فكانا يقرآن الروايات والقصص يصرفان الليل لجله في ذلك حتى شروق الشمس فينهض الأب خجلا من نفسه ويعتذر لابنه فى استحياء بأنه « أشد منه طفولة » . كان لتلك القراءات غير المنتظمة ومن بينها قراءة بعض مؤلفات مولير Solitaire وتاريخ الأمبراطورية والكنيسة وحياة مشاهير الرجال لبلوتارك (١) Plutarque كان لها أثرها فى اذكاء خيال روسو الطفل وبخاصة كتاب « بلوتارك » الذى تأثر به أيضا تأثير وأورد ذكره فى مستهل « الجولة الرابعة » اذ يقول « من بين الكتب القليلة التى لا تزال أقرؤها

(١) بلوتارك مؤرخ يونانى قديم كتب عن حياة مشاهير الرجال وترجمت كته الى اللغة الفرنسية .

أحيانا كتاب « بلوتارك » الذى يشدنى اليه ويستغرقنى أكثر من غيره لقد كان أول ما طالعت فى طفولتى وسيكون آخرها فى شيخوختى . وهكذا كان قلب روسو وعقله يتفتحان على عالم عظيم يجده فى ثنايا تلك الكتب العظيمة فى حين انصفار من سنه يمرحون ويلاعبون . وكانت له عمة أيضا تحنو عليه تعنى به وتغنى له وكانت « ذات صوت عذب رخيم » فكان لأنغامها الرقيقة الحنون وأثرها فى ارهاف حسه بل انه يقول : ان ذلك كان مبعث ولعه بالموسيقى فيما بعد . وهكذا شب روسو وقد تهيأت له عوامل تذكى خياله وتوقد حساسيته : قراءات وأنغام وحنان ، فظل طيلة حياته يبحث دون طائل بين الناس عن المثالية والفضائل العظيمة التى طالعتة فى ابطال « بلوتارك » ويفتقد حنانا دافئا تفتحت حواسه وقلبه عليه . .

ولكن كان الأب على شىء من الاستهتار بالمسئولية وعلى شىء من النزق فارتكب مخالفة خشى أن يسجن على أثرها فاضطر الى الهرب من جنيف Genève بعد أن عهد بالطفل الى خاله برنار Bernard وهكذا حرم الطفل المسكين أباه وأمه . ولكن ذلك الحال ما لبث أن ضاق بروسو فعهد به وبابن له كان يناسب روسو سنا الى معلم يدعى لامبرسييه Lambercier وهو قسيس بروتستانتى يقيم بالريف فى قرية بوسى Bossey

قضى روسو فى كنف ذلك القس عامين يعدهما أسعد سنوات طفولته تعلم فيهما كيف يصلى لله ويمجده الى جانب مبادئ الدين التى ميزته فيما بعد عن فلاسفة القرن الثامن عشر الملحدين . . وفيهما أيضا استيقظ فى نفسه المراهقة حب الطبيعة الحلوة المنعزلة ذلك الحب الذى جعل منه « أكبر مصور للطبيعة عرفته فرنسا حتى نهاية القرن الثامن عشر » (١) فكتب فيها أجمل صفحاته وأخلدها لاسيما فى أحلام اليقظة Les Rêveries

وكان للقس أخت تخطت سن الثلاثين كانت تعنى بتهديبه وتعمد الى الضرب أحيانا ولكن روسو كان يجد فى عقابها على هذا النحو لذة فتعلق بها تعلقا لا يدرك هو نفسه له تفسير كما كتب فى الاعترافات Les Confessions بعد خمسين عاما من ذلك . أفكان يبحث فى شخصها عن الأم وحنانها ولذة عقابها وقد حرم ذلك كله ؟ أم هى حواسه تفتحت واستيقظت قبل الأوان ؟

وعلى أية حال فان ذلك النوع الخيالى من الحب ، ذلك النوع غير
المحدد منه ، هو الذى تخلل حياة روسو وكان له أثره فى علاقاته مع
النساء وفى كتاباته على السواء .

لكن لم يطل مقامه هناك بعد أن اتهم بكسر مشط للآنسة « لامبرسييه
Melle Lambercier وكان ذلك نذيرا بتسركه للذار اذ أصر على
الانكار فاعتبر ذلك كذبا من ناحيته واضطر الى العودة الى خاله وكان
ذلك مبدأ نحس طويل . . . ظل فترة دون عمل ولم يكن هناك من يهتم به
ويرعاه . ثم أرسله خاله الى أحد الكتبة العموميين لكنه لم يفلح ، ثم وجهه
الى حرفه النقش على المعادن ولكن معلمه كان قسيسا غليظ القلب بثت
معاملته الفظة للطفل فى نفسه بعض الرذائل كالغش والكذب والسرقة ،
كان يعاند ويغالى فيها كلما زادت تلك المعاملة سوءا . . . وفى ذلك الوقت
أيضا أخذ يتجه من جديد نحو الكتب : الطيب منها والخبيث على السواء
وينفق فى ذلك ما يحصل عليه من معلمه من نقود زهيدة كما كان يخرج
للتنزه مع رفاق له خارج المدينة كان يعود منها متأخرا فيشبعه معلمه لظما
ولكما . ولكنه لم يصبر على الضيم والمهانة وأخذ يتحين أول بادرة
للخلاص . . . فما أن عاد يوما من الغابة ليجد أبواب المدينة وقد أوصدها
الحراس حتى أقسم ألا يعود ، وقضى الليل خارج الاسوار . . . وفى الصباح
قرر الفرار الى غير رجعة . . . وفى تلك اللحظة انتهت مرحلة من عدم
الاستقرار . . . طابعها التشرد والحرمان . . . حرم فيها الابوين وحياة الأسرة
. . . وذاق من متاعب الفاقة والنحس ما ينوء به رجال أشداء . . . وهو
لا يزال فتى طرى العود فى عامه السادس عشر . . .

ها هو ذا روسو وحيد فى ببدء الحياة . . . أما خاله برنار Bernard
فقد ارتاح لخصه منه وأما أبوه فقد شرع فى البحث عنه لكنه كف بعد
قليل كرجل لا يهتم من الدنيا الا أمر نفسه .

أفمن الغريب بعد أن قاسى الفتى ما قاسى أن يرتكب فيما بعد
ما ارتكب من هفوات حيننا ومن أخطاء جسيمة أحيانا . . . أو ليس ظلما
أن نحاسبه عليها كما نحاسب من تهيأت له سبل الحياة وسارت به سهلة
ميسورة فأنحرف ؟ أليكون ذلك عدلا منا ازاء من ترك لنفسه فى تلك
السن الباكرة بلا هاد ولا مرشد أمين يتيما فقيرا شريدا خاوى الوفاض الا
من قلب ذكى وحس مرهف ؟

ساقته قهواه عبر الريف الى قس يدعى دوبونفير De Pontverre فتلقاه مرحبا وأكرم وفادته ثم حدثه عن «الكاثوليكية» ودعاه الى اعتناقها مبينا مزاياها ومساوى البروتستانتية ، دين أهل جنيف ثم بعث به الى سيدة محسنة كانت قد تحولت هي الأخرى الى الديانة الكاثوليكية وأخذت على عاتقها « انقاذ بعض الارواح المخطئة »

تلك كانت مدام دو فواران Mme De warens التي خصها روسو بـ « الجولة العاشرة » من « أحلام اليقظة Les Rêveries والتي اعتبر روسو الإقامة في كنفها وبخاصة في « الشارميت Les Charmettes » أسعد فترة في حياته ، بل أيامه التي عاشها حقا .

ويعتبر ذلك اليوم الثاني عشر من ابريل من عام ١٧٢٨ . كما يذكر روسو في تلك الجولة « يوم عيد الفصح المزهر » نقطة البداية .. بداية كل شيء .. بداية الشباب وفورته .. بداية الآمال .. بداية الآلام .. أى بداية تعلم الحياة ومعرفتها ..

ذهب إليها كما أوصاه دوبونفير De Pontverre متوقعا أن يلقي عجوزا متعصبة لكنه ذهل اذ أبصرت عيناه سيدة في الثامنة والعشرين ذات حسن وضاء وعينين زرقاوين جميلتين ولون باهر وعنق ساحر .. ذات ابتسامة ملائكية وفم صغير وشعر نادر نوع جماله .. وعندئذ اعتقد في يقين ان « دينا يدعو اليه مثل أولئك الرسل لابد مؤد الى الجنة .. »

أما هو كما يسجل في « الاعترافات » فيما بعد فكان يومئذ في « منتصف السادسة عشر من عمري ومن غير أن أكون شابا جميلا كنت منتظم القامة جميل القدم دقيق الساق حى الوجه صغير الفم فاحم لون الشعر صغير العينين غائرها ولكنهما كانتا شديدتى البريق تقدفان كل ما فى دمي من حرارة »

علق روسو بالسيدة منذ النظرة الأولى وارتاح اليها ورغب من صميم نفسه لو انه أقام لديها لكنها لم تتركه سوى أيام نصحته بعدها بالتوجه الى تورين بايطاليا Turin الى دير يجد فيه الملاذ .. فقصد الى هناك مزودا بنصح السيدة وبمبلغ يسير من المال .. ما لبث أن نفذ بعد قليل فدخل الدير ليفقد ثقته بالوعاظ ورجال الدين لما لقيه من غرائب تنفر منها النفوس فكرههم كرها فضحت به كتبه وخاصة « الاعترافات » Les Confessions « وأحلام اليقظة Les Rêveries » واعتبر الدير

سجنا لابد من الافلات منه وفعلا انطلق منه ولم تتجاوز اقامته فيه شهرا واحدا بعد أن كفر بتعاليمه وبمن فيه .

خرج من الدير باحثا عن مأوى وعن مورد يعيش منه . فتدرج في ألوان من العمل منها الخدمة في المنازل ومنها خدمة سيدة ايطالية جميلة تدعى مدام بازيل Mme Basile سرعان ما أعجب بها وأحبها فلما أحست منه ذلك صرفته ، وبعدئذ انتقل الى دار سيدة تدعى مدام دو فرسليس Madame De Vercellis وهناك أخفى شريطا التي تهمة اخفائه على خادم تدعى ماريون Marion ، وهذه احدى الحوادث التي ظلت تؤرقه طيلة حياته حتى ليذكرها في الصفحة الأولى من « الجولة الرابعة » اذ يسميها « الاكثوبة الشنعاء التي ارتكبتها في شبابي الباكر والتي ظلت ذكرها تذكر صفوى طوال حياتي . » وكان من نتائجها أن طرد هو وتلك الخادم من تلك الدار . . .

ومن بعدها التحق بخدمة الكونت دو جوفون Co mtre De Gouffon في مدينة تورين Turin مالبث أن غدا صديقا لابنه وكاتب سره وساعده . ذلك على اتقان اللغة الايطالية وعلى اكتساب معلومات كثيرة نافعة . وكان موضع الرعاية في تلك الدار فعادت اليه ثقته بنفسه حتى أنه أضحى يدرك أنه لم يخلق ليخدم في المنازل . . . فترك عمله به عائدا أدرجه الى آنسى Ancey بسويسرة فاستقبلته مدام دو فواران في ود مرحبة فقر قراره عندها تدعوه صغيرى ويدعوها « أمى Maman » يلاطفها ويحبها بل ويقدمها ولا غرو فقد أصبحت له أما وحبيبة على السواء . . . وعوضته حنانا في أمه فقده وحبا ملاً عليه فراغ شبابه وحسه .

عاش روسو مع « أمه » يتعلم الموسيقى وينهل المعرفة من الكتب من جديد . . . ويراه قس هو قريب لمدام دو فواران فيقضى بأنه لا يصلح الا أن يكون « قسا في قرية » فترسله الى معهد دينى في البلدة ليخرج منه بعد قليل دون فائدة تذكر ثم تعهد به الى رئيس موسيقيي كاتدرائية البلدة ويدعى مسيو لومتر M. Lemaître . ولم يستفد منه كذلك وكأنما لم يقدر لروسو أن يتلقى العلم على معلم طوال حياته . . . وحدث أن اختلف لومتر Lemaître مع رجال الكاتدرائية فاضطر الى السفر . . . الى باريس وصحبه روسو في سفره يعينه على نقل متاعه لكنه تخلى عن استاذة في منتصف الطريق على أثر نوبة عصبية كانت تعاود الموسيقى نتيجة لأدمانه السكر . ويعد روسو حادثة تركه له جريمته الثانية بعد حادثة سرقة الشريط ، أنبه ضميره طويلا عليها . . . وهكذا كان روسو

متضاربا في تصرفاته يأتي الخطأ ليعذبه بعد ذلك نفس ذلك الخطأ .. وهو يفسر ذلك بقوله : « يجتمع في شيئين متضادان أو يكادان ، لا أستطيع أن أعقل اجتماعهما : فاحساس شديد وعواطف قوية وشهوات متحركة تقابلها أفكار بطيئة التبين لانظره الا بعد زمن فكانما في قلب رجل وعقل رجل آخر » . ويعود بعد ذلك الى آنسى Annecy فلا يجد «مدام دوفواران» فيأخذ في التجول وسط الطبيعة مستغرقا في أحلام لا تنتهي .. ويتعرف بفتيات وبنساء لم يكن لهن أثر قوى في حياته .

ويهم روسو في الحياة طارقا أبوابها ، فقيرا خالي الجيب ، فيعمل مترجما لقسيس ايطالي ثم سكرتيرا لأحد الشبان المشتغلين بالوظائف العسكرية ثم ناقلا للموسيقى . وأخيرا يعلم بمقام مدام دوفواران تشامبري Chambéry فيعود اليها ملتقيا في الطريق بفلاحين بلغ بهم البؤس أقصاه ، أنقلتهم الأضراب وظلمهم نظام اجتماعي فاسد فتأثرت نفسه وقدر لهذا التأثير أن يجد متنفسا في كتاباته فيما بعد ..

عاد رسو « أمه » ليجد عندها كلود آنيت Claude Anet خادما وخليلا .. ومع ذلك فقد أقام عندها سنوات ، يموت أثناءها كلود آنيت ويصبح هو الصديق والمدبر لثئونها بعد أن وهبته نفسها ، « درءا له عما قد توقعه فيه سنه عندئذ في هاوية الشهوات » على نحو ما قال .

كان روسو في تلك الفترة سعيدا قريير العين .. وكانت حياته بالريف داعية لاستسلامه للطبيعة والاحلام وحب النباتات الى جانب سعيه في ميدان الموسيقى والعناية بدراستها .. ولعل الصفحات التي كتبها عنها هي من أبداع ماسطر خياله وقلبه معا فهي « جنته التي عاشها على الأرض » وكذلك في « الاعترافات » : هنا تجيء اللحظات السعيدة الهادئة التي تجعلني أقول اننى حبيت .. ايه أيتها اللحظات الثمينة المأسوف عليها .. الإعودى فيعود معك الهناء . انسايى في ذاكرتى ان استطعت أكثر بطنا مما كنتفى سرعة مرك . ما عساي أعمل لأطيل كما أريد هذه الذكرى البسيطة المؤثرة ولأقول وأعيد الأشياء نفسها ولا يفمل قارىء من اعادتها كما لا أمل أنا من استعادة ذكراها .

واستقر رأيهما بعد ذلك على الاعتزال في الريف فأقاما في الشارميت les Charmettes في ربوع الطبيعة التي أحبها ينهل من محاسنها فتغذى خياله واحساسه ، يجنى الزهور ويرتاد الغابات والوديان كما يقرأ في الفلك والنجوم والطب والفلسفة .

لكن انغماسه في تلك السعادة لم يمنع عنه زائرا بغيضا .. وهو

المرض ٠٠ وهو لما يزل في الخامسة والعشرين انتابته بعض العلل الحقيقية وبعض الآخر توهم أنه مصاب به ، كمرض القلب ، فسافر للعلاج ٠٠ وتقابل في الطريق بمدام « دولارناج » ، Madame De Larnage وهي سيدة فاتنة عظمت عليه فأصاب عطفها القلب فهام بها حبا وقال فيها « لولا مدام دولارناج لمت من غير أن أعرف المذات » ، مما أنساه مرض القلب فكر راجعا بعد أن نسي حبه أو تناساه ، وهكذا حال الفنانين لا يثبت لهم حال ولا يقر لهم قرار ٠٠ عاد ليرى مدام دوفواران وقد استبدلته برفيق آخر وتقابله ببرود وجفاء لكنه بقى حتى لقي من الاغضاء عنه والامتعاض ما نفذ معه صبره فسافر مزودا بتوصية منها الى ليون Lyon بفرنسا حيث عمل مربيا ثم استقال ليعود الى السيدة ليجدها وقد تدهورت حالتها المالية وتراكت عليها الديون . ففكر في مشروع جديد يعبر فيه عن السلم الموسيقى بالأرقام لعله بذلك ينال مالا يعين به «أمه» ثم سافر الى باريس حتى يعرضه على الأكاديمية هناك .

روسو في باريس :

كان في التاسعة والعشرين عندما قدم باريس مزودا بخطابات توصية الى جماعة من كبرائها ولم يكن يملك سوى خمسة عشر جنيتها واقتراحه بشأن رقم الموسيقى ورواية مسرحية سماها نارسيس Narcisse ٠٠٠ فشل مشروع الموسيقى بعد أن فحصته لجنة من أكاديمية الفنون ٠٠ لم يدر عليه مالا ولكنه جعله يتعرف الى عدد من رجال الادب المشهورين مثل ماريفو Marivaux وديدرو Diderot وفونتنيل Fontenelle ثم عرف طريقه الى نساء المجتمع لعله ينجح عن طريقهن كما أوصاه البعض فتعرف على مدام دوبين Mme Dupin التي كتب باسمها رواية موسيقية أسماها عرائس الشعر الرقيقات Les Muses Galantes ثم شق طريقه بواسطة صديقاتها الى العمل بالمندقية في سكرتيرية القنصلية هناك ولكن لم يرق له العمل فعاد الى باريس ليلتقى في نزل بامرأه جديدة هي « تريز لوفاسير Thérèse Levasseur » التي شاء سوء طالعها أن تعاشه وترزق منه بأطفال ، في بعض الآراء ٠٠ كانت تتمهن تنظيف الملابس وغسلها وكانت أمها تاجرة صغيرة في أورليان Orléans وكانت لها بساطة أهل الريف وسذاجتهم ٠٠ ومن عجب أن جان جاك روسو وجد فيها من تكمله وهي التي قال عنها « ولست أخجل حين اعترف أنها لم تحسن أبدا القراءة وان كانت تكتب كتابة مقبولة ٠٠ ولما أقمت في شارع (٠٠) كان مقابل نوافذى ساعة كبيرة جهدت أكثر من شهر لأعلمها

فيها معرفة الوقت وهي الآن لا تكاد تعرفه .. وما استطاعت يوما أن تفهم نظام الاثنى عشر شهرا السنوية .. وهي لا تعرف رقما واحدا برغم المجهودات التي أنفقت لفهامها الأرقام .. فلا تعرف عن النقد ولا ثمن شيء ما .. والكلمة التي تنطق بها هي في أغلب الأمر عكس ما تريد أن تقوله على أنها برغم مبلغها هذا من الغباء بل ومن البلادة ، اذا شاء القارئ، فلها نصائح ثمينة في أخرج الاوقات .. »

تلك هي المخلوقة التي شاء القدر أن يضعها في طريق روسو لتعاشره ما بقي من حياته وليعزى اليها أنها هي التي ساقته الى ما بلغه من اضطراب نفسى وذهنى وأنه لولاها لما بلغت حاله تلك من السوء ما بلغت .. وكانت أمها تستغل علاقتها بروسو فلا تكاد تحس بالمال بين يديه حتى تغير على البيت مع أخوتها وبناتها وأبائها وحفدتها لتستنفد رزقه الضئيل .. وقد رزقت تريمز بخمسة من الإبناء ألقى بهم في ملجأ اللقطاء ، واعتذر روسو عن جريمته بمعاذير شتى منها .. أنه كان يخشى أن ينشأوا في كنف أم هي تريمز ، وبين عائلة هي عائلتها فتساء تربيتهم وذلك لعجزه عن القيام على تربيتهم بنفسه ، كما دافع عن نفسه في « الجولة التاسعة » من « أحلام اليقظة » ، اذ يسرد مثلا ما فعله محمد مع سعيد ولكننا لا نعرف من هو سعيد هذا ولم يرد في السيرة النبوية ما ينسب بآن محمدا صلى الله عليه وسلم حرض شخصا يدعى سعيدا على اتيان ما يخالف الشريعة والأخلاق .. لكن محمدا ظلمه الكتاب المتعصبون فكتبوا عنه مفترين ويبدو أن روسو الذي استقى كل معلوماته عن طريق القراءة السريعة بلا تمحيص ولا سعى وراء حقيقة .. يبدو أنه ساق المثل ، قاده اليه أباطيل واقتراعات ، محمد الرسول منها براء .

ومهما كان من أمر روسو ومن دفاعه عن نفسه في « الجولة التاسعة » وفي غير « أحلام اليقظة » كذلك فإن ذكره أمر أطفاله وإهماله الشنيع لهم وهو على شفا الموت يستعد للملاقاة ربه كان بلا ريب صادرا عن أسف عميق وندم واحساس بالجرم أليم ..

ولكن المؤرخين والنقاد لم يعفوه رغم ذلك .. بل ذهب البعض الى القول بأنه كان كاذبا لأنه كان مريضا باحتباس في المثانة ومن ثم فان مرضه أعقمه فهو لم يتورط في هذه الجريمة ولم يرزق بأطفال .. وانما ألجأه للكذب شدة ميله للنساء اللواتي ان عرفن عنه العقم انفضضن من حوله .. وقال آخرون انه لم يشر في « الاشتراقات » ولا في « أحلام اليقظة » الى أنه رأى أبناءه وانما قال ان أم تريمز هي التي كانت تخبره بحمل ابنتها

وتأخذ على عاتقها إيداع الطفل في « ملجأ اللقطاء » .. ويعزز هذا القول أن واحدة ممن اتصلن بتريز لم تشر مرة إلى حملها وإنما كن يعلمن بأبناء روسو منه نفسه وليس من طريق آخر .. والرأى الثالث هو أن تريز حملت فعلا ولكن ليس من روسو ومن ثم فحريمته أقل نكرا .. ومهما يكن من أمر فإن روسو نفسه يكاد يكون لقيطا .. لم يعرف أمه .. ولم يستظل بعطف أبيه فهو يتيم مشرد في طفولته .. لم يحس بعاطفة أبويه .. فلئن صح أنه كان أبا فليس بعجيب أن يودع أبناءه « ملجأ اللقطاء » لأنه نفسه لم يتنوق طعام « البيت » .. كما أنه يشير إلى أنه كان يلقي شبانا في مطعم الأوبرا فيفخر الواحد منهم بأنه « أكثر من غيره الهاما في تعبير « ملجأ اللقطاء » .. وكان هؤلاء الشبان موضع الإعجاب .. فقلت في نفسي : ما دامت تلك عادة البلاد فقى وسع الانسان اتباعها ما دام يعيش فيها .. وكذلك اخترت هذه الطريقة وصممت على تنفيذها بلا اكتراث ومن غير أن يعرفوني هم » .

ولكن من عجب أن حياة روسو انتظمت نوعا ما في قرب تريز فاستسلم للعمل المجدى .. وأنتج أعماله الأدبية جميعا .

تعرف روسو بعد ذلك الى مدام دابنای Mme D'Epinaى وكانت موسيقية قادرة .. وسهل له ذلك التعرف بدمام دودتو Mme D'Houdetot

كانت صلات روسو بهذه الطبقة الجديدة أمرا ذا أثر ملحوظ في حياته .. كان الأدب الدينى قوام أمهات الكتب فى ذلك العصر وكانت الاشادة بالكثلكة هدفه وكان الملك رمزا للتدين وكان هم الشعراء والكتاب امتداحه والزلزلى له .. ولكن لم يكد يمضى عصر الملك لويس الرابع عشر حتى دب الفساد فى البلاد بعد أن أرهقها الترف وداخل الكنيسة الضعف .. وجاء القرن الثامن عشر فى أعقاب هذه المرحلة معاديا للدين قاتلا لكل العقائد السابقة نائرا ضد سلطة الفرد .. غير أن البناء الاجتماعى لم ينله الانهيار فظلت « الصالونات » كما هى بل اتسعت دائرتها بعد أن انفض عن البلاط من كانوا يقفون عند بواباته .. وذهب روسو البروتستانتى الأصل الكاثوليكي القلب المتوقد الخيال الميال للوحدة العاشق للطبيعة البكر العاجز عن الظهور فى المجتمعات المصاب بالآفات والعلل وصل ليجد من حسن الاستقبال ما أذهب عن نفسه بعضا مما كان بها من اليأس وفتح أمامه متنفسا من الأمل فى الحياة .. وكانت صلته « بديدرو Diderot قد توطدت فاتفق معه على نشر صحيفة هى « الساخر Le persifleur » لم يظهر منها سوى العدد الأول اذ سجن ديدرو بعدها على أثر كتابه فى

« الآثار الفلسفية » وكان روسو يتردد عليه سيراً على الأقدام .. لأنه لم يكن يملك أجر العربة .. وهو يطالع دائماً فى كتاب ..

وبينما كان ذات يوم ذاهباً لزيارة صديقه .. فتح جريدة « مريكير دو فرانس »، Mercure De France وهو مستند الى شجرة يستريح وإذا بنظره يقع على سؤال جاء بالصحيفة طرحه مجمع ديجون L'Académie de Dijon ومؤداهل ساعدت العلوم والفنون على تطهير العادات Discours sur les Science et les Arts. وانفعل روسو أشد الانفعال وعول على نشر رأيه وعضده فى ذلك ديدرو .. فأدلى رسو بدلوه ونال الجائزة فى يوليو عام ١٧٥٠ .

ويقول روسو بعدئذ فى اعترافاته « ولكن ذلك كان سبب ضياعى طوال حياتى وكان سبب تعاستى » .. وذلك لأنه قضى حياته بعد ذلك يبحث عن الحرية والفضيلة والحق .

كان ذلك أول فوز لروسو فى حياته .. وأول خطرة له نحو المجد .. ذلك المجد الذى وإفاه - كالتقدر - على غير موعد - ودون أن يدبر له .. بعد أن بلغ الثامنة والثلاثين .

كان رد روسو يتضمن الطعن فى المجتمع المدنى والمناذاة بالرجوع الى الحالة الطبيعية واعتبار العلوم والفنون مصائب وأهوالاً انصبحت على رأس الانسانية، بل انها تقتل فراغ الرجال وتعودهم البطالة وهى المسئولة وحدها عن الانخراط والفساد . والواقع أن هذا أمر طبيعى بالنسبة لروسو ، فالعلوم والفنون اثر من آثار المجتمع الذى لم يلق روسو فيه تجاحاً ، والفنون مصدر ثراء لبعض الناس وهو لم يلق منها سوى النحس والتعاسة . وقد نقد كثير من المفكرين مقاله ومنهم فولتير سنة ١٧٥١ فأجابه روسو على نقده .

وحتى يكون روسو منطقياً مع نفسه أدخل تعديلاً على طريقة عيشه وملبسه .. فعمد الى البساطة وتخلي عن كل زينة .. وانصرف الى التقشف .. وهو يشير الى ذلك فى « أحلام اليقظة » فى « الجولة الثالثة » : « هجرت الحياة الدنيا بمفاتها وزهدت كل زخرف فلم يعد لى سيف ولا ساعة ولا جوارب بيضاء ولا حلئ ذهبية ولا زينة شعر بل شعر مستعار بسيط جداً ورداء سميك من الصوف .. بل - وخيراً من هذا كله - نزعمت من قلبى كل اشتهاة لجمع المال وكل مطمع فى آكل ماله قيمة ثم هجرت الوظيفة التى كنت أشغلها اذ ذاك والتى لم أكن خليقاً بها البتة وانصرفت الى نسخ الموسيقى نظيراً أجر معين للصفحة الواحدة وهو عمل كنت شديد الميل اليه دائماً »

ثم ألف بعد ذلك أوبرا **عراف القرية** Le Devin du Village مثلت أمام الملك ورضى عنها فطلب مقابلة روسو لكنه أبى مؤثرا حرته ومبادئه . . وهى لمحة أخرى من لمحات تلك الطباع الالابية العزيزة الزاهدة . . ثم مثلت رواية « **نارسييس** Narcisse ففشلت كل الفشل .

وفيما هو يتأرجح بين الفشل والنجاح أعلن مجمع ديجون **ersifleur** عام 1754 سؤالا لمسابقة موضوعها « **أسباب عدم المساواة** » بين الناس » Discours sur l'inégalité parmi les hommes - فكتب روسو وكانت كتابته هذه المرة أقوى وأبلغ : ومع ذلك فلم ينل عنها الجائزة . . صاح روسو صيحة مدوية فى وجه الملكية الفردية . . ودعا الفقراء الى التمرد على النظام الاقطاعى . . قال: « ان الحرية لا تكون مع عدم المساواة فمن عدم المساواة تنشأ الثروة والثروة تولد الترف والفراغ والترف أصل وجود الفنون ، والفراغ أصل وجود العلوم . . واذا كان التخلف الحضارى يدرأ هذا الظلم فلنعد اليه راضين . . » - وكانت تلك جراءة نادرة وشجاعة تستحق الاعجاب من جانب روسو . . وهذا المقال يعالج مشكلة سياسية واجتماعية معاصرة . . مشكلة الانسان فى السعادة والشقاء . . فجاء عملا أدبيا رائعا اهتزت له أفكار القرن الثامن عشر . . وجاءت الثورة الفرنسية لتقدسه فقد كان مبشرا ونذيرا وداعيا الى الاسس التى قامت عليها . . وسراجا منيرا .

وفكر بعدئذ فى أن يزور وطنه جنيف Genève ومهد صباه . . فسافر تصحبه « تيريز » وعرج فى طريقه على « مدام دوفواران » وكانت تتجرع حينئذ كأس الفاقة والشقاء . . فترك لها بعض ما معه من نقود . . ثم دخل جنيف محتفى به مستقبلا أجمل استقبال . . خرج منها يتيما . . شريدا . . كسير الخاطر . . ليعود ترمقه العيون فى اكبار . بعد أن غدا عبقريا طبقت شهرته الافاق .

لبث روسو بجنيف أربعة أشهر يتمتع العين بالماء والخضرة . . ثم غادرها الى باريس فى خريف عام 1754 راضيا عن مقامه فيها . . وشتان بين مغادرته اياها هذه وبين المرة الأولى . . تركها وفى قلبه حنين الى العزلة الهادئة . . الى الجمال الحق . . الى الطبيعة البدعية مرتع صباه وملهمة يراعه لذلك ما أن عرضت عليه مدام دانباى Madame D'Epinaى المقام فى الأرميتاج L'Ermitage على مقربة من قصرها ومن غابة مونترنسى Mont Morency حتى قبل متلهفا سعيدا . . فترك باريس مرة أخرى فى ابريل عام 1756 ولم يقدر له دخولها بعدئذ الا فى أواخر أيامه .

وإذا كانت الأعوام التي قضاها روسو في « الشارميت » مرحلة دراسة وتحصيل فإن السنين التي قضاها في مونرنسي ستكون مرحلة تعبير وإنتاج غزير . عاش في صومعته راضيا قرير العين بنسخ الموسيقى لأنها مورد رزقه ويهرع إلى الغابة فتحنو عليه الطبيعة . . الأم . . التي تعطي ولا تأخذ . . الطبيعة التي تجرى دائما وأبدا على لسان عاشقها روسو . . الطبيعة التي تهدى المؤمن . . وتلهم الفنان . . وكذلك ألهته روايته الطويلة الخالدة « هلويز الجديدة La Nouvelle Héloïse » وقد بلغ الخامسة والأربعين ، ولا عجب فقد عاش روسو معاش بقلب شباب وعواطف متقدة . . كانت الطبيعة بسحرها وخيالاتها ملهمته . . ولكن كانت هناك أيضا مدام دودتو Mme d'Houdetot زوج أخ مدام دابنای وصديقة سنان لامبير الشاعر Saint-Lambert صديق روسو الحميم . . تعلق بها تعلقا بلغ حد الهيام . . تعلقا عذريا طاهرا . . ولكنه أوغر صدر مدام دابنای غيرة وحقدًا . . فسعت للوقعة . . وكانت صديقة « لجريم » Grimim وديدرو Diderot فتألب عليه الجميع واضطهدوه . . وانتهى به الأمر إلى الخروج من صومعته بعد أن طردته منه مضيفته في خطاب شديد اللهجة . . خاصة بعد أن رفض روسو السفر معها إلى سويسرا لزيارة الطبيب ترونشان Tronchin واستشارته . . فشهرت به وناصرها في ذلك جريم وديدرو فأصبح روسو يعتقد اعتقادا راسخا في اضطهاد أصحابه جميعا له ورغبتهم في إلحاق الشر به .

خرج روسو اذن من صومعته على أسوأ حال بعد أن كان يحلم بالإقامة فيها ، يتخيل في عزلته ، وينصرف إلى التأليف . وكاننا أفاق مذعورا من حلمه فيرى فيمن حوله عصبية تتأمر على راحته وسمعته مستهدفة القضاء على صحته وحياته . . خرج منها وقد كفر مرة أخرى بالناس وباصدقائه وبخاصة جريم وديدرو . . وأضحى شعوره بالاضطهاد يلزمه وينغص عليه حياته بل ويتفاقم كلما زادت الصدمات والمصائب مرة واحدة . . وما أكثرها في حياة روسو المسكين ، ومع ذلك فإن تلك الفترة كما قلنا كانت فترة انتاج أدبي غزير كتب فيها قسما من هلويز الجديدة La Nouvelle Héloïse وآخر من العقد الاجتماعي Le Contrat Social

وأما هلويز الجديدة فهي في ذاتها « حلم بقطة » طويل . . رائع . . قوامه الحب العذري والطبيعة ، رسم روسو فيها الإحاسيس والمشاعر بدقة وحرارة فائقتين . فهي اعتراف وحلم وتعبير عن حياته الداخلية كما أن

فيها فلسفة لحب الله على طريقة روسو . . وكان روسو وفيما لوطنه فجعل
جوها بحيرة جنيف فهي من أجمل بحيرات العالم في نظره فعرف روسو
الناس بسويسرا وربوعها وكان من أثر كتابته تلك أن وفد السواح
من كل صوب على سويسرا ينهلون من مفاتها ويجتلون الطبيعة التي
مجدها روسو فيها . . ومن أجلها أيضا استحق روسو لقب الرائد الأول
للعصر الرومانتيكي .

وكانت علاقة روسو بفولتير Voltaire حتى ذلك العهد طيبة ولكنها
سأت بسبب ما كتبه الفيلسوف دالمبير D'Alembert بايعاز من فولتير في
الانسايكلوبيديا عن وجوب بناء مسرح جنيف اذ تصور روسو أن فولتير يريد
انعاس وطنه جنيف وافساده فكتب رسالة الى دالمبير Lettre à D'Alembert
معددا مساوية المسرح مدلا على عدم حاجة جنيف اليه منددا بمسرحيات
موليير Molière ، وهو أعظم كوميدي في القرن السابع عشر ، فهي
مدرسة للذائل والعادات السيئة اذ لا تعتمد الا على المكر والحيلة . .
ولكن فولتير غضب من تلك الرسالة فكانت القطيعة بينه وبين روسو . . تلك
القطيعة التي ظلت قائمة حتى الموت .

وهكذا كان أعداء روسو وحساده يتزايدون كل يوم . وفي تلك الاثناء
كان روسو قد انتهى من كتابه «هلويز الجديدة» في شتاء ١٧٩٨ وبعث
به الى الناشر في امستردام فعرض عليه هذا وظيفة محرر في جريدة
العلماء فرفض بقوله « لقد كنت أعلم أن امتيازي في الكتابة راجع الى حرارة
في النفس تحسن ما أعالجه من المواضيع وانه حب العظيم والحق والجميل
هو الذي يحرك عبقريتي . . لكنهم ظنوا أنني أستطيع الكتابة بالحرفة كما
يكتب سواي من الادباء . . والحق أنني ما كتبت الا تحت دافع شهوة
الكتابة والفكرة » .

وفي ربيع ١٧٥٩ سكن في القصر الصغير الملحق بقصر الدوقة
دو لوكسمبرج Duchesse de Luxembourg في طرف الغابة بناء على الحاجها
وساعدته الاقامة هناك على الاتصال بالمارشال زوجها وبجميع أصحابهم
وأصدقائهم من الكبراء وأكسبه هذا الاتصال هنا داخليا كان منيته المتواضع
يكبره في عينه .

واما ثالث انتاجه في تلك الفترة فهو كتاب اميل Emile انتهى
منه وأودعه المطبعة ثم سقط مريضا في خريف عام ١٧٦١ وكان شديد
القلق على مصير ذلك الكتاب يخشى أن يتلفه أعداؤه وكانما كان يستطلع
الغيب .

وصدر بعد ذلك كتابه «العقد الاجتماعي» Le Contrat Social وكان قد بدأ كتابته منذ خمسة عشر عاما ٠٠ وإذا كانت هلويز الجديدة هي حلم الفرد في الحب والسعادة فإن العقد الاجتماعي كان حلم المواطنين جميعا في العدالة والسعادة ٠٠ يقول فيه : « ان ثمة عقدا بين أعضاء المجتمع هو للعقد الاجتماعي ، وقد ولد الانسان حرا وهو مع ذلك يرسف في القيود في كل مكان ، فلا بد للشعوب من رفض الازلال ، فليس لرجل من سلطان على آخر بالقوة فالقوة ليست حقا، وإذا استغنى الانسان عن حريته فإنه بذلك يستغنى عن صفته كإنسان فيضيع حقوقه وواجباته ، والسلطة التي تنبعث عن حب الشعوب هي أعظم سلطة » .

ويعرج روسو على الدين فيقف في وجه النظريات المسيحية جمعاء يناصب الكنيسة العداة قائلا : ان الناس كانوا سعداء متساوين قبل حلول الاديان ٠٠ وأما الديانة الحقّة فهي التي بين الخالق والمخلوق وعنها يخدم الاخير الاخلاق ويخدم الوطن ٠٠

كان روسو جريئا ثوريا في كتابته وهو وان كان في ذهنه اذ ذاك أن يكتب من أجل جنيف وحكومة جنيف إلا أنها صادفت فترة في فرنسا طابعها الاستبداد والمظالم وكانت حرية الكتابة معدومة، لذلك اهتزت جنبات القرن الثامن عشر وارتعدت حين نهض ذلك الكاتب الجريء مطالبا بالحرية متعرضا للحكم وللكنيسة وكان ذلك الكتاب ضمن ما مهد لثورة فرنسا عام ١٧٨٩ من أمور ٠ قال فيه ميرابو (١) Mirabeau « لقد علم روسو المبادئ النظيفة في الحرية » .

أما كتاب « اهيل » Emile أو « أنجيل المعلمين » كما سماه الشاعر الالماني الكبير « جوته » Goethe فهو حلم الكاتب في تربية سليمة مثالية للطفولة ٠٠ ويعتبره بعض النقاد تكفيرا عن الجريمة التي ارتكبها روسو في حق أطفاله ٠٠ وسخر منه آخرون مستنكرين من روسو أن يعلم ويهذب ويكتب في التربية وهو الذي لم يحظ من كل ذلك بشيء وهو الذي أهمل أطفاله فأودعهم في قسوة « ملجأ اللقطاء » .

وأيا كان الجواب فإن الانسان كثيرا ما يستفيد من الاخطاء التي ارتكبها في حياته والا فما فائدة العقل والضمير اذن ؟ والكتاب في خمسة أجزاء يتتبع فيها الطفل من ساعة ولادته حتى زواجه ٠٠ ويعنى في شتى المراحل من حياته بوضع أسس طبيعية يهتدى بها المرءون ٠٠ ولعله بقوله

فى مستهل الكتاب الاول منه « ان كل شىء يخرج خيرا من يدى مبدع الاشياء ولكنه يفسر ويشوه بين يدى الانسان » لعله بقوله هذا يلخص طريقته تلك فى التربية.. تلك الطريقة التى تعتمد على العودة الى الطبيعة والبساطة والفضيلة ..

ولم يكن روسو اول من كتب فى التربية فقد سبقه من قبل مونتاني Montaigne وفنلون Fenelon الذى كتب فى تربية الفتيات ، ذلك فى القرن السابع عشر واما الجديد هنا فى كتاب روسو الامر الذى ألب عليه الحكام ورجال الدين وكان كما يقال « القشة التى قصمت ظهر البعير » فهو ما كتبه فيه عن الناحية الدينية فى تربية الطفل اذ الحق بالكتاب جزءا هو «اشهار عقيدة كاهن من سفوا» تناول فيه معجزات الرسل بأسلوب مشكك ، وكذلك « مسألة الاديان الثلاثة » ومسئولية البشر جميعا فى الأخذ بواحد منها دون الآخر ..

طبع الكتاب فى هولنده فى شهر يونيه ١٧٦٢ وظن الكاتب بذلك أنه بلغ هدفه .. ولكن نائبا بالبرلمان صرح بأن الكتاب خطر وأنه لا فائدة من احراق الكتب وانما يجب أن يحرق مؤلفوها .. فلم يكتثر روسوفى مبدأ الامراذ ظن أنه فى حماية الدوق دو لو كسمبرج Duc De Luxembourg ولكن صديقا معجبا هو البرنس دو كونتى P rince de Conti حذره بعد ذلك بأن من الجائز اصدار قرار بالقبض عليه ومحاكمته .

وفعلا أوقظ من نومه فى ليلة ٩ من يونيو ليتمكن من الهرب اذ كان القرار قد صدر فى اليوم نفسه وأصدرت حكومة جنيف أمرا مماثلا فى ١٨ من يونيو ١٧٦٢ وصادرت السربون La Sorbonne الكتاب وطعن فيه رئيس كهنة باريس وطعنه قرار من البابا وقضى عليه بأمر صادر من حكومة هولنده .. كل ذلك بحجة « نشر آراء تخالف العقيدة المحترمة فى المملكة » وساعد عليه وضع اسمه على الكتاب الذى نشر تلك الافكار فيه ولو أنه لم يضع اسمه عليه لما مسه أحد بسوء ولا تعرض له القانون .

هربه :

ركب روسو حتى الحدود وتغافل عنه الجنود الذين بعث بهم للقبض عليه ومر بباريس ونزل من عربته بعد أن عبر الحدود ثم قبل تربة بلاده سويسرة بعد غيبة عشرين عاما فى فرنسا دخلها شريدا يسعى وراء العيش وخرج منها طريدا بعد أن بلغ قمة الشهرة وأجيز عليها .. وحسب أنه عاد الى وطن الحرية ولكن وطن الحرية نبذه بل وأصدد أمره بحرق

« اميل » لانه ضد الدين وكذلك اتلاف « العقد الاجتماعي » لانه ضد الحكم
 .. فلم يكن الوطن أبر به من فرنسا .. وطلب اليه الرحيل عن البلاد
 فسافر الى جبال انجورا Jura وكتب يناقش الكتلثة وينقد البروتستانتية
 ومن بين كتبه ما سماه « رسائل من الجبل » Lettres de la Montagne كان
 ذلك في موتيه ترافير Motiers-Travers بعد طلب الحماية من فردريك
 الثانى Frédéric II وكان الفضل فى ذلك يرجع الى صديق لروسو
 يعرف باسم ميلور مارشال Milord Maréchal وكان من أشد المعجبين
 بروسو وأكثرهم تقانيا فى عونه .. وافق فردريك الثانى على ايواء روسو
 كلاجيء اضطرهته حكومة لويس الخامس عشر Louis XV ولو أنه لم يكن
 يتفق معه فى أفكاره بل على العكس كان الملك من المعجبين بفولتير Voltaire
 تقيض روسو فى كل شىء .. وأراد ملك بروسيا أن يتعهد روسو بعدم
 العودة الى الكتابة .. لكن هذا أبى فى أنفة وعزة نفس ، إنما وعد فقط
 باحترام « القوانين والملك والنبلاء وكل ما تمليه عليه واجبات الضيافة »
 ولكن قدر روسو كان له بالمرصاد فعلى أثر مشادة له مع الراهب
 مونولين Montmolin هجم الفلاحون المتعصبون على بيته فرجموه بالحجارة
 فهرب الى جزيرة « سان بيير Saint-Pierre » فى قلب البحيرة من أراضي
 سويسرة وذلك سنة ١٧٦٥ .. وكان المقام فى هذه الجزيرة ملهما للجولة
 الخامسة من « أحلام يقظة جوان منغرن » فقد قال فى مستهلها : « لم تكن
 هناك من بين الديار التى أقمت فيها - وكانت لى من بينها ديار بديعة -
 واحدة أسعدتني حقا وخلفت فى نفسى تلك الحسرات المرهفة سوى جزيرة
 سان بيير « Saint-Pierre » انه لم يسمح لى قط بأن ألقى سوى شهرين
 فى تلك الجزيرة وكنت أستطيع أن ألقى بها عامين بل قرنين بل والى
 الأبد دون أن ينال منى السأم لحظة واحدة .. »

حقا فان روسو المسكين الذى كتب عليه التشرذ والملاحقة وعدم
 الاستقرار ، صدر ضده من مجلس شيوخ جمهورية برن Berne
 مرسوم طرده من تلك الجزيرة الساحرة التى ود لو ترك فيها بقية العمر
 .. كان ذلك فى شهر أكتوبر عام ١٧٦٥ .. ولم يقدر له أن يرى ثانية
 وطنه الجاحد منذ ذلك التاريخ ..

توجه روسو بعد ذلك الى ستراسبورج Strassbourg ووصل باريس
 فى ١٦ من ديسمبر من العام نفسه ليملك فيها أياما قليلة ضاق فيها
 بفضول الباريسيين الذين كانوا يحضرون ليشاهدوا الطريد المشهور
 فغادرها فى أوائل يناير عام ١٧٦٦ الى انجلترا حيث استضافه الفيلسوف
 الانجليزى دافيد هيوم David Hume ولحقت به تريز وكتبه .. أعجبه

المقام فى بادئ الامر فليث فيه ثلاثة عشر شهرا يستعشب وينسخ الموسيقى ٠٠ ويكتب ذكرياته ٠٠ وهى سجل حياته « الاعترافات »
Les Confession يصور فيها مآسى حياته الكثيرة وأفراحها القليلة
ويكشف عن نفسه لا يتخفى عيبا ولا ضعفا بل يسردها جميعا فى جراءة
وشجاعة مذهلتين ٠

ولكن روسو ما لبث - بما جبلت عليه طبيعته من عدم استتقرار
- أن مل طبيعة انجلترا ٠٠ تدفع بالكآبة الى نفسه بسماؤها يحجبها
الضباب ٠٠ وبردها وأشجارها العارية ٠٠ اللهم الا بعض زهور البنفسج
٠٠ كما ذكر ذلك لصديق له فى شهر مايو ٠٠

كما أنه ما لبث أن اختصم مع هيوم Hume صديقه ومضيفه
ولا عجب ، فقد ظل دائما فى خصام مع الفلاسفة ، ثم غادر انجلترا عائدا
الى فرنسا وانتحل اسما مستعارا ، وظل شريدا مدى ثلاث سنوات تارة
ضييفا على أصدقائه وتارة فى عزلة ٠٠ وعقد فى تلك الأثناء على تيريز أمام
شاهدين مصححا علاقته بها ٠٠ فكافأ تلك التى تشردت بتشرده ٠٠
وناسمته الحياة والمصير مريرا قاسيا ٠٠ ويعسد ذلك الزواج أول زواج
مدنى فى فرنسا ، وكان ذلك بعد خمسة وعشرين عاما من تعرفه بها ٠٠

العودة الى باريس :

وبعد أن هذه الترحال ٠٠ عاد الى باريس عام ١٧٧٠ ليقطن فى
شارع بلاتريير Platrière الذى حمل اسمه منذ ذلك الحين ٠٠

بلغ روسو ذروة التعاسة ٠٠ ولا عجب فقد توالى الضربات على أم
رأسه بلا هوادة ولا رحمة ٠٠ فغدا يظن العالم غاصا بأعدائه ، يحكيون له
المؤامرات ويدبرون الخطط للقضاء عليه ٠٠ وأحس بالظلم الفادح عليه
وبرغبته فى الدفاع عن نفسه فما أن انتهى من كتابه « الاعترافات » حتى
أخذ ينتقل من بيت الى بيت ومن صالون الى صالون ٠٠ يقرأها على مجموعات
قليلة من الناس لعله يكذب ما يشاع عنه وليستدر عطف من يستمعون
ليه ٠٠ ولكنه لم يلق آذانا صاغية بل حرمت عليه القراءة فقد كان صريحا
جريا فى « اعترافاته » فذكر ضمن ما ذكر أسماء الناس وبخاصة السيدات
اللواتى كانت له معهن حادثات ٠٠ فخاب أمله وزاد عذابه ٠٠ واعتزل
الناس فى يأس ٠٠ ينسخ الموسيقى ٠٠ ويهتم بالنبات ٠

ولكنه مع ذلك لم يكف عن التفكير فى الحال التى انتهى إليها ٠٠

وفى الناس وكيف ان « الاعترافات » التى قال فى أولها « ٠٠ لقد صورت
نفسى على حقيقتها : فى ضعفتها وزرايتها ٠٠ وفى صلاحها وحصانة عقلها
وسموها ٠٠ تبعا للحال التى كنت فيها ، لقد كشفت عن أعماق أغوار نفسى
كما كنت أنت تراها أيها الخالد السرمدى ٠٠ فاجمع حولي الحشد الذى
لا خسر له من أبناء جنسى ودعهم يصغون الى اعترافى فيرثون لخستى
ويخجلون لمثالى ٠ ثم ادع كلا منهم الى أن يكشف بدوره - وبعين الصراحة
- أسرار فؤاده عند قوائم عرشك وليقل ان جرؤ « لقد كنت خيرا من ذلك
الرجل » كيف أن هذه الاعترافات لم تكف لاقناع الناس بصلاحه وبأنه
المظلوم المفترى عليه ٠٠ لذلك فكر فى طريقة أخرى ٠٠ عليها تكون أصوب
وأنجع . . فأنشبت حوارا Les Dialogues أو « روسو يحاكم
جان جاك » Rousseau Juge de Jean-Jacques وهو حوار وهمى يجرى بين
رجلين هما جان جاك وفرنسى هو عدو لجان جاك دون أن يقابله مرة واحدة
أو يقرأ سطرًا واحدا مما كتب ٠٠ أما روسو نفسه فيجهد فى أن يتبين
الحقيقة وألا يكون متحيزا ٠٠ وإنما كان جل همه - كما أسلفنا - أن يبرر
مسلكه وأن يقدو انسانا خيرا صالحا فى أعين معاصريه .

كان يعتر بهذه المحاورات وكان كذلك لا يثق بأصدقائه ويتشكك
فيهم حتى بأقربهم اليه فكتب منها نسخا عديدة من المخطوط ثم عن له أن
يودعه مذبج كنيسة النوتردام Notre Dame فى ٢٤ من فبراير ١٧٧٦ . .
ليرفعه الى العناية الالهية ويؤكد أنه ظلم فى كل شيء قال فيه « يا حامى
المظلومين يا اله العدالة والحق تقبل هذه الوديعه التى يضعها على مذبحك
غريب تعس، وحيد من غير سند ولا نصير على الارض، معذب مضطهد . . »
وما أن تقدم ليضع المخطوط حتى ارتد على أعقابيه وقد انتابته لؤثة هى
أقرب ما تكون الى الجنون ٠٠ اذ اصطدم بالحاجز وقد أوصد ٠ فظن أن
ذلك من عمل الله ٠٠ غير راض عن فعلته ٠٠ فخرج هائما على وجهه فى
الطرق طيلة النهار يقسم أن لن يطأ الكنيسة ثانية ما عاش ٠٠

ثم كتب مقالة يوزعها على من يصادفهم فى طريقه بعنوان « الى كل
فرنسى لا يزال يحب العدالة والحق » A tout Français aimant encore la
justice et la vérité. ولكن أضحكه أن المارة رفضوها بحجة أنها موجهة الى
سواهم .

وهنا تحدث المعجزة ٠٠ فيشاء الله لهذه النفس المعذبة أن تهدأ بعد
فورة وأن تدعن لشمسيتها بعد ثورة هى الى الجنون أقرب ٠٠ وروسو عتدئذ
كالجندي ألتقى السلاح بعد أن أبلى وناضل ومل الكفاح ٠٠ ومن قمة الفزع

والهذيان الى سكينه مطلقة ساقته اليها فكرة طرأت له وهي أن الله
جلت قدرته انما أراد بعدم ايداع روسو ومخطوطه في النوتردام Notre Dame
أن ينقذه من أيدي أعدائه المتربصين .

كتابة أحلام اليقظة :

وحينئذ وفي استسلام تشوبه مع ذلك المرارة أخذ روسو يسجل
« أحلام يقظة جوال منعزل » وفيها يجتر الذكرى اجترارا ويعيش فيها وبها
ويسلم أمره للقوى المنتقم الجبار .

تلك الخطرات هي آخر ما كتب اذ أنه بعد أن ترك مسكنه بشارع
بلاثريير Plâtrière لعدم ملاءمته لصحته عام ١٧٧٧ استضافه مسيو
دو جيراردين M. De Girardin في ارمنيفيل Ermenonville في منزل بديع له
بالريف يحيط به الماء والخضرة . . الطبيعة التي أحبها روسو وعاش لها
. . ولكنه لم يستمتع بمقامه هذا طويلا اذ ما لبث أن قضى في الثاني من
يوليه عام ١٧٧٨ غريبا فقيرا . . مريضا ، ودفن بـارمنفيل في جزيرة الحور
L'île des Peupliers وهي جزيرة ساكنة يلفها الهدوء الذي كان يجبه
في حياته . . حيث زار قبره الزائرون ومن بينهم الملوك والعظماء والادباء
ورجال الدين .

نقل رفاته :

حتى كان يوم ١١ من أكتوبر سنة ١٧٩٤ فنقلت رفاته الى البانثيون
Panthéon في احتفال كبير - فدفن أخيرا في مدافن العظماء ليحج اليه
الناس من أقاصى المعمورة فيحيون ذكرى ذلك الكاتب العظيم . . رسول
الانسانية والداعي الى حريتها وخيرها . . مما أحله مقاما عاليا بين من
أسدوا الخير للبشرية .

هل الاحلام تنمى لـ « الاعترافات » و « الحوار » ؟

كانت قراءات روسو للروايات من كل نوع ولبلوتارك Plutarque
بخاصة في طفولته أثرها في حذق ذلك العالم المثالي الذي عاش فيه روسو
طيلة حياته فجعله عاجزا عن تقبل الواقع يرنو دائما نحو آفاق عالية
تتجاوزه . ولقد سجل روسو على أول البطاقات (١) التي كان يدون عليها

Henri Doddier : Les Rêveries du Promeneur Solitaire, P. XXI (١)

خواطره « لم تكن حياتي كلها سوى حلم يقظة طويل تقسمه الى فصول جولاتي اليومية » .

والواقع أن كتب روسو جميعا كانت أحلاما ٠٠٠ كان روسو حساسا والانسان الحساس لا تترجم انفعالاته الى أعمال ولكنها تولد عنده طائفة من الخواطر والتأملات والاحلام وهذه - على ضوء ما يقوله رينيه لوسن René Le Senne (١) تولد في الروح طموحا الى الرفعة واستنكارا للوضع مما يجعله دائم البحث عما يبرر شعوره ذلك . وفي الواقع أن روسو الذي وصفه « لوسن » بأنه حالم حساس استخدم طموحه في الدفاع عن هذا العالم الخيالي المثالي الذي كان يعيش فيه منذ طفولته محاولا اشراك معاصريه في هذا الحلم جاءت كتاباته كنتيجة لذلك تستهدف المثالية وتدعو اليها واذن فانه يمكن القول بأن أحلامه لا تنقسم الى فصول بل الى كتب كل منها ثمرة لسلسلة من الجولات والقراءات . واذا نحن أخذنا مثلا حديثه في « عدم المساواة بين الناس » أو حديثه عن « العلوم والفنون ودورها في تطهير أو افساد الأخلاق » أو «العقد الاجتماعي» Le Contrat Social أو «اميل» Emille نجد أن روسو فيها جميعا ينشد مثالية عالية فهو اذ يحلم بالقضاء على الظلم ويحلم بالعودة الى حالة الطبيعة الاولى التي تكفل وحدها اسعاد الانسان وتطهير روحه ويحلم بمجتمع سليم يقوم بناؤه على أسس صحيحة متينة من الاخاء والمساواة والمحبة ويخلو من تفاوت الطبقات ثم يحلم أخيرا في « اميل » بتربية مثالية للطفولة تلك التربية التي حرم منها وحرم اولاده منها فكفر عنها بهذا الحلم الطويل لاسعاد الاطفال جميعا .

وأما في « هلويز الجديدة » La Nouvelle Heloise فهو يحلم أيضا ، يحلم بالحب العنيف الصادق الذي لم يكن له منه في واقع الحياة نصيب ، فان روسو لم تكن له مع النساء جولات حقة لان طبيعته غير المستقرة وعدم قدرته على تنفيذ ما يصبو اليه في حياته بعد أن يكون قريبا منه جعله دائما عاجزا عن تحقيق ذلك الحب الذي صورته في « هلويز الجديدة » والذي يعتبر حلما من أحلامه الرائعة ٠٠ . والانسان الخيالي الحالم يتحمس دائما لكل شيء جديد ولعل ذلك كان دافعه الى تحويل تعليم الموسيقى باستعمال طريقة رقمية .

الاحلام تمة للاعترافات والحوار :

كانت الظروف جميعا مهيأة لاسعاد روسو الا ظرفا واحدا ٠٠ فقد كان يظن أنه محاط بأعدائه يتابعون في عناد مؤامرتهم ضده ٠٠ ولهذا كتب

Traité de caractérologie : Presses universitaires de France, 1945, (١)
pp. 269 - 76 et 779 - 88.

« الاعترافات » و « الحوار » و « الاحلام » ليتخلص من تلك الفكرة التي استبدت به ، ذلك لان هجمات أعدائه -بالإضافة الى هجمات بعض أصدقائه القدامى - ولدت الشك في نفسه ولو انه كان يحس في قرارة نفسه بالرغبة في التأكد من ذلك الشك فكان يقول « اننى أخشى أن أكون مذنباً في قرارة نفسى » فى خطاب له الى « دافيد هيوم » Hume سنة ١٧٦٦ .

هذا ولم تجعله كتابة « الاعترافات » يعيش طفولته وشبابه فحسب بل أنها أعطته شيئاً من الثقة بنفسه وبمستقبله انك يصيح فى مستهلها قائلاً « فليكشف كل بدوره عن قلبه عند قوائم عرشك وبنفس الصراحة أسرار فؤاده وليقل ان جرؤ لقد كنت خيراً من هذا الرجل » ولقد كان مقتنعاً اذ ذاك بأن هذا الكتاب سوف يقشع الغيوم التي جمعها أعداؤه من حوله وبلغ اعتقاده حدا جعله يفكر فى شيء واحد هو العودة الى باريس تحت رعاية البرنس دوكونتى Prince De Conti آملاً أن يدافع عن نفسه عن طريق اعترافاته . . ولما كان قد تعب من حياة كلها عدم استقرار منذ عودته من انجلترا فقد فكر أن يعيش فى بلد بعيد ولكن رأيه استقر أخيراً على الإقامة فى باريس اذ كان يأمل أن ينتصر على أعدائه فيستعيد هدوء نفسه . وفى ربيع ١٧٧٠ عاد الى باريس لينتصر على المؤامرة التي كان يعتبر نفسه ضحية لها . . فقام بقراءات خاصة لـ « الاعترافات » وكانت الستة الاولى منها لا تحوى تعريضاً بأحد فمرت بسلام أما الكتب الستة الاخيرة فقد تناولت بعض ذوى المكانة من أمثال مدام ديناى بالتعريض وسعت هذه لدى السلطات المختصة لايقاف تلك القراءات وكان لهذا المنع عواقبه الوخيمة على نفسية روسو فأسلمته الى أزمة طويلة . . كتب خلالها الحوار . . بعد أن فقد الأمل فى تعريف الناس بالاعترافات فى حياته . . وهكذا نراه يلجأ الى طريقة أخرى يظهر بها انه ضحية ظلم صارخ . . فتخيل ذلك الازدواج الذى كان يبرز جانباً من شخصيته فى « الحوار » . . . وهذا العمل الادبى الطويل ليس - كالاعترافات - سرداً متصللاً لتاريخ حياته بل هو يعرض ثلاث محاورات من جان جاك بين رجل فرنسى وروسو تشير الى أن هذا الفرنسى برغم أنه لم ير الكاتب فى حياته ولم يقرأ له فانه يكرمه لا لسبب الا لانه يثق ثقة تامة فى الفلاسفة وافتراءاتهم اما الآخر ولو ان اسمه روسو فانه ليس روسو تماماً بل هو عقل مستقل ميزن لايعرف عن روسو سوى كتبه ويريد مع ذلك أن يدرس روسو نفسه . . وخلاصة الأمر أن روسو يحلل نفسه وأن روسو يحاكم جان جاك ويستمر الحوار حتى يبدو جان جاك نقى الصفحة طاهراً فى نهاية الامر . . وفى هذا شفاء لقليله عن تلك الصورة المشوهة التي صوره بها أعداؤه . .

ويتضح من ذلك أن كلا من « الاعترافات Les Confessions ومن الحوارات Les Dialogues كانتا تستهدفان تبرير تصرفاته وتوضيح موقفه وكذلك كانت « الاحلام » ومن ثم فإن « أحلام اليقظة Les Rêveries تعتبر بحق متابعة لهما وتتمه . . انها تبدأ حيث انتهتا . . وهو يشير أكثر من مرة في « الاحلام » الى ذلك كما يشير الى صدق « الاعترافات » أو يحاول تصحيح بعض وقائعها أو يعتذر عن بعض اخطاء جاءت بها معللا اياها بضعف ذاكرته . . لقد جهد روسو في أن يهرب من مخاوف الاضطهاد وقد نجح الى حد كبير فقدت له بعد ذلك سداجة الاطفال وبراءة مباحثهم . . . كان ميالا بفطرته الى العزلة فطغى هذا الميل على نفسه حتى غدا غير صالح للحياة في المجتمع . . بل ان مخالطة الناس أضحت بالنسبة اليه شيئا كريها يحزمه أحلى المتع وهي التأمل في الطبيعة والانفراد بنفسه .

تقديم للجولات

« أحلام اليقظة » Les Réveries هي آخر أعمال روسو الأدبية اذ كان لا يزال يكتب مستهل الجولة العاشرة في الثاني عشر من ابريل عام ١٧٧٨ قبل مغادرته باريس للمرة الاخيرة بزمن قليل . ويرى بعض النقاد أن الفكرة الاولى في تسجيل « أحلام اليقظة » ترجع الى خريف عام ١٧٧٦ بعد مضي بضعة شهور على الحالة الصحية والنفسية التي استبدت به وغسدا فريسة لها حين حاول أن يودع مخطوط الحوار Les Dialogues في كنيسة نوتردام Notre Dame ولكنه لم يفلح اذ حالت الجواجز دون ذلك . . .

وكان يعلم ان أحلامه في سبيل الافول اذ كان يحس .
« بالبرودة تسرى فيها » وأنه كان يقترب من النهاية . . .

وقد كتب السبعة الاولى منها في خط صغير وان كان مقروءا . . . وشاء كرم صديقه المركيز دو جيراردين De Girardin الذي استضافه في آخر حياته بارمونيفيل Ermenonville حيث مات - أن يجمع في حرص وعناية كافة الأوراق التي خلفها روسو وسهل للناشرين بعد وفاة الكاتب الكبير نشر ثلاث جولات أخرى استخلصها من مسودات مجموعة في كراسة تشبه الاولى تماما . . هذا بالإضافة الى سبع وعشرين ورقة من أوراق اللعب مودعة في مكتبة نيوشاتل Neuchatel

بمسويسرا كان يسجل عليها روسو افكاره خلال جولاته وتعد مرجعا
للأحلام كذلك .

ولقد تدرج روسو خلال اعوام حياته في مختلف الحرف والاعمال . .
واحتفظ لهذه الاعوام الطويلة بذكريات مريرة قاسية . . ثم أنتج خيرة
ثماره العقلية . . وكانت له شهرة واسعة لها دوى .

كان ينسخ الموسيقى وكان يكتب وكان يربط الاوراق بشرائط
جميلة وكان يرتب النباتات بعناية كان يحيا بحواسه ولكنه الآن في
أخريات العمر أصبح يعيش على لون جديد من الحياة لم يمارسه في عمق
من قبل وان اعتاده . . بدأ يحس احساسا قويا بالاصوات الرائعة والسماء
الجميلة والريف البديع والبحيرات الفاتنة والازهار والطور والعيون
الساحرة والنظرات الحلوة البريئة . . انه لا يزال يذكر زوايا مماثلة من
ماضيه البعيد . . تنتابه الحسرة أحيانا على فواتها ويشده الألم أحيانا
أخرى لانه لم ينهل منها بقدر ما يطيق أو لانه لم يدركها الا بعد فوات
الأوان . .

كانت الاستثارة الحسية تسلمه الى نشوة عاطفية . . وكانت الطبيعة
تبدو له وكأنها هي كائن حي يزخر بالجنان فيرتمي بين أحضانها ليجد
أجمل الغناء . . كان الخيال في صغره يلعب الدور الهام من حياته ، أما
بعد أن تقدمت به السن فلم يعد له سوى أن يستسلم للذكريات .

ولئن تخللت هذه الذكريات بعض مظاهر الشنوذ العقلي فانه كان
يستشعر فيها الهناء المطلق . . كان يحسه في هذه اللحظات القصار
التي يجمعها فيها كما كان يحسها في أعماق عقله الباطن تتصاعد فجأة
في لذة غامضة تستدعيها أمور عدة . .

ولئن قصر خياله أحيانا فانه أدرك كيف يحيى الذكريات أحيانا
أجرى . . ولئن ضاعت الاحداث في غمار النسيان بفعل الزمن فان تداعي
المعاني وبعض صفات معينة وبعض مظاهر الحرارة والضوء كانت كفيلا
بإعادتها الى ذهنه . . والواقع ان « أحلام يقظة جوال منعزل » هي في مجموعها
ذكريات .

أهي ذكريات شيخ لماض بعيد غير كثيرا من نواحي الصورة فيه حتى
لتتمزج الاسطورة والخيال بالحقيقة ؟

أم هي اعتذار عن بعض أخطائه ومحاولة لتبريرها أو الدفاع عنها ؟

أم هي تفسير لبعض ما مر به ؟ أم هي تسجيل لخواطر وخلجات هي ثمرة تجارب وتفكير رجل قدر له أن يفرض نفسه على الفكر الانساني ؟

لقد كان يلذ لروسو أن يستمد من آلامه متعة وكان يردد أنه يعيش حقا في « أيام الاضطراب والقلق » ان أشد الساعات ألما تحل في النفس . أعمق الآثار ومع الزمن تغدو ذكراها وهي تحمل فرحا لاذعا . . . وتعاسة مع ذلك » .

- ومن عجب أن ذاكرة روسو تتوقف كذلك طواعية عند أيامه السعيدة . وليس في شيخوخته سعادة أكثر من الشهرين اللذين قضاها في جزيرة سانت بيير Saint-Pierre وكذا في الشارميت Les Charmettes

لقد كف روسو بعد كتابة « الحوار » Les Dialogues عن الدفاع عن نفسه أمام مهاجميه وأعدائه فاستسلم لقدره . . . ثم مال . . . كعادته . . . الى العزلة . . . الى الهدوء والاعتكاف . . . كان يعلم أنه يقضي أيامه الاخيرة . . . مستشعرا دنو أجله . . . فظل ينتظر الموت في وقار ، يتجهز له ويعد ، للمرة الأخيرة حسابا يمثل به أمام الله ويستعيد ماضيه بما تخلله من لحظات سعيدة فيعيشها بذلك مرتين .

عاد اذن يمسك القلم ويعاود الكتابة دون أن يكثرث بالناس ودون أن يهتم بما يدبرون بعد أن اعتزلهم الى عالم هو عالمه وحده لانه من خلقه . . . فسطر بذلك صفحات رائعة في موضوع جديد يتفق أولا ومزاجه الطبيعي ويعد أخيرا خيرة انتاجه قاطبة .

بل ان عنوان هذه الصفحات التي أتناولها بالترجمة والتعليق تكشف عن روحه تماما . . . ان فيه لوما وعزاء . . . لوما يوجهه الى من أكرهوه على الانفراد والعزلة . . . وعزاء له في تلك الاحلام الحلوة يحلق فيها في حله وتجواله فتعوضه في سخاء عما حرمه منه معاصروه من هناء وراحة .

لقد ضاق المسكين بقسوة الناس فاعتزلهم وباعد ما بينه وبينهم وراح يضرب في الخلاء منفردا بنفسه ، مستمتعا بالطبيعة مدركا للخلق مستغرقا في أحلام طويلة يسترجع بها بعض أحداث ماضيه ، مناقشا اياها في ضوء الهدوء الذي بلغه والسكينة التي تحيط به . . . لقد أعادت هذه الذكريات الشيخ الى نفسه فكانت تعبيرا عن حقيقة حياته . . . وهي حياة حواسه وقلبه . . . أما الاحداث والعالم الخارجي فلم تعد بعد شيئا مذكورا بالنسبة له ، انها لم تعد سوى فرصة للاستمتاع ووسيلة للتفكير . . . وهكذا

تحققت له أخيرا الحياة المثالية التي طالما تاق لتحقيقها وهي العالم الذي صاغه لنفسه .. خياله ..

فالأحلام على هذه الصورة ليست موضوعا واحدا بل هي مجموعة من الخواطر والخلجات ترابطت أحيانا وتباعدت أحيانا أخرى شأنها في ذلك شأن الخواطر دائما حين تقوم على نبش بعض أحداث الماضي البعيد .

وهاك الجولات مرتبة كما جاءت في مختلف المراجع أقدمها معلقة على فحواها :

الجمولة الأولى

تعد هذه الجمولة مقدمة للكتاب كله . . فيها يبدو روسو راضخا لحكم الأقدار وقد عادت اليه السكينة والهدوء - وهما نسيبان اذا ما قورنا بما كان عليه من اضطراب ويأس . . . سيدافع مرة أخيرة عن نفسه ويبررها أمام مضطهديه ويدرس نفسه . وهو يسجل أحلام يقظته التي تعرض له أثناء جولاته المنفردة . ولكنسه يقرر هنا أنه انما يكتب رغبة في الكتابة ورغبة في قراءة ما يكتب فيما بعد فيجد متعة في ذلك ويحيي بذلك مرتين . . لا من أجل أجيال قادمة وفي ذلك تختلف في اعتباره عن الاعترافات Les Confessions وعن الحوار Les Dialogues ولو أن الاحلام Les Rêveries تعتبر ملحقا للأولى . .

« هانذا وحيد في هذه الدنيا لم يعد لي أخ أو قريب أو صديق أو صحبة سوى ذاتي » : بهذه الكلمات التي تفيض حيرة والمأ بدا روسو بناء مؤلفه وهي تكاد تكون عتابا يوجهه إلى الإنسانية التي ألجته إلى الانفراد والعزلة . . انها صرخة نفس معذبة جريحة يتنازعها الألم والكبرياء . . ولكنها الآن

في سكينه لم تخل تماما من آثار العاصفة ، فان تلك السكينه لم تمنعه من أن يتحسر على مصيره ومن أن يتذكر المحن التي قاستها نفسه المرهقة . . .
أما وقد انفصل عن الناس رغما عنه فهو يسائل نفسه « من أكون أنا نفسي ؟ » أي أنه عن طريق أعدائه يود التوصل الى معرفة ذاته . .

ماذا كان ينشد لدى الناس ؟ لقد كان ينشد في كل منهم آخا واذا لم يوجد هذا الأخ فقريب والا فصديق او على أقل تقدير صاحب . . وهو اذا فقد كل أمل في الصلح مع الناس يذعن ويرضخ للأقدار ولكن تتخلل هذا الاذعان ذكريات أليمة تعود به خمسة عشر عاما الى الوراء ، ولما كان روسو يكتب هذه الجولات عام ١٧٧٧ فهو اذن يشير الى عام ١٧٦٢ أي الوقت الذي أحرق فيه كتابه اميل Emile وحكم بالقبض عليه والى ماكان من رجم بيته وهربه بعد ذلك وعدم استقراره . . وهي مرحلة كلها خوف وقلق وآلام واذلال لا يستطيع أن ينساها هنا . . هو الذي يزيد أن ينسى الناس وشورورهم . . لقد جعلوا منه سفاكا وقائلا وأهالوا عليه كافة ألوان المهانات والاذلال . . هو من خلق أشد الناس حبا للناس . . ولكنهم بذلك استنفدوا كل حيلهم دفعة واحدة ولم يعد لديهم من مزيد . . لذلك هو عظمئ ما داموا « قد فعلوا كل شيء » بل انه سيهزأ بهم ومن بغضائهم . . فلا سلطان لهم عليه بعد . . ولكن من هم مضطهدوه ؟ أولئك الذين جعلوا الحياة في عينيه سوداء قاتمة . . وهل كان هناك حقا اضطهاد قبل روسو ؟ في الواقع انه اذا ما كان للخيال نصيب في هذا الاعتقاد فان نصيب الحقيقة فيه كبير فلا يجب أن ننسى ديدرو Diderot وتدابيراته ، وجريم Grimm ومدام دابنساى Mme d'Épinay التي انساقت له والتي رمت روسو بالجحود والانانية ، وفولتير Voltaire الذي كان ينتهز المناسبات لغمزه والتندر بأرائه والتشهير به . . والكنيسة في جنيف Genève ومجلس شيوخ برن Berne والأطباء الذين عرض بهم في كتاب اميل Emile والسلطات التي حرمت الاستمرار في قراءة الاعترافات . . كل ذلك بذر الشك في نفسه من ناحية كل من يحيطون به حتى أصدقائه . . وجعله يرى من حوله مؤامرة عريفة محبوكة الاطراف لهدمه والقضاء عليه . .

وهو يشير في هذه الجولة الى أنه - فيما مضى - كان يأمل في الناس ولكن قضى على هذا الأمل منذ شهرين حادث مؤسف غير متوقع . . مشيرا الى محاولة ايداعه مخطوط الحواوي في الكنيسة . . وفشله في ذلك مما

أسلمه للهياج والاضطراب. ثم أخيرا ، وبما يشبه المعجزة ، الى الهدوء
والسلام بعد أن أقنع نفسه أن الله تدخل لمنع وقوع مخطوطه فى أيدى
أعدائه المتربصين به . . .

ولكنه يمضى فى انفصاله عن الناس فيقول : « لم يعد هناك ما آمله
أو أخشاه فى هذه الحياة ، كائنا مسكينا تعسا لكن صامدا كالاله نفسه »
أى انه فى غروره يشبه نفسه بالله تعالى . وهو بعدئذ يشير الى الهدف
من كتابته . . . السجل الذى يتقدم به يوم الحساب الى الله . . . وهو فى
ذلك يختلف عن الفلاسفة الملحدون . . . انه يؤمن بالله وباليوم الآخر وهو
« يكتب لنفسه ليعيش مرتين » ولكن أصحح ما زعم ؟ اننا اذا سلمنا أن
أحلام اليقظة Les Réveries هي المتعة الحققة لروسو وأن التخيل سلوته
الوحيدة لكان من الممكن أن نرى روسو يكتب يوميا . . . كتابة ينقصها
هذا التكامل والجمال والموسيقية التى امتازت بها الأحلام . . . ولما كان
هناك الحذف والكشط والتصحيح ووضع كلمات مكان أخرى كما وجد
المخطوط الأصيل للأحلام بينوشاتل بسويسرا ، ولكنها الرغبة المستترة
التي دفعته الى الدفاع عن نفسه وتبرير مواقفه هي التي وجهته الى هذه
الناحية . . . انها تكلمة للاعترافات ولكنه لن يستطيع أن يعطيها العنوان
نفسه لانه لم يعد لديه ما يعترف به ومن يعترف اليه . . . وقد انقطعت
صلاته بالناس جميعا . . . لا . . . بل انه سيجرى التجارب على نفسه ويسبر
أغوارها بعناية ويدرسها ويعمل مثل مونتاني Montaigne ولكن «مونتاني» كان
يكتب للآخرين أما هو فلنفسه . . . وهو أخيرا لن يهتم بمصير هذا المخطوط .
الأحلام . . . كما اهتم بمصير الاعترافات Les Confession. والحوار
Les Dialogues حينما اراد أن يخفيهما عن أعدائه ومضطهديه .

وهكذا نجد فكرة الاضطهاد ترد على لسان روسو مرات كثيرة فى
هذه الجولة . ان فيها من الحوار Les Dialogues الكثير ، تتردد فيها نفس
المعاني والافكار . . . تلك حالة روسو النفسية فى هذه الجولة : أن الكاتب
الذى اعتزم أن يقضى بقية أيامه فى عزلة ووحدة والذى يؤكد أنه يكتب
هذه المرة لنفسه لا يستطيع أن يمتنع عن أن يبحث عن أسباب وأسباب
تبرر هدفه . . . وهو الذى بالرغم من جهوده فى مخالجة نفسه وعزمه . . .
لاتفتأ ذكرى الناس وضور حقدهم تعاوده وتشقيه .

ومما يجعل للأحلام وبخاصة فى هذه الجولة هذه اللهجة المؤثرة هو
امتزاج الدفاع فيها بالتحليل النفساني وبالذكريات .

الجولة الثانية

وأهمية هذه الجولة كبيرة لامن ناحية قصة حادثة منيلمنتان - وهو محورها - فحسب بل من ناحية الحالة النفسية لروسو على أثر الحادث .

أثناء عودة روسو من إحدى جولات الاستعشاب اصطدم به كلب ديمركي كبير بجميع جسمه وهو يجرى في سرعة فائقة فوقع روسو على الأرض وأصيب أصابات جسيمة في وجهه ويديه .

كان ذلك الحادث في ٢٤ من أكتوبر سنة ١٧٧٦ في ضاحية منيلمنتان Menilmontant من ضواحي باريس . أما هذه الجولة فقد كتبها في ديسمبر أو يناير ذلك لان زوسنو ينوه بما كتب عنه في كورييه دافنيون Courier d'Avignon في يومي ٣ و ٢٠ من ديسمبر أي بعد الحادث ، بعد فترة نقاهة وبعد أن انقضت أسابيع طويلة لكنها مع ذلك ليست بعيدة جداً عن الحادث فهو يستطيع أن ينقل إلينا الحوادث بدقة

كما أنها بعيدة عن الصدمة نفسها بما يكفي لان يحلل روسو الانطباعات التي خلفتها وترتيبها وتنظيم كتابتها في هدوء .

بدأها من حيث تنتهي الأولى . . بمقدمة طويلة يصف لنا مدى استعداد نفسه للمشروع الذي عرضه في الجولة الاولى وهو ملاحظة نفسه « علميا » اذ يثبت « البارومتر » على أعماقها ولكنه يأسف اذ لم يفتن الى عميل ذلك من قبل ، قبل أن تختفى ملكته الخالقة وبعد أن بات يحس « بروح الحياة تزدى فيه تدريجيا » فهو يدرك أنه شارف تلك السن التي يضعف فيها التخيل لتقوى الذاكرة فالإنسان يعيش اذن على برصيده من الماضي لعجزه عن أن يتجدد وأن يخلق . . وهو يتحدى أعداءه ومضطهديه بل يمضى في سخريته بهم فيقول : انه لولاهم لما استمتع بتلك اللحظات من السعادة ومنتعة التأمل وبالتالى لما نسي تعاسته وشقوته وهو يبدو هنا وكأنها يقول لهم « موتوا بغيظكم لن تنالوا منى بعد ولن آبه بكم » . .

ولكن لئن ترتب على ذلك الابتعاد عن الناس والاحساس بالهدوء بعيدا عنهم شيء من السكينة وشعور بالانتصار فان فرحته بهما تمنعه من أن يلاحظ حالته النفسية كما أراد وعجزه عن الخلق والتجديد يجعله عاجزا أيضا عن أن يحلل نفسه . وهو يصف لنا تلك الحالة بدقة في جملة واحدة فيقول : « واني اذ أريد أن أسترجع أحلاما حلوة أراني أستسلم لها مرة أخرى بدلا من أن أضفها » وهو في ذلك يشبه رجلا يريد أن يسجل آثار الكحول عمليا مثلا فيشربه حتى لا يعود يتذكر شيئا بالمرّة .

ولكن الجديد هنا هو تحليله لآثار الحادث وإشارة الى بعض ما قيل عنه بغده وما انعكس من ذلك على حاله المعنوية . انه يذكر كل شيء فى كثير من الدقة ، يذكر بخطر سيره ويذكر التاريخ كما لاينسى أسبماء الزهور وفصائلها ولا الانطباعات المختلفة التى سبقت الحادث والتي أعقبته وفى كل ذلك شيء من التعارض مع ماقرره لتوه من عجزه عن الملاحظة الذى يشكو منه .

ان حادث اصطدام روسو بكلب كبير ، نتجت عنه بعض الاصابات ، حادث عادى فى ذاته لكنه ولا شك يحتل حيزا كبيرا هاما فى ذهن انسان كروسو يحس اضطهاد البشر له فيعذبه ويظلم حياته . . ولعل مالايس تلك الحادثة من قصص وأقوال وكثير منها ان دل على شيء فانما يدل على روح شامخة ساخرة مما يزيد الطين بلة اذ يبلغ تشكك روسو ذروته فلا يعود يثق بأحد حتى بأولئك الذين يودون أن يقدموا له الخدمات ، فقد

أشيع انه مات ، وقيل انه أحسن اذ فعل كما اختلف الآراء في تفاصيل الحادث نفسها ولعل بعض الشامتين الساخرين كانوا أولئك الذين ينتظرون في قلق بالغ ظهور مؤلفه « الاعترافات Les Confessions وفيها الكثير مما يكشف نواحي يحرصون على اخفائها .

نشرت جريدة الكورييه دافنيون Douvier d'Avignon في ٣ ديسمبر عام ١٧٧٦ خبر الحادث فقالت « لقد أوقع كلب دانمركي روسو منذ بضعة أيام وهو مريض جدا نتيجة لسقطته » وفي العدد التالي كانت تكتب عن موته قائلة « لقد عاش فقيرا ومات حقيرا » ثم تصفه ككاتب فصيح لا يجب أن يتكلم الانسان عن مواهبه لانه « أساء استعمال تلك المواهب » .

قد تثير هذه الكلمات أكثر الناس هدوءا فما بالناس بروسو وقد زادت صدماته واحدة بفضل كلب يملكه أحد الاغنياء .

أرسل له من يدعى مسيو لنوار M. Lenior يعرض عليه خدماته عن طريق سكرتير له ومعجبة هي مدام دورمو Mme D'Ormooy بعثت اليه كتابا يتضمن مديحا لشخصه فرفض عروض الاول وكانت القطيعة بينه وبين الثانية .

وقد كان من الجائز أن تتغير نظرتي للناس ولو قليلا لو انهم أبدوا نحوه في تلك المناسبة شيئا من الود والعطف والرعاية فهو انسان حساس طيب القلب ، ولكنهم لم يشاءوا الا أن ينفروه بقسوتهم عليه . انه يتألم ولكنه يتقبل الألم . تقبل المؤمن بالله فيقول « ان الله عاذل ولكنه يريد أن أتألم وهو يعلم أنني بريء » .

ومع ذلك فقد كتب روسو لنا تلك الجولة المرتبة في أفكارها الصادقة في تحليلاتها اذ تعد نموذجا للانشاء القوى البديع المنظم

الجولة الثالثة

كما أن هناك فكرة تصل الجولة الأولى بالثانية ، هناك واحدة تصل هذه بالثالثة مما يجعل من هذه الجولات الثلاث موضوعا يكاد يكون مترابطا تماما . . وعنوان هذه الجولة «انى أشيخ ولا أزال أتعلم» يشير بذلك الى بعض ماجاء بها .

ونحن اذ نجد فى نهاية الثانية هدوءا لم يصل اليه روسو من قبل ولكنه انتهى اليه فى احساساته وذهنه واستمده من استسلامه لكل أنواع الاضطهاد ولشيئة الله نرى هنا الهدوء الفكرى والنفسى الذى استقر عليه نتيجة لاعتناقه بعض المبادئ الاخلاقية ولصلاحه لنفسه ووضع أسس لعقيدته وسلوكه . . ومن هنا كانت هذه الجولة على قدر غير يسير من الاهمية .

يستهلها بمقدمة هى تأمل فى الشيخوخة عموما وفى شيخوخته خاصة وفى نوع المغايم الفكرية أو المعنوية التى تلائم تلك الشيخوخة ويشفعها بحقائق عادية لكنها تفتدو هامة اذ يطبقها روسو على نفسه فتتخذ بذلك طابعا شخصيا . .

منها أن الانسان يتعلم معرفة الناس متأخرا فهو لذلك لا يفيد من تلك المعرفة ، وانه يجدر به حتى يسعد في حياته ان يجهد ما قد يحزنه ، وان الوهم خير من حقيقة رهيبة ، وان علم الحياة تهيئة للموت . . وأخيرا أن الشيوخ يتعلقون بالحياة أكثر من تعلق الشباب بها .

تلك الوقائع وان كانت عادية كما قلنا الا أنها تلقي الضوء على فلسفة روسو في الحياة . . انه يرى أن الشيخوخة هي وقت تعلم أشياء مفيدة هادفة ، فلا يترجم بعضهم مثلا كتابا أو يقوم بأبحاث في الرياضة . انه هو ذاته حين يمارس جميع النباتات فلانه يطبق ذلك تطبيقا مفيدا وبترييض في الهواء الطلق في الوقت نفسه . وهو اذ يرى في سعادة الانسان جهله بما قد يحزنه يطبق ذلك على نفسه فيقول : «لقد كنت مغفلا وكنت ضحية لهم لكنني كنت أظنني محبوبا منهم وكنت أستمتع بتلك المحبة التي أوحوا بها الي» .

وإذا ما قال ان الوهم خير من حقيقة رهيبة نجس أنه لا بد وقد بذل جهدا كبيرا ليقول ذلك هو الذي يقرر أنه أشد الناس حبا ومراعاة للحقيقة مهما كانت. وندرك مع ذلك تأله البالغ لتلك الحقيقة وعمده الى الهروب منها . .

وأما الحقيقة الرابعة فهي تنطبق عليه الى حد كبير فانه برغم ايمانه العميق يلاحظ بنفسه أن فكرة موته لا تحتل الا حيزا صغيرا من تأملاته . والحقيقة الخامسة مصداق لما يفعله روسو نفسه في هذه « الجولات » انه يحاول العودة الى الماضي يستعيده «لنجيا بذلك مرتين» كما يقول .

ثم هو يتناول بعد ذلك ثلاث مراحل من حياته مرحلة قبل اصلاحه لامور نفسه وأخرى خلاله وثالثة حين تم ذلك الاصلاح .

فهو يتكلم عن نشأته بين أناس يدينون بالتقوى أي أسرته ومعلمه (مسيو لامبرسييه M. Lambercier) ثم مدام دوفواران Mme de Warens التي أنارت له طريق المعرفة وملأت قلبه بمشاعر الود والتقوى . والواقع أن تلك النشأة لم تكن دائما نبليمة لانتشوبها شائبة فنحن نعرف أباه وكيف أنه علمه كيف يقرأ القصص والروايات قبل الكتب الجادة وهو لما يزل طفلا صغيرا ثم لم يلبث أن هجره ، وأما القس لامبرسييه Lambercier علم يكن دائما فوق مستوى الشبهات ومع أنه علم الطفل تعاليم الدين

البروتستانتى الا أن هذا سرعان ماتحول الى الكاثوليكية فى يسر على يدي مدام دوفواراز Mme de Warens التى كان سحرها وعطفها أقوى لديه اذ ذاك من كل دين فنجده يقول فى «الاعترافات» Les Confessions «وقلت فى نفسى ان ديننا يدعو اليه مثل هؤلاء الرسل لابد مؤد الى الجنة ،

وهنا عبارة تستحق التفسير انه يقول : «لقد تحولت الى كاثوليكي ولكنى بقيت مسيحيًا ، لاريب أنه يعنى هنا بالمسيحية الايمان أى انه لايجد تفرقة بين الكاثوليكية والبروتستانتينية . وعلى ذلك يمكن القول ان ديانة روسو كانت فى قلبه فحسب وهى دين طبيعى لا يتقيد بمراسيم ومظاهر ولا يهم فيه أن يعتنق مذهباً بعينه .

يقول روسو أنه كان قد حدد سن الاربعين كمرحلة لاصلاح حال نفسه خارجياً وداخلياً ، ولما كانت تلك الفترة من حياته هى التى تلى حديثه عما «اذا كانت العلوم والفنون قد ساعدت على تطهير العادات» فقد أحس ضرورة تطبيق آرائه على نفسه أولاً ليكون متمشياً معها وحتى لا يبدو أمام الناس متناقضاً مع ما يكتب . فتخلى عن كل زينة «فلا ساعة ولا سيف ولا حلى ذهبية بل رداء سميكاً من الصوف» ولكن للأسف لم تزد تلك الخطوة الفلاسفة الا دهشة وتعجباً بل انهم اعتبروه مجنوناً وبخاصة ديدرو Diderot اذ يبدو على تلك الحال من التقشف وهو على أعتاب الشهرة .

وكان ذلك أحد أوجه الخلاف بينه وبين الفلاسفة الذين يسميهم بـ «السفسطائيين» والمعروف أن السفسطائيين Sophistes وهم قوم اشتغلوا بالفلسفة قديماً كانوا يفاخرون بتأييد القول الواحد ونقيضه على السواء وينادون بأنه يجب أن يتحرر الانسان من القانون الاخلاقى وأن يساير الطبيعة وهى عندهم الشهوة . ثم جاء من بعدهم سقراط Socrate وأفلاطون Platon وأرسطو Aristote الذين هاجموا تلك الطبقة من السفسطائيين . وكان الأخير - أى أرسطو - يعتبر الانسان عقلاً وحسباً ، وعلى العقل أن يسيطر على شهوات الحس والجسم وأن يضع القانون الخلقى الذى ينبغى أن يسير بمقتضاه سلوك الانسان ولعل روسو هنا وقف من فلاسفة عصره موقف أرسطو من السفسطائيين قديماً .

لقد أحس فى تلك الفترة بثقة فى نفسه جعلته يؤمن بمواهبه فى الكتابة وكانت العزلة بعيداً عن صحب المجتمع ضرورية لتنمية تلك المواهب ومساعدته على التفكير فى هدوء وتأمل فابتعد عن الناس واعتكف . ولكن انار ذلك فضولهم لمعرفة سر اختفائه . ولقد بين لنا روسو فى «الاعترافات» Les Confessions الظروف الخارجية لهذا الاصلاح الخلقى فقال انه كان

يعيش طيلة الوقت في الغاية ، كنت أبحث فيها وكنت أجد فيها صورة العصور الأولى التي كنت أسجل في فخر تاريخها . . . وكنت أقارن بين الإنسان صنعه الإنسان ، والإنسان صنعه الطبيعة .

وفي تلك الاثناء كتب خديثه عن عدم المساواة بين الناس
Discours sur l'inégalité parmi les hommes.

كانت الطبيعة والعزلة عنده مصدرا للفضيلة وعن طريقهما يلتقى بالله وبضميره . . . ولكن كان هناك أيضا ميله الى العزلة اذ ذاك لانه كما قال هنا ، بدأت أحس (بالمؤامرات تحيط بي) تدريجيا ،

ولكننا هنا خيال نفسية معقدة هي نفسية روسو التي أسهم في تعقيدها البشر والاقدار على السواء لذلك كان من العسير سبر أغوارها وتبين دوافعها الخفية في وضوح .

وأما نتائج ذلك الاصلاح فقد ضمنها كتابه « اشهار عقيدة كاهن من سفوا La Profession de foi du Vicaire Savoyard ولكن على أي أساس أقام تلك العقيدة ؟ . . . » انها مبادئ يملئها على روسو احساسه الذاتي ، هذا الحدس المستتر فيه ، ذلك الالهام الذي ينبعث من أعماق قلبه والذي طبعت الطبيعة بحروف لاتمحي .

انه يعتقد في وجود اله منظم للكون وفي أن الانسان حر واذن ففي امكانه أن يذنب وان يجلب الفوضى والاضطراب في عالم كان كل شيء فيه مهياً لسعادته .

وهو يعتقد في خلود الروح ويفترض أنها لاتموت فيقول « ما دام ذلك الافتراض يعزيني ولا يتضمن شيئاً من عدم التعقل فماذا أخشى من تسليمي به » ولذلك يتعلق بأهداب عقيدته تلك التي تقول له « كن عادلاً تكن سعيداً » .

وعنده أن الوازع الأخلاقي لا ينفصل عن العقيدة الدينية وهو لا يؤمن بالوحي ولا بالمعجزات .

وهكذا نجد روسو في حاجة الى أن يعتمد على احساسه الذاتي وعلى منطق قلبه حتى تتكامل أركان عقيدته

وفي نهاية هذه الجولة نجد روسو وقد عاد الى الفكرة الأولى التي

استهلها بها ٠٠ انه يكرس أخريات أيامه لدراسة أكثر فائدة وأكبر قيمة
هي دراسة نفسه والتزامه لفضائل يساعده عليها تجرده من جسده الذي
يعشى عينيه عساه أن يخرج من الحياة بميتة هادئة طيبة تكفر عما قاساه
في أيامه من شقاء ٠

ولكن هذه الثقة وهذا الهدوء نراهما وقد اعتراهما بعض القلق
والاهتزاز في الجولة التالية الرابعة ٠٠ حيث يعرض مسألة الكذب ٠

الجولة الرابعة

فى هذه الجولة جدال طويل حول الكذب والحقيقة وهى تقل عن سابقتها فلسفة وعمقا ولكنها تعكس مع ذلك حالة روسو الذهنية المعذبة . انه لايزال يخاف عذاب الله فهو يحاول أن يبرر أخطاء له فحواها الكذب فى قالب دراسة أخلاقية . ولهذه الجولة - كما لمعظم الجولات - نقطة بداية هى فى هذه المرة كتاب تلقاه من الاب روزيه L'Abbé Rozier وترجع الصلة بين روزيه وروسو الى عام ١٧٦٨ « قام معه بجولات استعشاب طويلة كان من شأنها تقوية الروابط بين هذين الفيلسوفين» (١) . لما بينهما من توافق فى الطباع والميول . بدأ روزيه هذا الكتاب بفقرة جاء فيها : «الى الرجل الذى يكرس نفسه للحقيقة، وبدلا من أن تمر هذه الفقرة ببساطة يرى روسو فيها هزا وسخرية به وتعرضا بشخصه ومنشأ ذلك بلا ريب هو الشك الذى استولى على نفس روسو فى السنين الاخيرة من ناحية أصدقائه جميعا . ولكنه لايتشكك فى روزيه Rozier فحسب بل يعتبره عدوا له . وهو فى

هذا يلجأ الى كتاب من أوائل الكتب التي قرأها في طفولته يقول : انه لا يزال يتابع قراءته في أواخر أيامه . وهو بلوتارك Plutarque الذى كتب عن « طريقة افادة الانسان من أعدائه » .

وهو - على ضوء ما فهمه من كتاب الاب روزيه - يبدأ بفحص نفسه من ناحية الكذب . ويروى هنا حادثا وقع له في صباه سبق أن رواه كذلك في الاعترافات Les Confessions هو حادث سرقة الشريط واتهامه ظلما الحادمة ماريون Marion ذلك الحادث الذى ظلت ذكره تؤرقه طيلة حياته . وهو هنا أيضا يصفى نفسه من بعض ما جاء مخالفا للحقيقة في « الاعترافات » من ناحية التاريخ مثلا أو بعض التفاصيل الصغيرة معللا ذلك بأنه لم يكن يبغى الكذب عامدا وانما صدر ذلك عن ضعف في ذاكرته جعله يضع بعض التفاصيل التافهة موضع تفصيلات أخرى مثلها .

ولكن لم كان روسو يولى مسألة الكذب كل هذا الاهتمام ؟ لانه على مبدئه في الحياة وهو « تكريس نفسه للحقيقة » يترتب تصديق كل ما جاء في دفاعه عن نفسه في « الاعترافات » وفي « الحوار » و « الاحلام » كذلك .

والواقع أن روسو في الاعترافات وفي الحوار أيضا لا نراه يكذب الا في القليل النادر وفي أمور صغيرة أو لا قيمة لها . بل انه في منازعاته مع الفلاسفة مثل فولتير Voltaire وديدرو Diderot وغيرهما كان يلتزم الصراحة المطلقة بل كان يلتزم الجانب المضاد لصالحه أحيانا ومثال ذلك مسلكه من مدام دابنای Mme d'Epinaى نفسها حين أبى أن يصحبها في سفرها وما تلا من خروجه من عندها وحرمانه من العزلة التى كان يهواها في الأرميتاج L'Ermitage ويعزى ذلك الى حاجته الى الصراحة دائما من ناحية والى انه يجب أن يكون مستقلا حرا من ناحية أخرى .

ثم يستمر في تأملاته فيتابع جدلا منطقيا حول الكذب يتناول فيه تفرقات وتقسيمات وتدبيرات على جانب من الابهام أحيانا . وفي رأيه أن الانسان لا يجب أن يكذب في أشياء ذات أهمية ولكن يمكنه أن يفصل ذلك فيما لا قيمة له وفيما لا يترتب عليه ضرر بنفس الشخص أو بغيره . ومع ذلك فالحقيقة عموما هي الفضيلة الأولى يجب اتباعها في كل الاحوال .

وروسو في هذه الجولة ليس مسوقا برغبته في ايجاد تعريفات مختلفة للكذب وظروفه فحسب بل انها الرغبة الحفية في تبرير تصرفاته والتخلص من تائب ضميره هي التى تدفعه دائما اليها .

وهو يقارن كذلك بين من يسمى نفسه الانسان الصادق وهو الفيلسوف . . وبين الانسان الذي يعتبر في نظره هو صادقا ومخلصا حقا ، الشغوف بالحقيقة والصدق . . انه يحاول هنا التخلص من خطاياها بالقائها على الفلاسفة وهو يواسى نفسه بقوله : ان العدالة والحقيقة في ذهنه مترادفتان وهو عادل يتوخى العدالة . واذن فهو صادق يتوخى الحقيقة أيضا .

ولكنه برغم كل هذه الجهود يحس أن سكينته ليست كاملة فهو يقول : ولكن لأزال أحس ان قلبي ليس راضيا عن هذه التفرقات لدرجة اعتقدي معها اني غير مذنب» ولكن يعزى نفسه بالفكرة التي استهل بها الجولة الثالثة كما اختتمها بها وهي أن الشيخوخة هي وقت استكمال الفضائل . . فهو اذن ماض في اكتساب تلك الفضائل حتى آخر يوم له في الحياة .

وهكذا نجد أن هذه الجولة الرابعة متاهة منطقية مليئة بالتخريجات واللف والدوران وتتم عما يعتمل في قرارة نفسه من ندم وأحساس بالذنب يلاحقه ويؤرقه .

وكأبدا تعب من تلك الحيرة فنجدته يطلع علينا بالجولة الخامسة يستعيد فيها أياما سعيدة . قضاها في جزيرة سان بيير Ile de Saint-Pierre معتزلا للناس بعيدا عن التفكير الذي يرضيه ويرهقه .

الجولة الخامسة

قد تكون هذه الجولة أهم الجولات جميعا سواء من ناحية الوصف الرائع لجزيرة سان بيير Saint-Pierre أو من ناحية فلسفة جان جاك روسو لفكرة السعادة .

وقبل أن نبدأ فى تناول ما جاء بها نقدم بملاحظة صغيرة على أن هذه الجولة من ناحية موضوعها تماثل تماما شظرا من «الاعترافات» Les Confessions (الجزء الثانى - الكتاب الثانى عشر) اذ يتناول تقريبا المعلومات التى ترد هنا بل وغالبا نفس الالفاظ ولو أنه سرد ذلك فى «الاعترافات» بنظام يختلف تماما . ولكن لم فعل ذلك ؟ أهو جذب فى تأملاته وتخيالاته ما جعله يعاود كتابة ما سبق أن أورده فى أماكن فينقل عنه وعن نفسه مرة أخرى؟ ونحن نعرف أن روسو لا يجب أن ينقل شيئا سبق عرضه ، سواء كان له أو لغيره . . . اذ نراه يسرد أحيانا أقوالا لكتاب آخرين بشيء من التحريف معتمدا على ذاكرته دون أن يلجأ الى أصل ما كتب ذلك الكاتب لا لشيء إلا لأنه لا يحب النقل والتقليد . . . ألم يكن يجدر به أن يحيا فى

نفسه ذكريات أخرى سعيدة لم يتركها من قبل ؟ من هنا يتضح لنا عمق الأثر الذي خلفته في نفسه إقامته في تلك الجزيرة الحبيبة إلى نفسه بطبيعتها وعزلتها وهدوئها . . انه لم يعد يذكر عنها الا الخير والهناء . . في حين أنه في « الاعترافات » يسوق وصفها في اطار من التنقل والاضطهاد الذي يميز تلك المرحلة من حياته .

واذن فالهدف من هذه الجولة الخامسة هو تعريف السعادة التي استمتع بها مستخلصا من وصفه للمكان الذي استشعرها فيه . وفي الجزء الاول من هذه الجولة يصف الكاتب الجزيرة وطبيعة الحياة التي كان يحيها فيها . . أما في الجزء الثاني فخواتمه وآراؤه عن السعادة ومعناها .

وهو يستهلها لا مستذكرا جزيرة سان بيير Saint-Pierre فحسب بل اماكن أخرى بديدة عاش فيها . ولا ريب أنه كان يفكر اذ ذاك في الشارميت Les Charmettes عند مدام دوفوران Mme de Warens والأرميتاج L'Ermitage عند مدام دابنای Mme d'Epinaى ومونتمورنسى Montmorency عند المارشال دو لوكسمبرج Maréchal de Luxembourg وفيها جميعا ذاق جمال الطبيعة ومفاتها واستمتع بشبه عزلة ارتاحت لها نفسه . . ولكنه يتوقف مأخوذا بسحر جزيرة سان بيير وهي جزيرة لم تكن معروفة تماما حتى في سويسرا ولكن ريشة الكاتب الساحرة وجهت إليها الانظار وجعلتها مهبط السياح من كل فج منذ ذلك الوقت . والجزيرة بموقعها وسط بحيرة بين Le lac de Biennه كانت مهيأة لحالة رؤسو النفسية اذ ذاك . . انها « تبدو كأنما جعل موقعها خصيصا من أجل من يحب الانطواء على نفسه » . . وهل كان هناك من هو في حاجة إلى العزلة والانطواء أشد من رؤسو في ذلك الوقت بعد أن طورد ورجم منزله وذاق عذابات السفر والترحال ؟

وهو يبدأ وصفه بمقارنة بين شواطئ جزيرة سان بيير وشواطئ بحيرة جنيف Genève وفي جنيف قضى رؤسو مرحلة طفولته وعلى مباحج البحيرة فتحت عيناه وثيقظت أحلامه . . فالاولى تمتاز عن الثانية بالنظرة الرومانتيكية وكلمة romantique هنا تثير الدهشة في ذلك الوقت من القرن الثامن عشر وهي كلمة انجليزية من أصل ألماني لم تستعمل في اللغة الفرنسية الا منذ ذلك القرن . ولا ريب أن رؤسو استعملها هنا لانه كان بحاجة إلى التعبير عن احساس جديد وجدها تترجمه تماما أو بالأحرى لينبيء بطريقة أدبية جديدة في التعبير، ويعهد جديد وهي الرومانتيكية Le Romantisme وكان المترجمون الفرنسيون في منتصف القرن الثامن عشر لا يزالون

يصبرون عن كلمة رومانتيك romantique بـ pittoresque أو romanesque أى يميل الى الشعاعرية والخيال . ولعل المعنى هنا ينطبق عليه تعريف فينلون Fénelon فى «حوار الموتى» Dialogues des morts (١٧١٢) حيث قال «هذه أبداع صحراء يمكن أن يراها المرء . . ان الطبيعة هنا تبدو موحشة رهيبة ولكنها تثير الاعجاب وتحمل على أن يحلم المرء فى استمتاع .»

ولو أن روسو هنا يستعمل أيضا كلمة Romanesque فى نفس هذه الجولة وهكذا فتح روسو الطريق أمام هذه الكلمة فاستعملها فيما بعد كتاب وشعراء مرددين كلمة Romantique

ويتحسر روسو لانه لم يمكث فى تلك الجزيرة سوى شهرين . والواقع أن روسو بأصغابه المتعبة ونفسيته المرهقة وميله الدائم الى العزلة كان يود لو انه «سجن هناك بقية حياته» سجننا اراديا اختياريا يتفق أولا وقبل كل شىء مع ميوله وحاجته الى الراحة . . ولكن مجلس شيوخ برن Berne أصدر أمره بنفيه من الجزيرة فخرج منها مكرها مغلوبا على أمره .

والآن فيم كانت سعادته فى تلك الجزيرة ؟ انه كما يقول : « كانت هناك صاحبتى (أى تيريز لوفاسور) والحصل وزوجه وخدمه وكلهم فى الواقع أناس طيبون ولا شىء أكثر من هذا» ، اذن لم يكن روسو اذ ذاك فى عزلة مطلقة . . كما انه لم يكن كذلك متعطلا عن العمل تماما فلم يكن الفراغ الكامل من ميول ذلك الكاتب ، بل كان يحب أن يتخلله عمل مثل ما وقد سبق أن بين ذلك فى «الاعترافات» (الكتاب الثانى عشر) . وكان يملا حجرته زهورا وأعشابا جافة «لاننى كنت اذ ذاك فى بدء ممارستى لدراسة النبات تلك الدراسة التى غرس دكتور ديفرنوا D'Ivernois فى نفسى اليها ميلا أصبح شففاء . ثم هو يصف لنا بعد ذلك حلمه فوق صفحة الماء انه يهرب خلسة من رفاقه فى الجزيرة «ليستلقى فوق زورق يبحر به وسط البحيرة وقد أدار عينيه نحو السماء» ، وهو يحلل حلم اليقظة هنا تحليلا له أهميته البالغة لانه الاول من نوعه قبل أن يصف الزومانتىكيون اندماج الانسان فى الطبيعة . . وهو يبين عناصر هذا الحلم :

أولا - ضرورة وجود حركة تؤدى الى اختلاجات النفس (وهى هنا مد الماء وجزره) .

ثانيا - الحالة التى ينتهى اليها ، أى البساطة الكافية للأحساس بالوجود « كان ذلك كافيا ليجعلنى أحس بلذة وجودى دون أن يرهقنى التفكير» .

الثالث - استدعاؤه بعوامل خارجية « فلا أستطيع أن أنتزع نفسي منها دون مشقة » .

ثم ينضم إلى الجماعة فيلهون ويتحدثون ويتضحكون ولا عجب فهو يحب البساطة في كل شيء : البسطاء من الناس والبسيط من اللهو كما يحب الأغاني الخفيفة والموسيقى الايطالية المليئة بالاحساس والعاطفة. ويفضلها على موسيقى جلوك Gluck ورامو Rameau المعقدة في نظره .
من كل تلك الذكريات يستخلص روسو نظريته في السعادة :

« ليست السعادة في اللحظات القصار من المتع الشديدة والهوى. ولكنها حالة بسيطة دائمة » .

ولا ريب أن الصدمات التي لقيها روسو في حياته في المجتمع وفي حياته العاطفية جعلته يجد السعادة في الهدوء الذي يحاول أن ينقله اليها هنا أي في حياة تسمح لخياله بأن يخلق ويخلق ، والتي تتفق تماما هنا وحالته النفسية والعقلية من جهة وسنه المتقدمة من جهة أخرى . . . إذ كيف نستطيع أن نسمى سعادة «حالة عابرة تتركنا والقلب منا خال فارغ» أليست تلك هي الرومانتيكية بقلقها وحيرتها ؟ ثم هو يستمر في سرد خصائص وظروف ومراحل تلك السعادة الكاملة وقد تجمعت كلها في جزيرة سان بيزر بل إن تلك الاحلام الصغيرة السعيدة يمكن تحقيقها في سجن الباستيل مثلا مادام المرء هادئا بعيدا عن المنغصات ولو أنها حينئذ تكون أقل متعة منها في «جزيرة خالية حدودها طبيعية لاتعرض للنظر فيها الا صور ضاحكة» .

ولكننا نراه أخيرا في هذه الجولة وفكرة الاضطهاد تلح عليه . . انها تلاحقه حتى في أجمل ساعاته وأسعدها فيتمنى أن يعود ليقضى بقية عمره في تلك الجزيرة «ولكن الناس لن يدعوا لي مثل ذلك الملاذ البديع حيث رفضوا أن يتركوني» . . ولكنهم منع ذلك لم يمنعه من أن ينتقل إليها على أجنحة الخيال . . في أحلام يقظته « حيث تنقلت الأشياء من حواسي أثناء نشوتي » وهو هنا في هذه النشوة يكاد يشبه شرقيا متصوفا في لحظة اشراق .

ثم تأتي أخيرا الصرخة المتحسرة « وأسفاه ! » أسفا على لحظات يرى نفسه ماضيا في سبيل الابتعاد عنها حيث يتمنى أن يعيشها من جديد .

الجولة السادسة

لئن كانت هذه الجولة أقل امتاعا من سابقتها الا أنها لاينقصها أن تكون على شيء من الأهمية لما تلقيه من أضواء على استعدادات روسو من ناحية عمل الخير وحبه لاسعاد الناس وهي تشبه الجولة الرابعة من ناحية انها تعالج احساسا من احساس روسو في تعامله مع الناس . وهذه الناحية ترددت كذلك في « الحوار » ومررنا بها كذلك في الجولة الثالثة حين تكلم روسو عن اصلاحه لنفسه .

يعود بنا روسو هنا الى باريس . حيث « وبالامس فقط » كان ذاهبا للاستعشاب على ضفة نهر ال « بييفر » Bièvre في ناحية « جنيني Gentilly واذا به منعطف متحاشيا المورور ب « بوردانفير d'Enfer (أى باب جهنم) على غير عادته فيتساءل لم أراد أن يتحاشى السواية ؟ انه يذكر أن ذلك كان بسبب طفل صغير لطيف لكنه أعرج دأب على تحيته يوميسا وكان يسره ذلك فى مبدأ الامر ولكنه أصبح يضحك به فى النهاية ويفسر ذلك فى السطور الاولى من تلك الجولة اذ يقول

و ليست هناك حركة آلية لا نستطيع أن نجد لها تعليلا فى قلبنا اذا ما نحن عرفنا كيف نتغلغل فيه بأحثن عن ذلك التعليل ، ومن ذلك ندرك كيف كان روسو يميل الى طبقة الشعب البسيطة وكيف كان يتوجس خيفة من المقابلات المنتظمة كما كان يخشى كذلك أن يتعرف الناس عليه . . . ولقد سبق ذلك فى « الحواري » فهو يظن دائما أن أعداءه يرسلون من يتجسسون عليه ويطلعون على أحواله الخاصة .

« ولقد تحولت - ولست أدري كيف تحولت - هذه المتعة التى عدت عادة بالتدريج الى نوع من الواجب ما لبثت أن أحسست بالضيق منه » .

من هنا تبدأ سلسلة تأملاته التى تسلمه الى تحليل خاصة فى طباعه هى الخوف والهروب من كل ما يلزمه أدبيا . . . انه يحب عمل الخير وان يسعد الناس ولكن ما ان يحس انه أصبح مقيدا بواجب حقيقى أو مفروض وعندما يعتقد أن أحدا ينتظر منه تكرار خدمة ما حتى تثور الحرية فيه ويعمل جاهدا للتخلص من سلطان الناس عليه ، ولكن سرعان ما يجد لنفسه ظروفا مخففة فهو يقول انه طالما عمل الخير ولكنه كان ينقلب ويفسر ضده وهو اذ يتكلم عن «مغامرين كانوا يأتون للتسلط عليه وارغامه» يردد مقاله سابقا فى «الحواري» وخاصة فى «الحواري الثانى» . وهو يقول : «اننى وان لم أكن فاضلا الا أنى رجل طيب القلب» وهو يردد هنا أيضا مقاله من قبل فى الجولة الثالثة .

وإذن فقد انتهى الى أن الامتناع عن عمل الخير خير من التعرض لتسلط الناس عليه وهو فى صراعه مع ضميره الذى يخزه يلقي اللوم أيضا على أولئك الذين تغيروا منذ عشرين سنة أى منذ القطيعة التى كانت بينه وبين مدام دابناتى Mme D'Epinaى فهو حين يشعر انه خدع لا يستطيع أن يتغلب على نفوره ولا يستطيع بالتالى أن يقدم على عمل الخير فيعتبر «أى عمل صالح يقدم له كأنما هو شرك جديد ينصب له» .

ولكن روسو يخطئ اذ يقرر انه فى الوقت الذى يكتب فيه لم يكن له أصدقاء من بين الناس منذ عشرين سنة ، حقا انه أبعد الكثيرين عنه ولكن كان له مع ذلك أصدقاء مثل ديكلو Duclos وبرناردين دو سان بيير Bernardin de Saint-Pierre وديفرنوا D'Ivernois وهو الوحيد تقريبا الذى لم يجد ما يعتب عليه به حتى مات .

كما أنه ليس صحيحا أنه لم يصادف فى العشرين سنة الاولى أيا أشخاصا كرماء شرفاء يعملون دائما لصالحه فكثيرا ما قابل متهم من تسببوا

له فى اذى ماضى او معنى كالحفار الذى كان يعمل عنده ويسىء معاملته
والقنص الذى عرفه بسر بعض الانحرافات الخلقية والشغبان المفسامين
القاسدين الذين قابلهم فى شامبرى Chambéry وفى الشارميت Charmettes
والذى كانت مدام دفوران تحاول التفرقة بينهم وبينه .

وأخيرا - وكعادة من يهيمنون فى الخيال فيستحوذ عليهم ويفرهم
بالابتعاد عن الواقع بأساليب خرافية - يتمنى روسو لو أنه أوتى خاتم
جيجيس Gygis (الذى ذكره سيسرون واذن لفعل كل ما يحلو له دون
أن يراه أحد . . فهو ينعى شهرته التى ألبت الناس عليه ومنعته من اسداء
الخير جهرا . . ولكنه يعود فيخشى لو انه امتلك ذلك الخاتم أن يفره سلطانه
بارتكاب مغريات لا قبل له على الصمود أمامها . . ولكن سيسرون ينتهى
إلى القول بأننا يجب أن نفعل الخير ولو انه ليس هناك من يرانا . . وروسو
يجب أن يرى السعادة ترفرف على الجميع ، واذن لما لم يكن مخدوعا من أحد
فلن يسىء استعمال الخاتم . . انه يتغنى بطيبته وبنواياه الحسنة نحو
الناس . . ولكنه لن يكون غير مرئى فحسب بل سيستطيع أن يقرأ خفايا
قلوب الناس واذن فهذا الحلم السعيد نتائج : منها أنه سيكون رأيه
متعقلا متزنا عن الطبيعة الانسانية «اننى اذ أقرأ فى يسر مافى قلوبهم قد
ألقى منهم بعضا ممن يستحقون محبتى وبعضا آخر ممن يستحقون
بغضائى» .

ومن نتائج استعمال ذلك الخاتم أيضا انه قد يستطيع اتيان المعجزات
وان يقيم العدالة السمحة الرحيمة بين الناس بدلا من العدالة المتزمتة
القاسية . . وهو يشير هنا الى معجزات القديسين كزيارة قبر سان ميدار
Saint Médard (وكانت باريس كلها سنة ١٧٢٨ تؤمن بذلك وتتسابق
إليه ليشفى المرضى من الناس) .

وأخيرا . . ان الجسد ضعيف . . وهناك احتمال اتيان حماقة ما . .
واذن «فبعد تأمل الأمر مليا . . اعتقد أنه من الخير أن أطوح بخاتمي
السحري قبل أن يتحتم على الاقدام على حماقة ما» .

وتنتهى به هذه الاحلام الحلوة الى أنه يكون «مخطئا لو انه تأثر
بالطريقة التى يرونها بها . . اذ لست أنا الذى يرونى على هذه الصورة ،
وهذه الراحة فى التفكير . . هى شأن الخياليين المصابين بالشيزوفرانيا
(الفصام) - ومن بينهم روسو - الذين يعودون من حلم خيالى حلو لاصلة
له بالواقع على الاطلاق وهم فى أحسن حالاتهم النفسية .

وينتقل روسو بعد ذلك الى فكرة اخرى يعزو عن طريقها عدم تقبله
لحياة المجتمع الى ميله الى الاستقلال ثم هو يورد تعريفا للحرية فيقول :
« لم اعتقد ابدا ان الحرية من شأنها ان يجعل المرء ما يريد ولكنها في الا
يعمل ما لا يريد » .

ثم هو يقابل بين هذه الحرية وبين تعصب الفلاسفة الذين يكرهون
الحرية في الآخرين ولا يريدونها كذلك لانفسهم .

ثم يعود الى الثغنى بقلبه الحير فيقول : « اما عن الشر فلم يكن لارادتي
منه نصيب في حياتي واني أشك ان هناك انسانا في هذه الدنيا ارتكب
منه اقل مما فعلت » . فهو يضع القدم هنا وهو مطمئن الى انه اراح ذهنه
وضميره مرددا انه وان لم يكن افضل الناس فهو احسنهم بل هو ربما
- في رأي نفسه - كان اقرب الى الملائكة منه الى البشر .

الجولة السابعة

تبدأ هذه الجولة بجملة تجعلنا نعتقد أن روسو كان يصدد كتابة مؤلف أكثر أهمية « لم يكذب يوماً سجل أحملي الطويلة ولكنني أحس أنه مشرف على نهايته » وأذن فمن الجائز أن يكون روسو قد توقف عن الكتابة وهو لا يزال في الربع أو الثلث الأول من مؤلفه لأنه كان ينوي المضي في كتابة « سجل طويل » .

والجولة ذات موضوع جديد أصيل ولو أنها مثل الأخباريات من ناحية كونها تأملات خاصة محورها روسو نفسه . . انها - الى جانب هذا - دفاع عن روسو نفسه . . وأن لم يكن دفاعه هنا في حرارة الدفاع الذي جاء بالجولات الرابعة أو الخامسة أو السادسة مثلاً . .

فهى تتناول موضوع الاستعشاب ودراسة النبات ولا بد أن يجيء دفاع روسو عن نفسه امام من يهاجمون هذا اللون من العمل أقل حرارة من غير شك من دفاعه عن نفسه ضد من كانوا يتهمونه بالكذب أو بكرهيته للناس مثلاً . .

وليس روسو أول من دعا الى دراسة النبات وجبدها فقد سبقه فنلون Fénelon وبوفون Buffon (الذي كتب عن « التاريخ الطبيعي ») ولو ان كتابه كان لا يزال في مرحلة الاعداد للنشر حين كان روسو يمارس الكتابة في النبات اذ لم يتم نشره الا في عام ١٧٨٨ أى بعد وفاة روسو بعشر سنوات . وكانت دراسة النبات من الدراسات التي شاعت بفضل لينيه Linné الذي أعجب به روسو كثيرا في أول الامر (ولو ان اعجاب به فتر بعد ذلك) وكان يقوم بهذه الدراسة جماعة من العلماء الممتازين مثل آل جوسيو Jussieu (الذين أورد روسو ذكرهم في الجولة التاسعة) . ومنذ منتصف القرن الثامن عشر كانت ترد بالصحف عبارات مثل « التاريخ الطبيعي هو من بين العلوم جميعا العلم الذي يمارس بفضيلة بالنفة في عصر مستنير مثل عصرنا » . واذن فان روسو وجهوده في هذا المضمار لا تمثل سوى دور العضو في جماعة الدارسين والباحثين وليس فيها فضل القيادة أو التوجيه . ويشير مورنيه M: Mornet في كتابه عن علوم الطبيعة (١) الى دور روسو بقوله « ان روسو يبين أن دراسة العلوم الطبيعية واجبة ومفيدة لا في ميدان جمال العقل فحسب بل في جمال العاطفة » .

ويحدد روسو في هذه الجولة بدء هوايته . . . لقد تلقى الانطباع الاولي لحب الطبيعة في سويسرا حيث تفتحت عيناه على الخضرة والريف البهيج ثم هو يذكر الدكتور ديفرنوا D'Ivernois الذي طالما صحبه في جولات استعشاب طويلة والذي امتدت صلته به وصادقته له حتى نهاية العمر ثم ينتقل بعد ذلك مباشرة الى أول محاولة للدفاع عن نفسه في هذه الجولة . . . ولا عجب فان هذا الانسان المنعزل عن المجتمع يحس دائما بحاجة الى أن أن يزود عن نفسه جميع الاتهامات التي تنهال عليه منه فتراه في « الحوار Les Dialogues » مثلا يبرر هوايته لنسخ الموسيقى أما هنا فهو يبرر ميله لدراسة النبات . . . وهكذا كانت آراء الناس تشغله دائما ولا تفتأ تعاوده وتطارده حتى وهو هائم بين ربوع الطبيعة .

وهو يعلل عدم قدرته على التفكير وضعف خياله عن التحليق في أجواء الأحلام انسياقه الى التأمل الدقيق في مشاهد الطبيعة . . . وهكذا يقابل ما بين نفسه وبين أولئك الذين لا يحسون بالطبيعة ولا يرون فيها سوى مورد للعقاقر والوصفات الطبية . . . بل ان الطبيعة - الى جانب ذلك - تلهيه عن الكراهية وعن الرغبة في الانتقام وهكذا « ينتقم من

مضطهديه على طريقته ، اذ يغدو سعيدا على الرغم منهم وهو ما سبق أن
أورده في الحوار Les Dialogues في الجولة الثانية من الاحلام Les Rêveries
وبرغم هذا الميل لا نراه يستهدف نفعاً دنيوياً بل ان هذا الميل يدفعه الى
التقرب الى الله والتأمل فيه (ولعل في ذلك رداً على ما قرره من اتهام
أعدائه له من قبل في « الحوار » Les Dialogues من أنه يجمع الاغشاب
ليصنع منها العقاقير) كما يجعله يزيد من معرفته بنفسه . . تلك المعرفة
التي كرس لها أيامه الاخيرة .

انه يحب الطبيعة ويتعشقها . . تلك الطبيعة الخضراء التي تكسو
الارض كحلة زاهية فلا شيء يوحش النفس أكثر من مشهد ريف مقفر عارٍ،

ولقد وجد نفسه - في هربه من الناس وميله لاعتزالهم وفي عجزه
عن التفكير العميق - مضطراً الى أن يشغل بما يحيط به وماذا هناك أجمل
من الطبيعة تحنو عليه وتلفه وتحيط به . . ووجد ذلك في مملكة النباتات
لان مملكة المعادن تبدو شاقة منفرة ولان مملكة الحيوان تتطلب عمليات
التشريح التي تثير الاشمئزاز وخاصة بالنسبة للنفوس المرهفة الحساسة .
وهو يعدد مزايا الدراسة التي فضلها على غيرها ولا يفوته أن يظهر عدم
ثقتة بالطباء وكرهيته لهم فيقول . . « اننى الدليل الحى على بطلان فنههم
وعدم جدوى علاجهم » وينتقل بعد ذلك الى الذكريات فيذكر استعشابا
قام به في ناحية روبيل Robaila (وهو جيل يسمى اليوم اليوم Robela
على مسافة فرسخ من موتيه في مقاطعة نيوشاتل) وهو يذكر أسماء
النباتات هنا باللاتينية بعد أن ذكرها من قبل في هذه الجولة بالفرنسية
ولا ريب أنه وجد هذه المفردات في مؤلف « لينيه » الذي كان روسو معجبا
به . . وفي جولته في ناحية روبيل يصور لنا خيبة أمله إذ كان يظن نفسه
وحيدا وأنه أوغل في عزلته الى حد تخيل فيه أنه كريستوف كولومب
ونحن نقول - الى جانب ذلك - بل روبنسن كروزو (الذى أوصى بقراءته
في اميل) حيث يقول « لا شك اننى أول مخلوق توغل حتى هذا المكان » .

ويشير هنا الى تذكره استعشابا آخر من النوع نفسه قام به خلال
اقامته في جرينوبل Grenoble وكان يصحبه مسيو بوفيه Bovier
(محنم في الاقليم) الذى كان يلزمه ويسهر على سلامته ويروى قصة
فحواها : أنه أكل من فاكهة نبتة أحد المارة الى أنها سامة ومع ذلك فلم
ينبس مسيو بوفيه بكلمة . . فروسو هنا - وان لم يتهم بوفيه اتهاما

صريحاً - يدخل في روعنا مع ذلك رغبة الآخر في تركه بفوت مستبوماته
وأغلب الظن أن روح الشك والريب التي تسلطت على روسو في أعوامه
الآخيرة وجعلته لا يثق حتى في أصدقائه المخلصين هي التي صورت له
المسيو بوفيينه على هذه الصورة ويؤكد ذلك أنه لم يجرؤ على إتهامه في
صراحة أو أنه بعد تاريخ الحادث (عام ١٧٦٨) جعل يخلط بين ذكرياته
بعد أن ضعفت ذاكرته - كما يعترف هو بذلك .

الجولة الثامنة

كان من الممكن أن تصبح هذه الجولة ذات أهمية بالغة لو أن الجولات بدأت بها ٠٠ وهي تكمل الجولة الخامسة من حيث التعبير عن السعادة لدى روسو وتكمل السيادة كذلك من حيث تبرير صلاته بالناس ولو أنه هنا لا يبرر وجود تلك الصلات بهم بل يفسر انقطاع هذه الصلات بينه وبينهم انه يتغنى هنا بالسعادة في العزلة والوحدة ٠٠

كانت فكرة اعتزال الناس تهيم على روسو وتلاحقه ٠٠ وكان ذلك سببا من أسباب مهاجمة الفلاسفة له ٠٠ أما هو فكان يحس انه محوط بمؤامرات تحاك له في الخفاء ٠٠ وظل - كما يقول برناردين دو سان بيير Bernardin de Saint Pierre (١) « ظل روسو يمتدح مزايا العزلة حتى آخر لحظة من عمره لقد قال كاتب - ويقصد به هنا ديدرو - أن الشرير هو الذي يعيش وحيدا ولكن ماذا كان يمكنه أن يصنع في العزلة ؟ تعس هو ذلك الذي لا يعرف آلامه الخفية »

Bernardin de Saint-Pierre: La Vie et les Ouvrages de Rousseau (Edition Sourian, p. 84). (1)

ولقد دافع روسو من قبل في « الحوار » عن تلك العزلة وهو هنا يبسط المشكلة ويدرسها مفصلة : فهو يبين أولا التعارض بين سعادته في الوحدة وتعبه وضيقه بالناس حين يكون بينهم وهو يدهش عندما يسترجع الساعات التي كان يظن نفسه سعيدا خلالها اذ يجد انها لم تترك له من حلو الذكرى ما تركته تلك التي ذاق فيها ألوان الآلام . . . واذن فقد كان ذلك هباء عابرا لا يمكن أن يسمى سعادة . . . وهو في ذلك يؤكد ما أورده في الجولة الخامسة « كيف يمكن أن نسمى سعادة حالة عابرة تتركنا والقلب منا خال فارغ ؟ » وهو يقارن هنا بين هباء ظاهري وتعب حقيقي في ماضيه ، وبين تعب ظاهري وهناء حقيقي في حاضره . . . ويكشف عن لون من الغرور حين يقرر أنه يفضل أن يكون هو نفسه بكل شقائه من أن يكون « واحدا من هؤلاء الناس بكل ما هم فيه من نعيم » وهو يتساءل : كيف وصل به الامر الى هذا الحد ؟ وكيف غدا غير مبال وسط ما يحيط به من شرور ؟ وكيف اكتشف المؤامرة فقلبت كيانه كله رأسا على عقب؟ انه يشير بذلك الى خصومته مع مدام دابنای Mme D'Epinaى وهو يقص ذلك أيضا في الاعترافات Les Confessions (فى نهاية الكتاب التاسع ومستهل العاشر) ولكن في ثبات وهدوء أكثر مما يفعل الآن . . . ولا ريب أن حالته النفسية التي ساءت بعد « الاعترافات » جعلت تلك الذكريات أشد سوادا واضطرابا .

ولقد حاول العثور على رجل عاقل يفهمه ويتوسط بينه وبين أعدائه ولكن عبثا فقد كانت المؤامرة شاملة . . . واذ ذاك - بدلا من اليأس القاتل - وجد السكينة والهدوء . . . بل السعادة . . .

ولعلنا نتساءل : أية سعادة تلك التي يحاول أن يقنعنا بها أو يقنع بها نفسه . . . تلك التي يذكرها وسط تلك الاوصاف والملايسات من اليأس والألم والاضطهاد والعذاب وجو المؤامرات . . . انه يصف عذابه فيجعلنا نحسه معه وكأنما حدث له للتو . . . أفكان المسكين سعيدا حقا ؟ أم أنه تعب من الألم وتعب من تصاريق الاقدار معه فهو يمثل أولا على نفسه ويمثل ثانيا على الناس ليبدو - وذلك ما يناسب غروره - وقد انتصر على كل ذلك . . .

وهو يحتقر الآلام المادية ويبحث عن مصدر لآلامه فيجدها في كبريائه . . . وفي « الحوار الثاني » يتناول روسو تلك الفكرة وتقريبا بنفس الالفاظ التي يكاد يسردها بها هنا . . . واذن فليخنق تلك الكبرياء مادامت ننفس عليه حياته وتمنعه حتى من الاستماع الى عقله حين يوصيه بتقبل

الاقدار كما هي والمصائب كما تحل دون معاندة أو اصرار وعندئذ يمكنه أن يرى « الغنى والفقر والصحة والمرض والمجد والمهانة .. كلها بلا مبالاة » وهو اذ بلغ هذه الحال من عدم المبالاة يرجع الفضل الى أعدائه لا الى حكمته وفي ذلك بعض التكفير عن كل ما سببوه له .

انه يعيش منذ الآن مع كائنات من خلقه هو لا يخونونه ولا يسببون له حزنا .. كائنات من خلق خياله لا يخشى منهم ضرا أو هجرا ..

وبعدئذ يشرح روسو الحالة النفسية التي يكتب عنها فيقول « ولما كانت حواسي مهيمنة على نفسي فاني لم أستطع أبدا أن أقاوم انطباعاتها، وهذا هو الشرح الذي يقدمه عن خلقه وطبيعته في « الحوار الثاني » وهو يلاحظ انه عن تجربة متكررة يجد نفسه سعيدا في الاماكن التي لا يصادف فيها انسانا ولكنه يعود فيذكر انه لا يستطيع أن يصمد أمام أمر يسبب له ألما فان « كلمة ، اشارة ، نظرة بغضاء ألمها أو كلمة مسمومة أسمعها تكفي لان تجعلني أضطرب أشد الاضطراب » وهو يقارن ثانية بين اليوم والأمس .. اليوم حيث يحس السعادة في عزلته عن الناس والأمس - أى عندما كان يعاشر المجتمع - حيث كان يحس بالضيق وعدم الراحة .

ولتحليل روسو هذا أهميته : فهو تطبيق للنهج الذي أعلنه في الجولة الاولى حيث يريد أن يدرس نفسه بعناية ومعرفة ودراية .

من هذا كله .. ومن مكابرتة اذ يقول انه « سيد نفسه يفعل مايشاء » يتبين خوفه الدائم وقلقه .. فهو هنا كانسان يخاف الظلمات فيغنى عساه يشجع نفسه على تحملها .

وخلال هذه الجولة كلها نحس بروسو وهو يحاول أن ينفي عن نفسه تهمة « الشرير هو الذي يعيش وحيدا » ويحاول أن يرد على ذلك الاتهام ويؤكد انه سعيد ويحاول أن يثبت تلك السعادة فيؤكددها مرة أخرى ليقتنع نفسه انه كذلك .

ولهذا كله وللحالة النفسية المضطربة الهادئة حيننا الشائرة أحيانا كانت هذه الجولة البديعة مؤثرة حقا تمس شغاف قلوبنا .

ترى أكان روسو صادقا ؟ أم انه أحسن الدفاع فحسب ؟

الجولة التاسعة

وهذه الجولة مثيرة جدًا، يزرع ذلك الى أنها تتناول موضوعا مؤثرا ، بل يكاد يكون رهيبا ، هو مسألة هجر روسو لأطفاله ، وكذلك الى تنوع فى موضوعها وخلوها من مناقشات مجردة أو عامة كما حدث فى الجولتين الرابعة أو الثامنة مثلا . انها اذن تتناول مسألة أطفاله الذين لازمه الاحساس بالذنب من أجل اهماله لهم حتى آخر حياته وكانت سببا فى انتقاد الفلاسفة والناس له وصيهم اللعنات عليه .

وفى هذه المرة تنبعث تأملاته من حادث غير ذى أهمية يرى فيه اصبح اتهم يشير اليه ويعرض به فيشك ويشور ويهب مذعورا ليسوق أدلته وبراهينه وليبرر مسلكه أمام نفسه وأمام الناس وتتسع تلك التأملات وتزداد اتساعا حتى لتنتهى الجولة على غير ما بدأت به .

أما الحادث الذى أثار اهتمامه فهو مجيء السيد/ب عنده ليريه فى تحمس بالغ مديحا من سبع صفحات فى شخص مدام جيوفرين Mme Geoffrin وجهه لها الفيلسوف دالامبير

M. d'Alembert وأما مدام جيوفرين فصديقة للفلاسفة كانوا يجتمعون في صالونها حتى لكان ديدرو :Didero يناديهما « ماما » .

وأما الفقرة التي لم تعجب روسو فهي أن مدام جيوفرين « كانت تجد متعة في رؤية الاطفال والتحدث اليهم » وكان ذلك كافيا كى يهيج روسو معتقدا أن دالامبير يخزه في موضع الالم ويعرض به . . وخاصة وأن دالامبير كان عدوا له منذ عام ١٧٥٧ وانه وضع تلك الفقرة عامدا متهما روسو بعدم حبه للاطفال عامة مادام قد أودع أطفاله ملجأ اللقطاء . وينبرى روسو ليذود عن نفسه الاتهام مستشهدا بحوادث صغيرة تبرهن على حبه للاطفال ورعايته لهم وحده وعطفه عليهم .

وقد ناقش روسو هذا الامر طويلا في « الاعترافات » Les Confessions وعلق عليه في « الحوارات » Les Dialogues ثم تناوله كذلك بطريق غير مباشر في « الجولة العاشرة » حين سألته إحدى السيدات وكانت حاملا عما اذا كان قد رزق بأطفال - وكان فولتير قد أثارها أيضا قبل ذلك باثني عشر عاما تقريبا حين كتب عن « مشاعر » مواطني جنيف des sentiments des citoyens de Genève ويقال ان مدام دابنای والدكتور ترونشان Docteur Tronchin هما اللذان أخبراه بذلك كما أن روسو نفسه في كتاب « اميل Emile » اعترف ضمنا بذلك وكان يعتقد أن ذلك الاعتراف كان كافيا لان يوفر عليه لوم الناس . . . وأما في « الاعترافات » فقد ساق تبريرا واهيا فحواه أن الشبان في ذلك الوقت كانوا يتباهون بمغامراتهم التي كانت ثمارها تودع ملجأ اللقطاء ببساطة مما جعله يفكر أنه « ما دامت تلك عادة البلد التي يعيش فيها فلاخرج من اتباعها » . . . كان يتكلم اذ ذاك وكانما تركه لأطفاله امر طبيعي . . أما هنا فهو متوتر الاعصاب ثائر يتلمس مهربا من ضميره .

وأطفاله هؤلاء أنجبهم - كما نعلم - من أم جاهلة هي تريز لوفاسير Thérèse Levasseur تمت الى الطبقة الدنيا بصلة وثيقة اذ كانت تعمل خادما تغسل الملابس وتقوم بكيها في منزل بباريس وكانت - باعتراف روسو - غبية لا تحسن القراءة أو الكتابة ولا عد الأرقام ولا تعرف الشهور أو الوقت أما أمها فكانت امرأة شريرة نغصت على روسو حياته لفترة طويلة ويقال انها كانت تتآمر مع الفلاسفة على روسو وتمدهم بالمعلومات المختلفة عنه .

ويبرر روسو اهماله لأطفاله بقوله انه لا يستطيع أن يقوم بنفسه على تربيتهم وأن تنشئتهم وتربيتهم كانت تتم على أسوأ الصور لو أنه عهد بهم الى تيريز وأسررتها . . بل انه يرتجف اذ يفكر في المصير الذي كان ينتظرهم . . وهو يسوق هنا مثالا لـ « محمد وسعيد » وان ما كان ممكنا أن يصنعه أولاده معه هو ما صنعه سعيد بأبيه اذ حرضه محمد ضد أبيه فقتله . . ونحن لا ندرى مصدر القرية التي يوردها هنا روسو على سبيل الاستشهاد . . وأغلب الظن أن مسرحيات فولتير في ذلك الوقت - وكان يتناول فيها شخصيات دينية من الشرق مشوهة من غير شك - هي مصدر المثل الذي يورده روسو . . وينم ذلك عن جهل بالديانة الاسلامية السمحة والاحداث التي تمت ابان الرسالة الاسلامية ويعزى ذلك الى أن أوربا في القرن الثامن عشر لم تكن قد نالت قسطا كافيا من المعرفة بالشرق ودياناته . . أو أن ذلك كان نقصا في معلومات روسو نفسه عنها . . وعلى أية حال فالمقارنة هنا لا محل لها اطلاقا فان محمدا صلي الله عليه وسلم لم يحرض شخصا يدعى سعيدا على قتل أبيه أو غير أبيه .

والاسباب التي يوردها روسو هنا تتلخص في أنه كان يحب الاطفال في شبابه ويلهو معهم ولم يكن لديه وقت لدراستهم . . أما الآن فيستطيع أن يجد متعة في ذلك . . ثم انه من غير المعقول أن يكتب روسو كتاب « اميل » Emile و « هلويز الجديدة » La Nouvelle Héloïse ثم يتهم مع ذلك بعدم حبه للاطفال . . ومن المعروف انه أبدى في « اميل » رعاية وعناية فائقتين بالطفولة عامة . . وفي « هلويز الجديدة » لوحة من أبداع اللوحات العائلية أظهر فيها روسو اهتمام الابوين وشغفهما وتضحيتهما من أجل الأبناء . . ويمضى روسو في دفاعه عن نفسه فيقول انه لا يتصل بالاطفال اليوم لانه لا يعرف كيف يحدثهم والى أنه قد يخيفهم بمظهره بعد أن أمسى عجوزا .

ويروى روسو ثلاثة من الحوادث الطريفة برغم انها واهية في الدفاع عن موضوع روسو نفسه وغريبة عليه .

أما الاولى - فتشير الى أنه تعرف على طفل في كليننكور Clignancourt وهي قرية صغيرة من ضواحي باريس - ولكن أباه بعد أن علم بذلك أبعده طفله عنه مما أسف له روسو وترك في نفسه أثرا أليما . . وهذه لمحة من نواحي الاحساس بالاضطهاد لديه .

وأما الثانية - فهي دفاع عن مبدأ المساواة الذي كان ينادى به أكثر منه دليلا على حبه للاطفال - اذ يقابل - هو وزوجته رهطا من الفتيات في

رفقة راهبة . . وتصادف مرور بائع حلوى فاشترى للجميع منها وهو يحرص على المساواة بينهم فيما يحصلن عليه من حلوى - وبين روسو كيف انه بنقود قليلة حصل على سعادة غامرة اذ أدخل السرور الى نفوس الصغيرات والراهبة .

وأما الثالثة فكانت فى الشوفريت Chevette وهى تشبه الاولى قليلا وزع فيها تفاحا كانت تحمله بائعة فى سلة على مجموعة من الفلاحين من سفوا Savoie ويقابل هنا ما فعله هو بما يحدث فى بعض الاحتفالات حين يرمى عليه القوم بعض الحلوى للفقراء الذين يتداهسون ويتضاربون لالتقاطها . وهنا تبدو كراهيته للأغنياء واحتقاره لهذه الطبقة المترفة .

أحب روسو دائما المتع البريئة البسيطة وكان يضيق دائما بوجوده بين عليه القوم فى حفلاتهم بل انه كان يجد حرجا فى مجاراتهم حتى قال عنه « برناردين دو سان بيير(١) » « ان رغبة روسو فى أن تحذو فرنسا حذو سويسرا فى مباحها الشعبية خلق من غير شك أسلوبا جديدا لها وساعد على اقامة الاحتفالات الثورية » .

ثم يعود روسو فيطرق موضوع العزلة فى صورة جديدة فيقول انه برغم اللذة التى يحسها اذ يرى الآخرين سعداء فان وجوده بينهم أيضا يسبب له فى كثير من الاحيان آلاما نفسية تجعل صحبتهم شاقة على نفسه وذلك اذا ما أحس من ناحيتهم بنظرة معادية أو احساس غير ودى - وقد ذكر مثل ذلك فى الجولة الثامنة حيث يقول انه يسرع بمغادرة المدينة حتى يتفادى وجودها ، فقد تعبر عن عداؤها له وهو يسوق هنا على سبيل المثال المحاربين القدامى الذين كانوا يحيونه فى بشاشة فى مبدأ الأمر ولكنهم أخذوا يتجنبونه بعد ذلك لانهم - كما يظن - تعرفوا على شخصيته عن طريق زملاء لهم .

أما آخر واقعة يسردها فهى معاونته لواحد من هؤلاء المحاربين القدامى فى عبور البحيرة وتصدقه عليه فى لباقة بما قد يشتري به تبغسا وينوه بالروح السمحة الودود التى لمسها فى ذلك الرجل مفسرا ذلك بجهل الاخير بشخصه وعدم تعرفه عليه بعد .

ثم يختتم موضوعه - بمدح لكرم الضيافة عموما ولا ينسى بهذه المناسبة أن يسخر من الهولنديين الذين « يتقاضون ثمن ارشادك عن الوقت » .

وهكذا أخذ روسو يبتعد - بسرده لذكرياته التي يتغنى فيها بكرمه وشهامته - عن نقطة البدء في هذه الجولة ١٠٠٠ فنجد الصلة قد انقطعت بين موضوع حب روسو للإطفال خاصة وحبّه للإنسانية عامة

ومع ذلك فهي هامة إذ تسوق لنا مشاهد حية وعادات من القرن الثامن عشر من ناحية وتلقي ضوءاً آخر على مدى أسي الكاتب وندمه على ما اقترف في حياته وقلقه البالغ وهو يستعد لملاقاة ربه من ناحية أخرى .

الجولة العاشرة

تنتهى « أحلام يقظة جوال منعزل » بعاشرة الجولات .
لم يقدر لصاحبها أن يكملها وكان من الجائز أن يكتب فيها
أجمل ما سطر قلمه فى هذه الجولات . ويحدد روسو تاريخها
فيقول « اليوم » يوم عيد الفصح المزهر وقد مضى على معرفتى
الأولى بمدام دوفواران Mme de Warens خمسون عاما ،
كان ذلك فى الثانى عشر من ابريل من عام ١٧٧٨ .

وانا لنحس بالأسف اذ لم يتم روسوهذه الجولة بالرغم
من مرور ما يقارب ثلاثة شهور قبل أن ينتقل الى الدار
الآخرة . ذلك لان الصفحتين اليتيمتين فيها هما - من غير
شك - أكثر ما كتب فى الاحلام أصالة وسجرا . واذا نحن
تذكرنا ماقاله فى الجولة الاولى من أن هدفه هنا دراسة نفسه
فحسب نجد أننا بعدنا كثيرا عن ذلك فى هاتين الصفحتين .

ومدام دوفواران Mme de Warens هذه هى « فرانسواز
لويز دولاتور » Françoise Louise de la Tour ولدت فى عام
١٦٩٩ فى أسرة من طبقة النبلاء وفقدت أمها وهى طفلة فكفلتها

عمتها ٠٠ ثم من بعدها زوجة أبيها ٠٠ وبعد موت أبيها قضت عامين في معهد لوزان Lusanne حيث نالت قسطا من دراسة الموسيقى الى جانب ما كانت تطالعه من كتب من كل نوع وخاصة من كتب في الفلسفة والطب ثم تزوجت من أحد الاشراف وكان يكبرها كثيرا وكان وريثا لاقطاعية فواران Warens وهي تشبه في ظروفها روسو من نواحي كثيرة ٠٠ من حيث النشأة والثقافة ٠٠ بل ان هذه الظروف المتشابهة كاد تفسر التفاهم العميق المتبادل بينهما ٠٠ ولقد كتب عنها في « الاعترافات » صفحات هي من أجمل ما جاء فيها فوصفها يوم وصوله الى أنسى Annecy قائلا « وأخيرا وصلت ورأيت مدام دوفواران رأيت وجهها ينضح رقة وعيوننا جميلة زرقاء تشع حنانا ولونا باهرا. وعنقا ساحرا » ولكن روسو هنا وقد أصبح فيلسوفا ورجلا ناضجا يصف المشاعر الحنون التي استشعرها كل منهما تجاه الآخر ويحدد الأسباب التي جعلت من ذلك اليوم يوما رسم له الحياة جميعا ٠٠٠ ثم يأخذ الحنين الى تلك الايام « الهادئة الحلوة » التي عاشها بالقرب من « أمه » والتي كانت حلوة كذلك حتى قبل أن تمنحه نفسها ٠٠٠ ثم يبين كيف أن عاطفة الأم والحببية معا مكنتاه من تكامل شخصيته فأصبح ما كان يريد أن يكون وكيف أن الحنان المتبادل بينهما ونزاهتهما سويا زادا من ميله للعزلة وللريف وبدا الأهمته كل ما أنتج فيما بعد من أعمال أدبية ٠٠٠ ثم يتعهد قائلا « آه لو انني ملأت قلبها كما كانت تملأ قلبي » ونسى روسو مفامراته النسائية في أسفاره من أنسى Annecy واليها ٠٠ نسى تلك العلاقات الصغيرة المتكررة مع ذلك والتي رواها في « الاعترافات » متغنيا برجولته وكيف أن النساء كن يتقربن منه وكيف أنه كان يجد العزاء دائما في الجنس الآخر ٠٠ ولكن للتعهد كذلك ما يبرره فكثيرا ما عاد روسو من سفره الى مدام دوفواران ليجد انسانا ثالثا يحتل من السيدة مكانه أو يكاد ٠٠٠ وتمضى الايام بالثلاثة وروسو طائع صاغر سواء كان ذلك يرضيه أو لا يرضيه .

ولكن كأنما شاء عقله الباطن أن يسقط من ذكرى تلك العلاقة كل الشوائب التي كانت تعكر صفوها فلم يعد يختزن منها الا ناحية باسمه تبدو على البعد كشعاع فضي ينير له ظلام شيخوخته انه ينبش عن سويغات السعادة التي تناثرث على طول أيامه فيخلق فيها ويعظمها عليها تكون زادا يعينه على احتمال واقعه الاليم .

ولعلنا نظلم الكاتب اذا ما نحن عتبنا عليه تفييره بعض الوقائع والتواريخ فهو أولا وقبل كل شيء لم يكن في حياته مؤرخا وانما نكون

منصفين اذا ما نحن قدرنا حاجته الماسة في شدته كانسان حساس متوتر
الاعصاب يعذبه اضطهاد وظلم يعتقد في صدق أن الانسانية جمعاء
توقعهما به الى أن يلوذ بماضى يضىف عليه دون قصد صورا باسمه
هنيئة ٠٠٠

ومع ذلك فان هاتين الصفحتين تعتبران نشيد عرفان وتقدير لتلك
التي فتحت له بابها وقلبها وعوضته عن حنان الأم وأولته من الرعاية ما لم
ينله تقريبا من انسان آخر طيلة حياته ٠٠ انها تكليل لهذه الصفحات ٠٠
لهاته الأحلام التي جعلنا روسو نحلق معه فيها « كسيمفونية » رائعة
متناسقة تحمل على التأمل في الخالق وتسمو بالروح عن دنيا الشرور .

طباع روس وصاله النفسية في آخر حياته

عاش جان جاك روسو محروما فقيرا شريدا لعبت به أنواء الحياة وتجاذبتة المحن وكان لكل ذلك أعمق الآثار في طباعه وفي حاله النفسية التي صحبته حتى القبر . عاش محروما اذ فقد أمه قبل أن تكتحل عيناه برؤيتها ففقد بذلك حنانا لا يعوض أبدا وفقد أباه اذ اضطر هذا لهجره فانهار بذلك ركن يعتمد عليه الاولاد جميعا حتى يقووا على الوقوف في تيار الحياة واذن فقد عاش تقريبا يتيم الأبوين يحس جوعا وعطشا الى الحنان لم يقدر له منه الا اليسير ولكن بعد حين .

وعاش فقيرا تنقل في شتى الحرف واحترف الخدمة في البيوت فذاق الذل وعرف الجوع وظل بعد ذلك يطرق أبواب الحياة خاوي الوفاض يلتمس لقمته في عناء شديد . وعاش شريدا لم يعرف الاستقرار ولا طعم الاسرة . . . فعاش وجيدا وقضى غريبا . . .

وكان روسو مريضا عرف المرض وكان لم يبلغ الثلاثين بعد وقيل انه مرض غضوى أثر تأثيرا سيئا على نفسيته وكان سببا في عزوفه عن المجتمعات لعجزه عن اطالة مكثه بين الناس .

أسهمت تلك العوامل جميعا في تشكيل طباعه . فكان روسو حساسا مرهف النفس حار العاطفة طيب القلب محسنا خيرا خيالنا حالما خجولا . وكانت له مع ذلك تصرفات تتعارض

مع تلك الميزات فقد كان أيضا مغرورا مسلوب الارادة متقلب الاهواء .
ولا ريب أن تلك الميول ، وتلك النزعات جميعا تظهر جلية واضحة
« أحلام يقظة جوال منعزل » Les Rêveries du Promeneur Solitaire
حيث تبدو نفسه على حقيقتها أصيلة بعيدة عن كل زيف .

فلانه كان حساسا نراه فريسة للانفعالات العنيفة فتبدت له الأمور
اما طيبة جدا واما بالغة السوء . فكان يتنازع الاعجاب الشديد والحنان
الشديد والغضب الشديد جميعا على السواء . كانت الكلمة الرقيقة تدفع
الدموع الى عينيه والنظرة الشريفة تطيش صوابه وتؤله أشد الايلام . .
وكان حار العاطفة عاش أيامه جميعا بقلب شاب متقد الاحاسيس فنراه
يذكر « مدام دوفواران Mme de Warens في آخر « الاحلام » وكأنها هو
شاب فجع حديثا في حبه فهو يزفر زفرة حرى غريبة على شيخ يسير
بخطى حثيثة نحو السبعين .

وكان طيب القلب يميل الى عمل الخير . . كان حين يرتكب الخطا
يظل يؤنب نفسه ويرزح تحت عبء ضميره ولو كان ذلك الخطا يسيرا .
كان يحاسب نفسه حسابا عسيرا ويكشفها بغيوبها أمام الناس . وكأنها
ليؤدبها ويعاقبها عساها تكفر بذلك عما آتت .

كان محسنا متصدقا يعطف على الفقراء ويحب البسطاء من الناس
وينفق برغم ضيق ذات يده ولكنه مع ذلك كان يحب أن يقدم الخير مختارا
طائعا لا يستشعر فيه الزاما ولا اكراها .

ولعل أبرز لمحات شخصيته هي نزعتة الشديدة الى الخيال . . ولعل
عنوان آخر كتاباته « أحلام يقظة جوال منعزل » كان من الممكن أن يكون
عنوانا لجميع مؤلفاته . . لم تكن الحقيقة تكفيه وتشيع رغبته في الحياة
فكان يلجأ الى الحلم عساه يسعده ويبعده عن واقعه الأليم .

ولانه كان خياليا نشد المثالية والكمال وبينما نراه نبيا يدعو الى
الايان والعدل والحق والشرف والمجبة نلمسه أحيانا وقد أتى شيئا يتعارض
مع ما يدعو اليه فيعرض بكتاب مثلا أو يجد مزايا العزلة . أو يسرف
في غروره بنفسه واعتداده بها حتى « ليكون صامدا راسخا كالاله نفسه ،
في بعض الاحيان .

ولعل من دلائل غروره ما كان يردده من أنه « كان يفضل أن يكون

منسيا من الجنس البشرى كله على أن ينظر اليه كما ينظر الى انسان عادى ،
كذلك ما كان من رفضه تلبية دعوة الملك حين أراد أن يكافئه على تأليفه
لأوبرا عراف القرية Le Devin du Village ولا ريب أن هذا الشرف
لا يتأباه الا رجل من طراز خاص .

ذلك الاحساس بطيب عنصره وعظمة نفسه جعله يؤمن بطبيعته ومن
ثم بالطبيعة عموما . . . فجعلها أساسا للدين والسياسة والاجتماع
والاخلاق . . . وأحبها من بعد الله . . .

وكان متدينا ينبع الدين من أعماقه يؤمن « بالرب الأعلى مبدع كل
شئ » وكان يلتقى به فى الطبيعة الرحبية التى ظل عاشقا لها مفضلا اياها
على كل شئ آخر . . .

ولكن كان خروجه من صومعته « الارميتاج L'Ermitage » نديرا
بحالة نفسية تثير الالتفات . بات يعتقد أن هناك عصابة تتآمر على سلامته
وتستهدف تقويض سمعته . . . وفى هذه المرحلة تولد لديه شعور
بالاضطهاد ظل يتفاقم كلما زادت متاعبه وكثرت منغصات الحياة عليه . . .
وأصبح متشككا فى كل حركة وفى كل همسة ويرى فى كل ذلك دلائل
المؤامرة الكبرى . . . وزاد من محنته قرار طرده واحزاق كتبه ورجم بيته
واضطراره الى الهرب من مكان الى آخر خائفا وجلا . خاب أمله فى الناس
جميعا عندما أحس أنه ضحية مجتمع كرس حياته للدفاع عنه وأنه يلقي
أسوأ الجزاء على ما ظنه خيرا قدمه اليهم من عصارة فكره وقلبه أحس
عندئذ عدم جدوى الاتصال بهم فباعده ما بينه وبينهم وعاش منطويا على
نفسه يكتب « اعترافات » و « حوار » وأخيرا « أحلام يقظته » وضع فيها
جميعا ذاته هو وكرسها لدراسة نفسه هو ولعل فى ذلك أبلغ زد على
جحود الناس وانكارهم لفضله . . .

عاش فى عزلته اذن بعد أن اعتبر نفسه شهيدا وضحية وكان يزيد
من آلامه حبه للناس وكراهيته لهم على السواء . فلم يكن روسو يكره
المجتمع فى الواقع كما يشهد هو نفسه الا من أجل ما يتطلبه من أعباء
وواجبات كان يعتقد فى عجزه عن القيام بها . . . وربما زاد من تعقيد
ذلك المرض اللعين الذى ضاق به وجعل الدنيا مظلمة فى وجهه . ولكن عودته
الى باريس فى أواخر أيامه أعادت الى نفسه بعض الرضا حين أدرك أن
شهرته ذاعت فى أوروبا اذ أخذ يتردد على داره الكتاب والأدباء والفنانون
والموسيقيون من فرنسيين وانجليز وروس وايطاليين (١) من المعجبين به

المتحمسين لآرائه ومن ينشيدون عونه فى صياغة الإلحان .

وتنفرد « أحلام اليقظة » بأنها تشير الى مرحلة القلق النفسى التى تجلت فى « الحوار » Les Dialogues وبعده ثم انفثات هنا. لأن فيها لوما وعتابا الى جانب ماتاولته من موضوعات ذلك لأنه يبدو أن روسو يثس من شرور الناس فعالجها بعزلة قلب كان جريا أن يملأ الحب لجيل اعتقد أنه « يلد له أن يؤذه حيا » وهى سلسلة من الشكايات الطويلة التى تراود خياله وتلج على ذهنه حتى ترهقه أحيانا وحتى تدعوه للاستسلام أخيرا ما دام لا يستطيع دفعا لأذى الناس وهو لم يكن لديه برغم ذلك أقى من السكون الذى بدأ يلفه تدريجيا كأنما هو مؤامرة أجيد حبكها من الجيل الجديد تستهدف القضاء عليه .

أكان حقاً مريضاً ؟ أكانت تعاوده « الشيزوفرنيا (الفصام) Schizophrénie فيحس من كل تصرفات من حوله اضطهادا يستهدفون من ورائه أذاه ؟

والشيزوفرنيا كما يعرفها الدكتور منكوفسكى Minkowski (١) اضطراب نفسانى مظهره عدم الانسجام وضعف الترابظ فى التفكير وقد أطلق العالم النفسانى بلوييه Bleuer هذا الاصطلاح على الاضطراب العقلى المبكر الذى يصيب الشاب ثم يأخذ فى التزايد حتى يفقده قواه العقلية .

وقد عمم اصطلاح « شيزوفرنيا » بعد ذلك حتى شمل حالات عديدة منها الـ Autisme وهى الحالة التى يكون فيها انسانا ما خاضعا لتأثير عناصر حياته الداخلية أكثر من خضوعه لتأثير حياته الخارجية ومنها الهلوسة وهى حالة احساس المريض الذى يقوم على أمر وهمى ومنها أفكار الهذيان idées délirantes وهى الاضطراب النفسى الشديد الناشئ عن الانفعالات « الخ

والفكرة الهذيانية عند هذا العالم النفسانى هى عبارة عن فكرة خاطئة غير قابلة للتحويل يتمسك بها المريض ويؤكدها فى اعتقاد جازم برغم وجود عوامل أخرى تدحضها ومجموعة هذه الافكار تكون هذيان المريض وهى تنقسم الى ثلاثة أنواع : أفكار التعالى (مركب العظمة) وأفكار الاضطهاد والافكار السوداء بسبب الحسارة المالية أو الاحتقار أو التجاهل أو الاتهام . . .

Encyclopédie Française, T. VIII, pp. 8—54 — 12. (Article par (1) Eugène Minkowski).

وهذه الافكار كثيرا ما تمتزج بالهلوسة وهي التي تسبب الاضطرابات
فى علاقات من يصاب بها مع بنى جنسه والعالم الخارجى وتبين مدى الفرق
بين المصاب والسليم .

ويمكن أن تترجم الافكار الهذيانة بأعمال خارجية تدل عليها
فالمضطهد على ذلك يتحول الى مضطهد حين ينهض للدفاع عن نفسه بمهاجمة
مضطهده . . وهو هنا يصبح خطرا على المجتمع .

ويختتم أوجين منكوفسكى Eugène Minkowski مقالة بقوله ان المريض
كثيرا ما يكتفى بالتعبير اللفظى عن أفكاره وان كان يكتبها فى نفسه فى
أحيان كثيرة . .

من هذه الاعراض جميعا نكاد نعتقد بأن روسو كان مصابا بهذه
الحالة ولعل العلامة المميزة لهذه الحالة من الاضطراب النفسى هي البساطة
التي كان يضع بها أقرب أصدقائه موضع الشك ولم تسلم كثرتهم من
ذلك ولذا كان أصدقاؤه المقربون يتجددون باستمرار .

ولكن برغم ما كان روسو يعانیه من اضطراب نفسى وذهنى وبرغم
ماعناه كذلك من تقلبات الزمن معه فان ذلك كله لم يؤثر على كتاباته عموما
وبخاصة على « أحلام اليقظة » Les Rêveries التي سجل فيها صفحات
خالدة هي من أجمل ما كتبه كاتب وفنان على السواء .

أهلام اليقظة بين مؤلفات الكاتب الأفرى

لعل أول ما يعرض عند قراءة الاحلام أنها تقدم لمحات عن حياة الكاتب ، على القارىء أن يتقبلها بحذر وبخاصة فيما يتصل بالاجداث البعيدة فى حياته وعلى أية حال فانها تمتاز بما يصحب الواقعة المعينة عند ايرادها من حالة نفسية تكيفها وتؤثر عليها . ومن دراسة الجولات وبعد تحليلها نستطيع أن نلمس صدق التطورات النفسية والذهنية التي كانت نتيجة لحالته العصبية فى السنين الاخيرة من حياته فهو يمر هنا بمرحلة هدوء نسبي يعرض فيها لكثير من النواحي التي جاءت بالحوار وكان فيها تائرا مهتاجا ولعل الروح التي تصطبغ بها الجولات تكشف عن تطلعه الى تحقيق السعادة ومحاولته اقتناعه نفسه بأنه قد حصل عليها أخيرا فعلا . .

والجولات الى جانب ذلك تختلف عن سابق أعماله الأخرى بأن عنصرا جديدا - يضغط عليه كثيرا فيها - هو تبكيت الضمير ومحاولة تبرير مسلكه أمام نفسه أولا وأمام الناس ومن هنا تبدو « أحلام اليقظة » ذات أهمية خاصة .

وأمر آخر يسترعى الانتباه فيها ويميزها هو أنها قد تبدو مفككة فى أعمال ، فى حين أنها فى واقع الأمر مترابطة أشد الترابط أحيانا ومنسقة على الأقل أحيانا أخرى .

ولعل القيمة الأدبية فى « أحلام اليقظة » ترجع الى أننا تلقى صاحبها على طبيعته بغير ما تكلف أو تعقيد . . سواء أكان دافعه الى ذلك يأسه من الناس ومن المجتمع يأسا

لا رجعة فيه بحيث جرد نفسه من كل المظاهر التي يبدو فيها المرء وراء حقيقته أم كان دافعه تعلقه بالطبيعة البعيدة عن التكلف واندماجه فيها بحيث أراد أن يتشبه بها ، أم كان الدافع التقرب الى الله بالعودة الى طبيعة الاطفال . . . الطبيعة الاولى . . . أو طبيعة الانسان الفطري الذي دافع روسو عنه في رسالته الى أكاديمية ديجون . . .

الواقع أن أعمال روسو كلها تعبر عن ذاته فهو لم ينس نفسه أبدا وبخاصة في « الاحلام » التي تبدو وكأنما هي محور تفكيره وتأملاته التي يسبر أغوار نفسه عن طريقها ويصورها ويحلل أحداث ماضيه في اعزاز ويحاول أن يعوض ذاته عن آلامها فيخلق لها جوا تسعد فيه وتنتشى . . . علما خاصا بها خلقت من أجله . . .

وبرغم مايتخلل « الاحلام » من قلق تنبئ عنه وتردده بعض العناصر الادبية التي جاءت في مؤلفاته السابقة . الا أن المرء يحس فيها بنشوة تكاد تغير من شخصية صاحبها وتجعله أقرب الى أن يكون شرقيا متصوفا (1) ونحن نرى بذلك أنفسنا حيال انسان وشاعر جديدين . . . والانسان هنا ذكي جذاب بفضل ذكائه . . . كان النقد والهوى والهذيان تززع جميعا من قبل ثقته أما هنا فلا أثر لذلك كله .

وفي الجولات الاربع الاولى - كما في الجولة السادسة - تحليلات جديدة بكاتب كلاسيكي . وانا لنجد في هذه « الاحلام » وقد تحرر من عالم كان يشجع نواحي الضعف فيه ثم ينحو عليه باللائمة فيبدو ببراءته التي فطر عليها وبحسه المرهف وبعاطفته الجياشة وبحبه للاطفال والفلاحين ومشوهي الحرب والبسطاء من الناس . وهو في الجولتين السادسة والتاسعة يبدو الى جانب ذلك - مثلهم - مرحا طاهرا مبرأ ألقى عن كاهله زيف الحضارة المصطنعة وعاد الى الطبيعة التي خلقت منه انسانا بكل ما في الانسانية من سمو ورقة والجولتان اللتان خصصهما لاقامته في جزيرة سان بيير Saint-Pierre (الخامسة) وميله للاستعشاب (السابعة) يبدو فيهما بوضوح تأثير العالم الخارجي عليه . . . وكان كمال الطبيعة يؤكد لهذا المؤمن أن الاله الخالق الذي أبدع هذا الكون الرائع لا يزال يسهر عليه ولا يفتأ يجمله . والطبيعة عنده حية مثل روحه التي تحركها وتتفاعل معها ومن هنا تبدو اصالة « أحلام اليقظة » .

(1) م . ريمون يذكر هذا التشابه بين روح روسو وروح المسلمين وهو ما ذكره

روسو نفسه في «حواره» .

Jenri Roddier : Les Rêveries du Promeneur Solitaire, p. LXXXII.

ذلك لانه لأول مرة تلعب الطبيعة الدور الرئيسى فى مؤلف من مؤلفاته أو تلعب الدور الايجابى المباشر ، فهى ذات لها أحكامها و ارادتها ووسائل اغرائها التى تمارسها على المخلوق الوحيد الذى يفهما ٠٠ وقد لقى فيها روسو سلوته البريئة وعزاه وامتعتة التى تلائم طبيعته وأهدافه، وهكذا تحققت لروسو فى آخر أيام العمر أعز أمانيه ٠٠٠ كان المزاج المسيطر عليه هو الاعتزال فى الريف على أن يخالطه التجوال وتلحق به الاخيلة والاحلام . وهو يعلن فى سرور أنه « لم يفكر ولم يحس بكيانه ولم يدرك طعما لحياته ولم يعرف ذاته الا فى هذه الجولات التى تنقل فيها على قدميه فهو يقول « ان السير نحو شيء ما يحيى أفكارى ويشحذها واننى لا أكاد أقوى على التفكير حتى يستقر بى المقام فى مكان ما ٠٠ يجب على جسدى أن ينتفض حتى يحتوى روحى ويستوعبها »

كان الله قد رزقه بالتفكير الحالم فى الطبيعة ، نشوة أنعشت روحه ورققت من مزاجه فغدا لا يحس بوحدته برغم انفراده لانه كان يعيش مع ذاته وكانت الطبيعة تتجسد أمامه فغدا صفى أحلامه وخذن أخيلته ورفيق ذاته ثم مصدر مشاعره الداخلية ٠٠ واحساساته الباطنة وعقائده ووساطة اتصالاته باللانهاية ثم خضوعه واذعانه للارادة الالهية فى نهاية الامر .

لقد كان روسو موسيقيا أو هو على الاقل اشتغل بالموسيقى وألف فيها وكانت هوايته نسخها حتى آخر أيامه والموسيقى هى أحسن ما يترجم خلجات النفس وخواطرها فلا عجب أن جاءت الاحلام على هذه الصورة « سيمفونية » رائعة . صدق « جوته Goethe » اذ شبهها بسيمفونيات « بيتهوفن Beethoven »

وإذا كانت الاعترافات Les Confessions سردا لكافة الاحداث التى تخللت حياة الكاتب و « الحوار Les Dialogues » دفاعا نائرا مضطربا عما اتهمه أو خيل اليه أن الناس اتهموه به فان « أحلام اليقظة » Les Rêveries تمتاز عن الاولى بالتحليلات النفسية العميقة وعن الثانية بكثير من الاتزان والتعقل وهدوء الخاطر نتيجة رضوخه للقدر واذعانه لمشيئة الله .

وأحلام اليقظة كذلك نافذة نطل عبرها على القرن الثامن عشر بفلاسفته وأحداثه وعاداته ٠٠ الى تلك الحقبة من الزمان التى أنجبت مفكرين وأدباء عظام قد يكون كاتب هذه الاحلام أشهرهم وأقواهم تأثيرا فى الاجيال التالية .

أصالتها وأثرها الأدبي

ان القارىء لـ « أحلام يقظة جوال ممغزل » يدرك على التو أنها ابنة القرن الثامن عشر والابنة الصغرى لكاتب عظيم من ذلك القرن نفسه هو جان جاك روسو .

لقد قيل (١) : « ان روسو في فرنسا هو الداعى الى ثورة مزدوجة : احداها ثورة ١٧٨٩ في مجال الاحداث ، والآخرى الرومانتيكية Le Romantisme في المجال الفكرى »

أما هنا فنحن لا تهمننا الا الثورة الثانية اذ أن الاولى (ثورة ٨٩) لا تهمننا هنا بقدر ما تهتم الباحث فى السياسة والآراء السياسية .

فيم كانت تلك الثورة ؟

فى عصر أكثر ما يميزه أنه عصر الفلسفة ، كثر فيه المفكرون والباحثون والعلماء الذين يبنون أفكارهم وآراءهم على أسس وقواعد ومذاهب أساسها العقل والمنطق ، جاء جان جاك روسو ليرفع راية العصيان فى وجه هؤلاء جميعا وليناصرهم العبداء ولينفر من طريقة تفكيرهم وليقول لهم أخيرا « انكم منافقون ، فلسفتكم زائفة وآراؤكم عقيمة لا جدوى منها » ولا عجب فقد آمن روسو بالعاطفة قبل العقل وبالاحساس قبل الفكرة فكان ذلك الدين الذى سسار على هديه وتعاليمه

طيلة حياته • فبينما كانوا يفكرون كان هو يحس ويستمتع ويتألم (١)
وبينما كان غيره يصلون عن طريق التحليل الى فكرة الاحساس كان
هو قد وصل الى حقيقة الاحساس عن طريق طبيعته ، كانوا يناقشون
اما هو فكان يحيا •• ومن هنا تدفقت كل أعماله الادبية ، حتى كان آخرها
« أحلام اليقظة جوال من منزل » •

اذن فقد كانت لهم فلسفتهم أما هو فكانت له فلسفة خاصة به
وحده هي فلسفة القلب ان صح هذا القول •• لانها صادرة عن القلب ••
وكانت هلويز الجديدة La Nouvelle Héloïse هي النبع الذي تدفق منه
سيل الحساسية والعاشقة ••

كان للعاطفة في الإعمال الادبية قبل روسو نصيبها فهي احدى
الصور المشروعة في الحياة لكنها ليست أهم ما في الحياة أو على الاقل هي
ليست الرائد الوحيد للمرء فيها •• وقد كانت حين تدهم الروح وتسيطر
عليها حدثا هو موضوع لرواية أو مسرحية فحسب دون أن تكون هدفا
ومثلا أعلى أما بالنسبة لروسو فعلى العكس من ذلك كانت العاطفة هي
العنصر العامل الوحيد في الروح بل ان قيمة الحياة في نظره مستمدة من
مبلغ نصيب تلك العاطفة فيها ••

ونحن اذا تأملنا حياة روسو نفسها وجدنا أنه حقق بها حياة بطل
رومانتيكى بكل ما في تلك الحياة من عدم تجانس وفوضى وهروب دائم
من المجتمع ومشاعر متقدة وأحزان •• فقد كان لروسو حظ الحياة بعيدا
عن المجتمع حتى ناهز الاربعين واذن فقد عاش حياة ابن الطبيعة وحياة
الانسان الفطرى الذى لا يفقه من أصول الوجود في المجتمع شيئا قبل أن
يكتب عن تلك الحياة وقبل أن يصفها في مؤلفاته •

وكان يحس وهو يكتب « الاعترافات » و « أحلام اليقظة » أن روحه تنطوى
على تألم لا يدرك كنهه وأن في قلبه فراغا لا يمكن أن يمتلئ •• فكانت
العاطفة تسير مع الألم جنبا الى جنب والنفوس الحساسة يبعث تألمها القلق
والاضطراب مما سمي بسأم القرن Le Mal du Siècle وهو من أكبر
خصائص العصر الرومانتيكى • هذا ولو أن الاعترافات Les Confessions
وأحلام اليقظة Les Réveries لم تكونا وحدهما مبعث ذلك السأم والكتابة
لان قراء القرن الثامن عشر لم يعرفوهما الا في عامى ١٧٨١ و ١٧٩٠ • اذ
انه لم يتم نشر هذين المؤلفين الا بعد وفاة الكاتب - ولكن كان مبعثه

رواية « هلويز الجديدة La Nouvelle Héloïse ، التي كان يتخاطفها الناس يقضون ليال بأسرها يقرأونها ويؤجرونها أحيانا ويبكون مع روسو » وينتشون بلذة الاحساس (١) .

والخيال لدى روسو يساند الاحساس ويذكيه انه كذلك يسلمه الى أحلام يخلق فيها مع « كائنات من خلقه » وفي « عالم خاص به لانه من صنعه » عالم يسعد به وينسيه شرور الحياة الدنيا ولذلك كانت أعمال روسو الادبية جميعا محورها الخيال والمثالية ، فتخيل مجتمعا سعيدا صحيحا ، وتخيل تربية مثالية لم يعرفها ولم يمارسها بنفسه ، وتخيل طريقة جديدة لوضع الموسيقى ، وتخيل حبا طاهرا سماويا حظ البشر منه قليل نادر ، وتخيل نفسه يحاكم شخصا آخر لم يكن سوى روسو نفسه ، وأخيرا ، وليس أدل على قوة ذلك الخيال الذي عاش روسو به وفيه طيلة حياته من العنوان الحالم الذي شاءه لآخر كتاباته أو بالأصح لآخر خيالاته وهو « أحلام يقظة جوال منزول » .

واذن فقد كان روسو شاعرا ، وما هو الشعر ان لم يكن احساسا دافقا وخيالا متقدنا رحيبا ؟ كان شاعرا في عصر أحل الفكرة المنطقية الجافة محل انتفاضات العاطفة والقلب .

وناهيك اذا ما امتزج ذلك الاحساس وذلك الخيال بحب للطبيعة عظيم وتمجيد لما أبدع الخالق ليس له نظير . لقد أحب روسو الطبيعة فصورها في اطار جديد أجمل تصويرين . أحبها كما يحبها انسان وفنان وحالم ومتعبد وعاشق فاستحق بذلك أن يكون « أكبر مصور للطبيعة عرفته فرنسا حتى آخر القرن الثامن عشر (٢) » . حقا انه لم يكن للطبيعة في الادب الفرنسي من قبل مكانة كبيرة ذلك لان الادب الفرنسي عامة هو ادب قوم يعيشون في المدن أى أن هؤلاء القوم كانوا يفضلون متع المجتمع على مفاتن الطبيعة (٣) كان الناس يقدمون على السفر مكرهين وكانت الطبيعة الحلوة في نظرهم هي فصل الربيع وحده ذلك لان القرن السابع عشر أورث الثامن عشر النفور من الريف اذ كانت باريس تزخر بالمسارح تمثل عليها المسرحيات الجديدة ، وبمقاهيها الشهيرة حيث يتواعد الادباء والكتاب ، وبصالوناتها . . . يجتمع بها عليه القوم يلهون ويتناقشون ، حتى جاء روسو ليصيح فيهم أن عودوا الى الطبيعة وليصفها لنا في صفحات بديدة خالدة من أجملها وصفه لجزيرة سان بيير Saint-Pierre وسط بحيرة بينين Lac de Bienné في الجولة الخامسة من « أحلام اليقظة » .

D. Mornet : La Pensée Française au XVIIIème siècle, p. 140. (١)

Louis Ducros : J.J. Rousseau, p. 57.

(٢) ، (٣)

وكان روسو فريدا في تفكيره ولم يكن يحب أن يقلد أحدا من السابقين فهو حين كان يريد مثلا أن يكتب في التربية استلهمها من خواطره الخاصة وكذلك إذا ما أراد أن يصف مشهدا طبيعيا لا يلجأ الى الكتب ولا يستعير الطُور من غيره كما كان يفعل بعض معاصريه من الأدباء ولكن كان يكفيه أن تعود به الذكرى الى حيث عاش بين ربوع الطبيعة سواء كان ذلك في بوسى Bossey أو في الشارميت Les Charmettes أو في الارميتاج L'Ermitage وهكذا كانت صورته صادقة تزخر بالحياة لانه لم يسافر في عربة لاهيا يعمل طول الطريق كما كان يسافر الناس في ذلك الوقت لكنه كان يرتحل ضاربا على قدميه متأملا منتشيا بالطبيعة وسحرها الذي ينعش روحه يمتزج بها ويسعدها ويرتفع بها الى الله مبدع ذلك كله . .

والطبيعة التي تستغرق روسو هي الطبيعة الكبرى التي لم يفسدها الانسان بتعديله وتنظيمه كشواطئ بحيرة بين Bienne مثلا وهو في ذلك يختلف عن معاصريه في حبه للحدائق الانجليزية المنظمة .

ولانه فريد أيضا ، فانه كتب « الاعترافات » وكتب « الحوار » وكتب : « أحلام يقظة جوال منعزل » وضع فيها ذاته وكشف فيها عما تكنه من احساس ومشاعر مبينا عيوبه قبل فضائله ولم يحدث من قبله أن كتب كاتب بمثل صراحته وجرأته . . لم يحدث من قبل أن سطرت اعترافات بهذا الصدق وتلك الشجاعة ولم يحدث أن قام حوار بتلك الثورة ولا ذلك الازدواج الفريد في الشخصية كما لم تكن أخيرا « أحلام اليقظة » نوعا أدبيا متعارفا عليه محدد المعالم .

لقد كتب في مستهل « الاعترافات » Les Confessions : « انى أكون مشروعا لم يكن له من قبل نظير ولن يكون له مقلد » ، والواقع أنه فريد لم يقلد لا عند كتابة « تلك المؤلفات الاخيرة فحسب » بل في كل أعماله الادبية على الاطلاق وذلك شأن من ينهج نهجا يمليه عليه قلبه وحده ويستمد من ذاته وحدها .

ولئن كان روسو فريدا أيضا بين كتاب عصره فبأسلوبه البديع وجملته الموسيقية الجذابة وتعبيراته القوية وبلاغته ومنطقه (لان البلاغة والمنطق لا يصدران عن العقل وحده لكن عن القلب والشعور قبل العقل) لذلك قدر له أن يفرض جل آرائه على التفكير الانساني وعلى القلب الانساني وما صدر عن القلب حل في القلب كما يقال ، بل انه كثيرا ما يكون القلب اكثر اقناعا من العقل . ولم يكن ينقص أسلوبه في « أحلام يقظة جوال منعزل » Les Réveries du Promeneur Solitaire سوى بعض قوافي الشعر

وأوزانه لتكون شعرا خالصا ، بل ان كثيرا من جله لو انها نظمت كما ينظم الشعر لكانت قصيدا بارعا ليس له نظير وهذه الطريقة فى الكتابة هى التى جعلت من روسو ٠٠ ان صح القول : « أعظم شاعر فى القرن الثامن عشر » كما انه ، عنها : يتعرف الانسان على روسو وشخصيته ونفسيته .

ولئن كان روسو لم يترك أولادا فقد خلف وراءه بنات أفكاره وأبناء عبقريته وهؤلاء هم الذين خلدوا ذكره عبر السنين فكان له فى حياته ومن بعده دائما معجبون ومتحمسون لافى فرنسا فحسب بل فى ألمانيا وانجلترا وغيرها من البلاد حيثما رق الاحساس وشفقت الروح وظهرت الرغبة فى الهروب من مادية بغيضة كريهة هى وليدة الحضارة الزائفة .

ومن أكثر الكتاب الفرنسيين تأثرا بروسو وكتاباته « برناردين دو سان بيير Bernardin de Saint-Pierre » الذى كان صديقا حميما لروسو فى أواخر العمر فصاحبه فى جولات كثيرة كانا أثناءها يتحدثان ويجمعان الزهور والاعشاب ثم مات روسو فترك فى قلب صديقه ذكرى عزيزة جعلته يكتب « حياة ومؤلفات جان جاك روسو »
La Vie et les Ouvrages de J.J. Rousseau وكذلك شاتوبريان Chateaubriand الذى يطلق عليه « أب الرومانتيكية » باعتبار روسو الاب الأكبر لها ثم مدام دوستايل Madame de Staël التى كتبت عنه تقول « لقد كان الخيال أولى ملكاته بل كان يطغى على ملكاته الأخرى ، كان يحلم أكثر مما يحيا وكانت أحداث حياته تدور فى رأسه أكثر مما تدور خارجها وعندما كان يرى بين الناس كان حب المرء له يقل ، ولكن عندما كان يرى مرة أخرى مع الطبيعة فان كل اختلاجات نفسه تجد صداها فى قلوبنا وتسمو فصاحته بمشاعر أرواحنا (١) » .

وكانت الكاتبة الكبيرة جورج صاند George Sand كذلك الابنة الروحية (٢) لروسو فقالت عنه «انى مخلصه له دائما كما لو كان أباً أنجبني لقد أورتني كما أورت كل الفنانين المعاصرين لى حب الطبيعة » كما انها - كتلميذة محبة لروسو - كثيرا ماتمنت أن تكون مدام دو فوران أخرى (٣) .

ومن تأثروا بروسو الى حد كبير أيضا الكاتب سيجانكور Sénancour اذ يقول على لسان بطل كتابه «الدومين Aldomen» : انج أعود فى قراءتى دائما الى جان جاك روسو والى برناردين دو سان بيير وأدرس الطبيعة

Madame de Staël : Lettre sur les écrits de J.J. Rousseau. (1)

Docteur Dorrya Fahmy : George Sand : Auteur dramatique, (٢) ، (٣) pp. 358,861.

والانسانية مع الرجل الذى يعرفه عصره اقل مما يجب (١) وغيرهم كثيرون
كان روسو لهم رائدا وملهما . .

وبعد . . فما أروع أن يصل المرء بجهد وحده دون معلم سوى
الزمن وبلا هاد سوى فكره وقلبه !!! . . نقول : « ما أروع أن يصل الى
مراتب الخالدين !!! » ، ان النفوس القوية لا تستطيع أن تخضع أموراً
كبيرة لمشيئتها وتخضع الكون لفكرتها وتختار فى حرية من الاماكن والعصور
ما يتفق وطبيعتها .

ولئن كان روسو سياسياً بارعاً ومصالحاً اجتماعياً كبيراً ومريئاً مثالياً
فرض آراءه ومبادئه على الفكر الانسانى فتأثر به . . فان الافكار تهرم
وتشيخ ثم تموت طالت حياتها أم قصرت ودليلنا على ذلك تلك المدنية
المتطورة ، المتغيرة أبداً ، فلنلتفت اذن الى ماهو باق ، الى ماهو خالد ، الى
ماسوف تعجب به الاجيال القادمة مثلما نعجب نحن به . . الى ذلك النبع
الغزير من البلاغة والنهر الفيض من الاحساس الرقيق ، الى ذلك النشيد
الحالم الذى لن يطويه الزمان « أحلام اليقظة » نتاج شيخوخة أحاطت بها
الموسيقى فترنمت بالعزلة وتغنت بالطبيعة فى قصيد هو زهرتها وثمرتها .
« حين أريد إقامة تمثال لـ « يوليوس الثانى » أراد ميخائيل أنجلو أن يزوده
بمفاتيح القديس بطرس فصاح البابا « لا . . بل بسيف » .

أما أنت يا جان جاك فاذا وضعنا العقد الاجتماعى أو أميل بين يديك
لقلت : « لا . . ليس كتباً . . بل باقة من الزنايق » .

مسيكين روسو ! لننظر اليه في صميم نفسه خلال
كتاباته وفي دخائل افكاره في كل مايند عنه من تناقض
ومن صلق • فلو اننا اردنا ••• في سبيل الحكم عليه
••• أن نستمسك بفحصه على ضوء ما تجمع لتعاليمه
من آثار وما نجم عنها من منازعات لاحصر لها لما التقينا
به أمرا كما كان تماما •• فلننظر اليه عن كثب كمن
كان يقابله في شارع بالترير فما تزال هذه هي الوسيلة
التي تتيح لنا أن نكون عنه فكرة دقيقة عادلة •

سانت - بوف

Sainte-Beuve

(Causeries du Lundi)

الجولة الأولى

هأنذا وحيد في الدنيا ، لم يعد لى من أخ أو قريب أو صديق أو صحبة سوى ذاتى . ان اكثر الناس ميلا للمجتمع وأكثرهم حبا للناس قد اتفقوا جميعا على نبذه منها ، ولقد بحثوا - وهم يشحنون كراهيتهم عن الم يستطيع أن يكون أشد قسوة على نفسى المرهفة الحس ، فحطموا فى عنف كل وشيجة كانت تربطنى بهم . لقد كان من الممكن أن احب الناس بالرغم منهم ، ولكنهم لم يستطيعوا ان ينسلوا من محبتى هذه الا حين كفوا عن أن يكونوا بشرا . فلا غرو أن أصبحوا جميعا قرياء مجهولين ثم نكرات بالنسبة لى ماداموا قد أرادوا ذلك لانفسهم . أما انا وقد اعتزلتهم جميعا واعتزلت كل شىء ، فاننى اتساءل ماذا عسائ أن اكون لا ذلك هو السؤال الذى بقى على أن أبحث عن اجابة عنه . ولكن هذا البحث يجب أن يسبقه لسوء الحظ القاء نظرة على موقفى وهذه فكرة أرى لزاما على أن امر بها كى ينتقل الحديث عنهم الى .

منذ أكثر من خمسة عشر عاما (1) وأنا فى هذا الموقف الشاذ الذى لايزال يبدو لى كأنما هو حلم ، وأخال نفسى دائما كأنما يعذبنى عسر هضم ، أو كأنما استسلم لنوم مضطرب وانتنى أوشك أن أستيقظ وقد زال منى الألم أو كاد لأرانى بين أصدقائى . أجل مما لا شك فيه أننى وثبت وثبة سريعة ، دون أن انتبه الى ذلك ، من اليقظة الى النوم

(1) صدر قرار من برلمان باريس فى ٩ يونيه ١٧٦٢ بحرق كتاب « اميل » Emile بعد أقل من عشرين يوما من خروجه من المطبعة فى هولنده . وعلى اثر ذلك اضطر روسو الى الهرب الى سويسرا حين علم أن امرا صدر بالقبض عليه ، فلجا الى مدينة ايفدون Verdun وسرعان ما اصدر برلمان جنيف ثم برن على التوالى قرارهما بادانة كتابى اميل والمعد الاجتماعى فاضطر أخيرا الى أن يلجا الى قرية موتيه ترافير Motiers-Travers بالقرب من نيوشاتل Neuchâtel الخاضعة لسلطان فردريك الثانى ملك بروسيا .

أو بالأحرى من الحياة إلى الموت . ولست أدري بعد أن انتزعت من بين مجرى الأحداث كيف وجدت نفسى أهوى في عماء لا يدرك كنهه حيث لا أتبين شيئا على الإطلاق ، وكلما أمعنت الفكر في موقفى الراهن قلت قدرتى على ادراك مكاني .

وانى كان لى أن أتكهن بالمصير الذى كان ينتظرنى ؟ وأنى لى أن أدرك اليوم منه شيئا وقد اسلمت له قيادى ؟ أفكنت أستطيع باحساسى الفطرى أن افترض اننى فى يوم من الأيام أنا الرجل نفسه الذى كنته والرجل نفسه الذى لا أزال أكونه ؟! سيعدوننى بل سيعتبروننى من غير أدنى شك وحشا ، وسما زعافا وسفاكا ، واننى سأصبح موضع اشمئزاز الناس والأعوبة فى ايدى الرعاع ، وأن كل تحايا المارة ستكون بصاقا على ، وان جيلا بأسره سيستمع بدفنى حيا (١) . وحين تم ذلك التحول العجيب اضطربت فى بادىء الامر اذ أخذت على غرة ، وألقى بى اضطرابى وحنقى فى هذيان لم تكن عشر سنوات بالكثيرة عليه حتى يهدأ (٢) ، وخلال هذه المرحلة وأنا أقع فى هفوة بعد هفوة وخطأ بعد خطأ وحماسة بعد حماسة ، زودت - بعدم تبصرى - أولئك الذين يملكون زمام مضرى بما يكفى من أدوات استخدموها فى مهارة لتحديد هذا المصير تحديدا قاطعا .

لقد جهدت طويلا فى أن اتخلص فى عنف من سلطانهم - بغير جدوى مع ذلك - . ولقد أعوزتنى المهارة والحيلة والقدرة على المصانعة والحرص . كنت صريحا ، سليم الطوية ، قلقا نائرا ، ولكننى حين كنت أحاول الفكاك كنت أزيد من القيود التى تكبلنى ، وكنت أيسر لهم باستمرار أن ينالوا منى فى نواحي الضعف التى لم يتوانوا عن استقلالها .

وحين أدركت فى نهاية الامر عدم جدوى ما أبذل من جهود وأننى أعذب نفسى بغير طائل سالت السبيل الوحيدة التى لم يكن هناك مفر من سلوكها وهى الرضوخ لما كتب لى والكف عن معاندة الأقدار ، ووجدت فى هذا الاستسلام تعويضا عن كل ما نالنى من أذى وذلك بفضل ما

(١) جاء فى «الحوار الاول» [erdiaïogue] المنشور فى: Oeuvres. Hachette. it IX. 156 « لقد جعلوا من هذا الشمس العوبة للامة وسخرية للرعاى وموضعا لاشمئزاز الناس . انهم يحرمونى من كل مجتمع انسانى ويكفون انقاسه فى الوحل ، ويستمتعون بدفته حيا .

(٢) بنوه روسو هنا بمخاضه للفيلسوف الانجليزى دافيد هيوم David Hume وبالشهور الاخيرة لاقامته بانجلترا .

أسبغ على هذا الاستسلام من سكينه لم تكن لتتفق والاستمرار في
المقاومة المضنية العقيمة

وهناك أمر آخر أسهم في هذه السكينه ذلك أن أولئك الذين كانوا
يضطهدوننى اغفلوا وهم يشحدون بغضهم أمرا أنساهم اياه حقدهم .
ولقد استطاعوا عن طريق المضى فى تلك السبيل تدريجيا ابقائى معذبا
ثم تجديد الامى عن طريق مداومة نيلهم منى - ولو أنه كان لديهم من
الحصافة ما يجعلهم يتركون لى شعاع أمل لبقيت حتى الآن تحت
سلطانهم . لقد كانوا يستطيعون كذلك أن يجعلوا منى العوبة عن طريق
وهم زائف ، ثم يعاودون ايلامى من جديد نتيجة خيبة آمالى المرتقبة ،
ولكنهم كانوا قد استنفدوا كل حيلهم . وهكذا كان فى تجريدهم لى
من كل شىء حرمان لهم من كل شىء ، ولم يعد ما رمونى به من افتراء
وكآبة وعار مما يحتمل زيادة أو تلطيفا حتى نال العجز منا جميعا ،
فأصبحوا هم عاجزين عن أن يتمادوا وأصبحت أنا غير قادر على الخلاص .
ولقد امعنوا فى تجريعى كأس البؤس حتى الثمالة حتى لم تعد قوى
البشر مجتمعة تساندها أساليب جهنم لتستطيع أن تضيف اليها
شيئا ، بل أن العذاب الجثمانى نفسه كان كفيلا بأن يلهينى عن الاحساس
بالامى ، بدلا من أن يزيدا ، فبانتزاع صراخى كان حريا أن يجنبنى الانين
كما كان تمزيق جسدى حريا أن يحول دون تقطيع نياط قلبى .

وبعد ، فماذا أخشاه منهم وقد انتهى كل شىء ؟ انه لم يعد
فى طاقتهم أن يثيروا مخاوفى لانهم لم يعودوا قادرين على الاساءة الى
أكثر مما فعلوا . لقد جردونى نهائيا من القلق والخوف ، وفى هذا راحة
لنفسى على أية حال . ان الآلام الحقيقية لا تنال منى الا قليلا ، وانى
لاتقلب فى سر على ما أستشعره وليس على ما أتوجسه منها ، ذلك
لان خيالى الجامح يربط فيما بينها ويجدها ويوسع فى مداها ويزيد
منها ، بل ان ترقبى لها يعذبنى مائة مرة أكثر من وقوعها ، فوقوع البلاء
خير من توقعه - ذلك أن المصائب اذا ما حلت فقدت هالة الخيال
التي تحيط بها حتى تكشف عن صورتها الفعلية وعندئذ أراها أتفه بكثير
ما كنت أتخيلها بل انه لايعوزنى الاحساس بالراحة وأنا مغرق فى الامى .

أما وقد تحررت من كل المخاوف الجديدة ، و تخلصت من القلق
الذى يساور الامل ، أحس أن اعتيادى ذلك كفيلا بأن يجعلنى يوما
بعد يوم أكثر قدرة على احتمال موقف لا يمكن أن يزيد سوءا ، وكلما
أزداد ارهاف احساسى بمرور الزمن لم تعد أمامهم وسيلة لاشغال

جذوته . هذا هو المعروف الذى اسداه الى مضطهدى حين استنفدوا الى ابعد حد ما فى جمعيتهم من سهام بغض ، وهكذا جردوا انفسهم من سلطانهم على وغدوت أنا بدورى أسخر منهم .

لم يكد يمضى شهران منذ نعم قلبي بسكينة مطلقة ، ذلك لاننى منذ امد طويل لم أعد أخشى شيئا وان كنت مع ذلك يملأنى الامل ، ذلك الامل الذى كان يدنو منى مرة ويبتعد أخرى ظل هدفا لم تال آلاف العواطف المختلفة تستثيرنى من أجله ، ولكن أمرا محزنا (١) وغير متوقع محا من قلبي هذا الشجاع الضئيل من الامل ، وكشف لناظرى عن مصيرى وقد تحدد نهائيا والى الأبد فى هذه الدنيا . وعند هذه اللحظة رضخت بغير تحفظ حتى وجدت السكينة من جديد .

وما أن بدأت أتبين المؤامرة فى أوسع نطاق لها ، حتى تخليت تماما عن فكرة استمالة الناس الى صفى مادمت حيا ، وحتى ذلك الامر الذى لم يعد من الممكن أن أبادلهم اياه سيفقدو منذ الآن عديم الجدوى ، ذلك لأن أولئك الناس مهما جهدوا فى الرجوع الى فانهم سوف لا يجدون فى ما ينشدون ، كما أنهم باثارتهم احتقارى اياهم تصبح صلتى بهم لا معنى لها ، بل انها تغدو عبئا ثقيلا . وانى لاحس اننى أسعد حالا مائة مرة فى وجدتى منى وأنا معهم . لقد انتزعوا من قلبي كل احساس بحلو المعاشرة الذى صار من العسير أن ينبعث من جديد فى سننى هذه فقد بات ذلك متأخرا جدا فليحسنوا أو يسيئوا الى بعد اليوم فسوف لا يعينى منهم ذلك ومهما فعلوا فلن يكون لمعاصرى من شأن لدى ابدا .

ومع ذلك فاننى كنت أعول على المستقبل ، وكنت آمل فى جيل أفضل يستطيع أن يتفحص الامور خيرا منهم ويصدر حكمه فى صالحى ، ويستطيع بمسائرتى أن يتبين زيف قاداته حتى يشهدنى على حقيقتى - ان ذلك الامل هو الذى دفعنى الى أن أسطر «حوارى» (٢) Dialogues بل هو الذى أوحى الى بأن أقوم بألف محاولة جنونية لاقدمها للاجيال الصاعدة - ان ذلك الامل - وان كان بعيدا - هو الذى جعل روحى تستشعر الاضطراب نفسه الذى كان ينتابها حين كنت أبحث خلال القرن

(١) من المصروف انه حاول دون أن يوفق ابداع مخطوط الحوار Ies Dialogues

كنيسة نوردام Notre-Dime فى ٢٤ من فبراير ١٧٧٦ .

(٢) روسو يجاكم جان جاك Rousseau Juge de Jean-Jacques ثلاث قطع من الحوار

كبتنا فيما بين ١٧٧٢ ، ١٧٧٦ وقام بنشرها دى بيرو Du Peyrou فى ١٧٨٦ .

من قلب عادل - أما أمانى التى حاولت عبثا التطويح بها فقد جعلت منى
كذلك موضع سخريه معاصرى .

ولقد ذكرت فى «حوارى» الاساس الذى أقيمت عليه ترقبى ولكننى
كنت مخطئا ، وادركت ذلك لحسن الحظ فى وقت مناسب لاجد -
قبل أن تحل ساعتى - فترة هدوء شامل وراحة مطلقة . وقد بدأت
هذه الفترة فى المرحلة التى أتحدث عنها ، وأحسب أنها لن يعترضها
شئ بعد الآن .

وما كادت تمر الايام قليلة حتى أكدت لى خواطر جديدة مقدار
خطئى حين اعتمدت على عودة الناس ولو فى زمن آخر ما داموا - على
الاقبل فيما يتصل بى - ينساقون وراء مرشدين يتجددون باستمرار
فى الهيئات نفسها التى أمعنت فى النفور منى . ان الافراد يموتون ، وأما
الجماعات فلا تموت أبدا . ان المشاعر نفسها تخلد فيها كما أن حقدنها
المتقد ، الخالد كالشيطان الذى يوحى به ، فيظل له دائما الإستعمار نفسه
وحين يموت كل أعدائى من الافراد ، سيكون الأطباء والوعاظ على قيد
الحياة ، وحين لا يبقى من بين مضطهدى سوى هاتين الطائفتين فيجب
أن أكون على يقين من أنهم لن يكونوا بعد موتى أكثر رحمة بذكرائى مما
كانوا خلال حياتى .

ان الأطباء الذين أسأت اليهم فى الواقع قد تهدأ تأثيرهم بمرور
الزمن ، ولكن الوعاظ الذين كنت أحبهم وأقدرهم والذين كنت أودعهم
ثقتى المطلقة والذين لم أسئ اليهم أبدا . ان الوعاظ رجال الكنيسة
انضاف رجال الدين سيظلون دائما متعنتين لان جورهم جعل منى
مجرما فى نظرهم ، وهو أمر لن تغتفره لى كرامتهم أبدا ولكن الجماهير
الذين يوالون اشعال جذوة حقدهم ضدى باستمرار لن تهدأ تأثيرهم
كذلك .

لقد انتهى كل شئ بالنسبة لى فى هذه الدنيا ، ولن يستطيع
أحد بعد أن يفعل بى خيرا أو شرا . لم يعد أمامى ما أمل فيه أو ما
أخشاه فى هذه الدنيا ، وهأنذا مستكين فى قرار الهاوية بشرا فانبا
منكودا ولكن صامدا كالاله نفسه .

اننى سأعد منذ الآن كل مالا يتعلق بى غريبا عنى فليس لى بعد
فى هذا العالم من قريب أو أقران أو اخوة - فأنا على الارض كما لو
كنت فى كوكب غريب وسقطت عليه من كوكب كنت أعيش فيه ، ولئن

تعرفت من حصولي على شيء فانما اتعرف على المحزن الممزق لقلبي من الامور ، ولست أستطيع ان يقع ناظري على ما يؤثر في وما يحيط بي دون أن أجد فيه دائما موصعا لزرارية تثيرني ، أو لالم يمضني .
فلأجرد ذهني من كل ما يؤله مما قد يشغلني في أنسى وغير طائل على السواء - وما دمت ساظل وحيدا بقية أيام حياتي حيث لا أجد السلوى والامل والسلام في غير ذاتي فلست أريد ولا يجب على أن أهتم إلا بها .

وفي حالتى هذه سأتابع من جديد الفحص العسير الصادق الذى أسميته من قبل « اعترافاتي » . اننى اكرس-أيامى الاخيرة لدراسة نفسى ، ولاعد مقدا الحساب الذى لن أتوانى عن تقديمه عنها . فلاتجه بكليتى الى لذة التحدث الى نفسى ما دامت هى اللذة الوحيدة التى ليس فى مقدور الناس انتزاعها منى . فلئن استطعت من وراء أعمال الفكر فى كوامن نفسى التسامى بها واصلاح ما يكون قد ترسب فيها من ألم ، فان تأملاتى عندئذ لن تكون عديمة الجدوى تماما ، وبرغم انئى لم اعد اصلح لشيء فى الحياة ، فاننى لا أكون قد أضعت تماما أيامى الاخيرة . اننى طالما شغلت فراغ جولاتى اليومية بتأملات رائعة يؤسفنى أن ذكرياتها شردت منى (١) ، وسأسجل كتابة بعض ما يحضرني منها ، وكلما عاودت قراءتها تملكنى من وراء ذلك السرور . سوف أنسى آلامى ، كما سوف أنسى أولئك الذين اضطهدونى وكل ما أذلتى وأنا أفكر فيما كان يستحقه قلبي من مثوبة .

ان هذه الاوراق لن تكون فى الواقع سوى يوميات غير متناسقة لأحلام يقظتى ، وستشتمل الكثير على لأن انسانا منفردا يفكر لا بد وأن يشغل كثيرا بأمر نفسه - وصفوة القول ان كل الافكار الغريبة التى تمر بخاطرى خلال جولاتى سيكون لها مكانها فى هذه اليوميات وسأسجل ما فكرت فيه كما يرد على ذهني تماما دون أن يكون فيه من الروابط الوظيفية ما يكون عادة بين أفكار الامس والداير وأفكار الغد . ولكن

(١) جاء في الخطاب الثالث الى مالزيرب Malesherbes المؤرخ فى ٢٦ من يناير ١٧٦٢ :
« اى الاوقات ترى يا سيدى اننى اذكرها كثيرا جدا وفي ارتياح كبير فى أحلامى :
انها ليست البتة متع شبابى ذلك لان هذه كانت شديدة الندرة تمتزج بها المرارة بقدر كبير ولانها تات اليوم عنى بعيدا جدا ، انها اوقات اعتزالى ، انها جولانى المنفردة ، انها تلك الايام السريعة الحلوة التى قضيتها بأكملها مع نفسى وحيدا فى رفقة مدبرة شئونى الطبية الساذجة ومع كلبى المحبوب وتقطى العجوز ومع طيورالريف وغزلان الغاب ومع الطبيعة جيمعها وخالقها الذى لا يرى » .

ستكون من ثمار ذلك دائما معرفة جديدة لطبعي ولمزاجي بفضل الصلة التي ترتبط بين مشاعري وأفكاري والتي هي الزاد اليومي لعقلي في الحالة الغربية التي أمر بها . وعلى ذلك فهذه الاوراق يمكن أن تعد ملحقا لاعتراقاتي ، ولكنني لا أستطيع أن أعطيها العنوان نفسه ، اذ انني لم أعد أحس أن هناك ما يمكن ان يقال مما يستحق ذلك العنوان . لقد تطهر قلبي في بوتقة المحن وأكاد في عسر أتبين فيه ، وأنا أتحسّن أغواره بعناية ، بقية من ميول تستحق اللوم . . وبعد فماذا لدى هناك من اعتراف وقد انتزعت منه كل المتع الدنيوية . لم يعد هناك ما يجعلني أزعج المديح الى نفسي ، أو ألومها عليه . انني منذ الآن صفر لا وجود لي بين الناس ، وذلك هو كل ما يمكن أن أكونه وقد انعدمت صلتي الفعلية ومعاشرتي الحقه لهم .

ولما لم يعد في مقدوري أن أقدم خيرا دون أن ينقلب الى شر ، أو أستطيع التصرف دون الحاق الضرر بانسان أو بنفسي ، أصبح واجبي الوحيد أن أغدو سلبيا ، وأن أؤدي هذا الواجب تماما كما أحس به . ولكن برغم توقف جسدي عن العمل فان روحي ستظل نشطة تنبعث منها أحاسيس وأفكار وتبدو كذلك وكأنما انبسطت حياتها الداخلية والمعنوية بزوال كل المصالح الدنيوية أو العرضية ، وليس جسدي بعد اليوم سوى حائل وعقبة أسعى جهدي مقدما للتخلص منه .

ان وضعا فريدا كهذا يستحق بالتأكيد أن يدرس وأن يوصف ، واني لاكرس أوقات فراغي الاخيرة لهذه الدراسة ، ويتعين علي ضمانا لنجاحها أن أنهج نهجا منظما رتبيا ، ولكنني غير قادر على القيام بهذا العمل بل انه قد يبعثني عن هدفي وهو أن أتبين تطورات نفسي وكيف تتابعت هذه التطورات . وسأجرى على نفسي - الى حد ما - التجارب التي يجريها علماء الطبيعة على الجو لمعرفة حال الطقس اليومية . سأطبق البارومتر على روحي ، وسوف تستطيع تجاربه ، اذا ما أجيبه توجيهها وتكررت طويلا ، أن تقدم نتائج مؤكدة كتلك التي يقدمها علماء الطبيعة ثمرة لبحوثهم . ولكن ليس في نيتي التوسع الى هذا الحد فيما أقوم به . وسأكتفي بتسجيل تلك التجارب دون محاولة الخروج منها بقاعدة . انني أقوم بما قام به « مونتاني » Montaigne (١) وان كنت

(١) مونتاني Montaigne هو كاتب فرنسي (١٥٣٢-١٥٩٢) ، اهتم بدراسة الاخلاق ، وبدأ في عام ١٥٧١ في كتابة المقالات Ies Essais ، صور فيها نفسه من خلال المناقشات التي كان يلهمها في طبيعته ، وروسو هنا يبعد عن نفسه مائد يعتقد من أنه يقلد مونتاني فيما كتب .

استهدف شيئاً مضاداً لهدفه ، وذلك لانه لم يدون محاولاته Essais الا للآخرين في حين اني لا أدون أحلام يقظتي لغيري . ولئن بقيت في شيخوختي المتقدمة وأنا على وشك الرحيل كما آمل في وضعي نفسه اليوم ، فستذكرني قراءتها باللذة التي اتفوقها وأنا أكتبها لأنها ستجعلني أحس بماضي وقد بعث من جديد ، وهكذا أعيش بفضلها مرتين ، كما يقولون ، وأتذوق برغم الناس سحر المجتمع وسأحيا شيخاً مهتماً مع نفسي في عصر آخر كما لو كنت أعيش مع صديق يصغرنى .

لقد كنت أكتب أولى « اعترافاتي » Confessions و « حوارى » Dialogues ، وهى السدائم البحث عن الوسائل التى تمكننى من إخفائها عن أيدي مضطهدى الباطشة حتى أسلمها ، ان كان ذلك ممكناً ، لأجبال أخرى ولكن أقلق نفسه لا يساورنى بالنسبة لما أكتبه هنا لاننى أدرك أنه لا جدوى من ذلك ، وأن الرغبة فى أن تزيد معرفة الناس بى ، وقد تلاشت من نفسى ، لم تخلف سوى عدم الاكتراث الشديد بمصير كتاباتى الحقيقية وآثار براءتى على السواء ، التى ربما تم القضاء عليها الى الأبد . فليرقبوا ما أفعل وليتوجسوا خيفة من هذه الاوراق ليستحوذوا عليها أو ليقضوا عليها أو ليزيفوها ، فان كل ذلك سواء لدى منذ الآن . اننى لا أخفيها ولا أظهرها فلئن سلبنى اياها فى حياتى فلن يستطيعوا حرمانى مما شعرت به من سرور عند كتابتها ولا من ذكرى ما اشتملت عليه ، ولا من تأملات الوحدة التى هى ثمرة لها والتى لن ينضب لها معين الا بصعود روحى الى بارئها . لو اننى عرفت منذ أن حلت بى أولى المصائب كيف لا أقاوم قدرى وأن ألتزم الجانب الذى ألتزمه اليوم ، لما استطاعت جهود الناس ولا خططهم الفظيعة أن يكون لها أثر على ولما استطاعوا اطلاق راحتى بكل ما يدبرون أكثر مما يستطيعون منذ الآن بكل ما أصابهم من توفيق . فليستمتعوا كيفما شاءوا بما لحقتى من اذلال ولكنهم لن يمنعوننى من الاستمتاع ببراءتى ومن قضاء أيامى الاخيرة فى سلام بالرغم منهم .

الرحلة الثانية

اما وقد عولت على وصف الحالة التي اعتادتها نفسى في اعجب موقف يمكن أن يصادفه مخلوق ، لم أجد من وسيلة أيسر وأضمن لتنفيذ هذا المشروع الا عمل سجل صادق لجلواتى المنفردة ولأحلام اليقظة التي تشغلها ، عندما أطلق لفكرى العنان وعندما تتابع خواطرى مراقها دون مقاومة أو صعاب . ان هذه الساعات التي تنقضى في وحدة وتأمل هي الساعات الوحيدة من اليوم التي أكون فيها أنا نفسى ولنفسى دون شاغل أو حائل وحيث يمكننى بحق أن أقول اننى ماشاءت الطبيعة أن أكونه ، وسرعان ما أحسست اننى أبطأت أكثر مما يجب في تنفيذ هذا المشروع . أما وخيالى أقل نشاطا فانه لم يعد يتوقد كما كانت الحال من قبل عند تأمل مايشيره ، كما اننى لم أعد أنتشى كما كنت أفعل بحرارة أحلامى بل ان فى نتائجها منذ اليوم من الاستعادة أكثر معا فيها من ابداع . ان وهنا فاترا يحط من قواى جميعا ، وسر الحياة يذوى في تدريجيا ، ولم تعد روى تنطلق خارج غلافها البالى الا في عسر ، ولن أستطيع أن أحيا على غير الذكريات مادام ليس هناك أمل في الحالة التي أرنو اليها لآتى أشعر بحقى فيها - وهكذا رغبة في تأمل ذاتى قبل أفولى - أرى لزاما على أن أرجع القهقرى بضع سنوات على الأقل الى تلك الفترة حين فقدت كل أمل في الحياة ، ولم أجد غذاء لقلبى في هذه الدنيا فأخذت أعود نفسى تدريجيا على أن أزوده بخلاصته باحثا في ذاتى عن زاده كله .

وقد غدا هذا النبع الذى تنبته اليه متأخرا من الفزارة بحيث سرعان ما كان كافيا لتعويضى عن كل شيء ، كما جعلتنى اعتياد الرجوع الى ذاتى ، أفقد فى نهاية الأمر الاحساس بالامى بل أفقد ذكرها تقريبا . وهكذا تعلمت عن طريق تجربتى الخاصة ان مصدر السعادة الحققة كامن في نفوسنا وأنه ليس من شأن الناس ان يشقوا حقا من يريد أن يكون سعيدا .

وقد اعتدت منذ أربع أو خمس سنوات أن أتذوق هذه الملاذ الكامنة التي تلقاها الأرواح المحبة الرقيقة عن طريق التأمل . ان هذه المرات والنشوة التي كنت أحس بها أحيانا وأنا أتجول هكذا وحيدا ، كانت متعا أدین بها لمضطهدى : اذ اننى لولاهم لما اكتشفت مطلقا أو أدركت الكنوز التي كنت أحملها في نفسي . وكيف يتأتى لى أن احتفظ بسجل أمين وسط هذا الثراء ؟ اننى حين أرغب في تذكر احلام يقظتى الحلوة ، ارانى مستغرقا فيها من جديد بدلا من أن أتناولها بالوصف ، وهذا هو ما يؤدى اليه تذكرها وهى حالة سرعان ماتختفى حين يتوقف الاحساس بها .

وقد شعرت تماما بهذا الأثر خلال جولانى التي تبعت مشروع كتابة تممة «اعترافى» ، وبخاصة خلال الجولة التي سأتناولها بالحديث والتي قطع حبل أفكارى فيها حادث مفاجيء وجعلها تتخذ لفترة من الزمن مجرى آخر . ذلك أنه في يوم الخميس الموافق للرابع والعشرين من أكتوبر عام ١٧٧٦ سرت عقب تناول العشاء في الطرق حتى شارع « شيمان فير » Chemin-Vert ومن ثم الى مرتفعات « منيلمنتان » Ménilmontant ثم سرت في الدروب والمراعى خلال الكروم مخترقا حتى «شارون» Charonne الريفى البهيج الذى يفصل ما بين هاتين القريتين ثم عرجت لأعود مارا بالمراعى نفسها ولكن عن طريق آخر . وكنت أسرى عن نفسى بتجوالى خلالها بتلك المتعة وهذا الاهتمام اللذين طالما بعثتهما في نفسى المناظر الجميلة . وبتوقفى أحيانا لأمعن النظر في نباتات معينة منبثة في الخضرة وقد لمحت من بينها نوعين ندر أن رأيتهما حول باريس ولكننى وجدتهما بوفرة كبيرة بهذا الإقليم . . أما أولهما فهو الحوذان Picris-hieracides من فصيلة المركبات وأما الآخر فهو (أذن الارنب Bupleurum falcatum من نباتات الفصيلة الخيمية ombellifères (١) .

وقد سرنى ذلك الاكتشاف وأسعد نفسى فترة طويلة ، كما أدى الى اكتشاف نبات آخر أشد ندرة أيضا خاصة وهو في إقليم مرتفع هو المعروف باسم الحشيشة المائية Cerastium aquaticum الذى - برغم الحادث الذى وقع لى في اليوم نفسه - وجدته في كتاب كنت أحمله معى وقد وضع فى معطفى .

وفي النهاية بعد أن فحصت تفصيليا أنواعا كثيرة أخرى من

(١) من المعجم المصور للنباتات : تأليف أرنالك . ك . بديفيان . القاهرة ١٩٣٦ .

النباتات كانت لاتزال مزهرة وكان مظهرها وترتيبها وهو أمر مألوف لدى -
يدخلان الى نفسى السرور مع ذلك دائما ، وأخذت أتخلى شيئا فشيئا
عن هذه الملاحظات الدقيقة لاستسلم الى انطباعة لاتقل عنها لذة وان
كانت أشد تأثيرا ، أضفاها على ذلك كله .

كان جنى الكروم قد تم منذ بضعة أيام وكان أهل المدينة من المتنزهين
قد عادوا أدراجهم ، وكان الفلاحون قد هجروا حقولهم حتى يحل عمل
الشتاء . . . وأصبح الريف الذى كان لا يزال مخضرا ضاحكا - وان
تعمرى من أوراق أشجاره جزئيا - يعرض فى جميع أنحاء صورة للعزلة
ومقدم الشتاء .

كان منظره على هذه الصورة مزاجا من الانطباعات الحلوة والمؤسفة
بلغت من الشبه بأيامى وحظى حدا لا يسعنى معه الا أن أراها تطابقها
تماما .

كنت أرانى فى مغيب حياة بريئة تعسة ونفسى لاتزال مليئة بمشاعر
حية وروحي تكللها بعض الأزهار ، وان أسقمها الحزن وأذبلها الملل . . .
كنت أحس وأنا وحيد مهجور ببرودة الثلوج الأولى ، وكان خيالى
الآخذ فى النضوب لا يستطيع أن يملأ فراغ وحدتى بكائنات صيغت وفق
هواى كنت أقول لنفسى وأنا أتهدد « ترى ماذا اقترفت فى هذه الدنيا ؟
لقد خلقت لأحيا ولكن هأنذا أموت دون أن أكون قد عشت » .

أن هذا ليس على الأقل ذنبى ، ولئن لم أستطع أن أقدم الى بارئ
كيانى قربانا من صالح الاعمال التى لم أمكن من أدائها ، فانى سأقدم
على الأقل ضريبة من نوايا طيبة ومن مشاعر طاهرة جعلها الناس عديمة
الجدوى ، ومن صبر على محنة احتقارهم إياى .

كنت أحس بحنين لدى هذه الخواطر وكنت أستعيد خلجات
نفسى منذ شبابى وفي سن نضوجى ، ومنذ أن أبعدت من المجتمع الإنسانى
وطوال فترة الانعزال الطويلة التى فرض على أن أقضى فيها أيامى الأخيرة
. . . كنت أسترجع فى رضا غامر عواطف قلبى جميعا وميوله الرقيقة ،
العمياء مع ذلك ، وخواطرى التى كان جانب العزاء فيها يطفى الى ما بينا
من هم دفين والتى كانت غذاء لفكرى منذ بضع سنوات خلت وكنت
أعد نفسى لتذكرها بالقدر الذى يمكننى من تناولها بالوصف بلذة تكاد
تعادل اللذة التى كنت أحسها حين استسلمت لها . وانقضت فترة ما بعد
الظهيرة فى هذه التأملات الهادئة ، وكنت عائدا بالغ السعادة من يومى

عندما انتزعتني من غمار حلم يقظتي الحادث الذي بقى على ان ارويه .

كأت السادسة وأنا أهبط طريق منيلمنتان Ménilmontant في مواجهة « جالان جاردينيه ، Galant-Jardinier تقريبا عندما شهدت جماعة من الناس - كانوا يسرون أمامي - يتفرون فجأة ، وسرعان ما انقض على كلب دانمركي ضخم قفز سريعا أمام عربة فلم يكن لديه من الوقت مايكفي لان يتوقف أو يحيد عندما لمحنى . . ووجدت أن الطريقة الوحيدة لتجنب وقوعي على الارض ، هي القفز الى أعلى بحيث يمر الكلب من تحتي ، وأنا معلق في الفضاء . هذه الفكرة وقد مضت في ذهني بأسرع من البرق بحيث لم يكن لدى من الوقت مايسمح بتدبرها أو بتنفيذها ، كانت آخر ماغن لي قبل وقوع الحادث حتى لم أحس بالصدمة ولا بسقوطي على الارض ولا بما تلا ذلك حتى اللحظة التي أفقت فيها .

كان الليل قد أرخى سدوله تقريبا عندما عاد الى رشدي ، ووجدت نفسي مستندا الى أذرع ثلاثة أو أربعة من الشبان قصوا على ماحدث لي ، فذكروا أن الكلب الدانمركي اصطدم بساقي أثناء عنوه حين لم يستطع الحد من اندفاعه فصدمني بجماع جسمه وسرعته حتى أوقعتني أرضا ورأسي الى الامام . وكان فكى العلوي الذي حمل ثقل جسمي كله قد اصطدم بأرض الطريق البالغة الخشونة ، فقد كانت السقطة من العنف بحيث جعلت رأسي في مستوى أدنى من قدمي . وكانت العربة التي ينتمي اليها الكلب قادمة في اثره وكادت تمر فوق جسدي لو لم يكبح الحوذي فورا جماح خيله .

كان هذا ما علمته من رواية أولئك الذين انهضوني وكنت لا زال استند اليهم حين أفقت ، وكانت الحالة التي وجدت نفسي عليها حينئذ شديدة الغرابة بحيث لا يسعني الا أن أتناولها هنا بالوصف .

كان الليل يتقدم ، ورأيت السماء وشهدت عددا من النجوم وقليلاً من الحضرة ، وكان هذا الاحساس الأول لحظة هنيئة ولم يكن يخالجنج غيره اذ ذاك . كنت أخرج في هذه اللحظة الى الحياة وكان يخيل الى أنني اشغل بكياتي الضئيل كل ما كان يقع عليه ناظري . أما وقد عدت الى نفسي تماما فلم أكن أذكر شيئا بالمرّة ، ولم تكن لدى أية فكرة واضحة عن ذاتي ، ولا أدنى خاطر عما لحقني . لم أكن أدري من أكون ولا أين أنا ولم أكن أحس بالأم أو خوف أو قلق . كنت أرى دمي يسيل كما او كنت أشهد جدولا ينساب دون أن يخطر لي بحال أن هذا الدم دمي .

كنت أحس هدوءاً أخذاً يستولى على كياني كلما تذكرته لأجد له مثيلاً في عالم اللذات المعهودة .. وقد سألتوني اين اقيم ؟ ، ولكن .. كان من المستحيل على أن أجيب . وسألتهم اين أنا ؟ . فقيل لي انني في « لاهوت بورن » La Haute-Borne وكان ذلك كما لو قيل لي انني في جبل اطلس Mont Atlas - وكان من الضروري أن أسأل على التوالي عن اسم الاقليم والمدينة والحي ، التي أنا فيها وحتى ذلك لم يكن كافياً كي أتعرف على نفسي ، وكان لا بد من أن أقطع المسافة كلها من هناك حتى أصل الى الطريق لأتذكر سكني واسمى . ونصحني رجل لم تكن تربطني به معرفة . وان أحسن الى بمزافقتي بعض الوقت حين أدرك أننى أسكن بعيداً - نصحتني بركوب عربة من « تمبل » Temple توصلني الى منزلي . وكنت أسير سيراً حسناً في يسروخفة ملحوظين دون أن أحس بالألم أو جرح برغم ما كنت ألفظ من دم كثير ولكن انتابتني رعشة باردة جعلت أسناني المهشمة تصطك ببعضها في صورة غير مريحة بالمرّة . وحين وصلت الى « تمبل » خيل الى انني ما دمت استطعت المسير دون ألم فإنه من الافضل أن أتابع طريقي سيراً على الاقدام من أن أتعرض للهلاك برداً في عربة . وهكذا قطعت نصف الفرسخ فيما بين « تمبل » وشارع « بلاتريير » (١) Plâtrière وأنا أسير في غير عناء ، متحاشياً العقبات والعربات مختاراً ومبتعياً طريقي نفسه على نحو ما كنت أفعل فيما لو كنت مكتمل الصحة . وهأنذا أصل وأفتح المزلج الذي وضع في بوابة الشارع ثم أصدع السلم في الظلام وأدلف في نهاية الامر الى حيث اقيم دون أن أتعرض لحادث آخر سوى سقطتي وماترتب عليها ، مما لم يكن يخطر على بالي اذ ذاك .

ولقد أدركت من صرخات زوجتي حين شهدتني أن ما حل بي أبلغ مما كنت أتصور ، ولقد قضيت الليل دون أن أدرك أو أحس مدى ما حل بي من سوء ولكن هاك ما أحسست به وما تبينته في اليوم التالي : كانت شفتي العليا مشقوقة من الداخل حتى أنفي ، أما من الخارج فقد صانها الفشاء الجلدي فحال دون أن ينفصل شقاها ، وكانت أربعة من الاسنان قد انفرست في فكي العلوي ، وأما الجانب من الوجه الذي يغطيها فكان شديد التورم تملؤه الكدمات كما أن ابهام اليد اليمنى أصيب بالتواء أدى الى انتفاخه ، وكان بايهام اليد اليسرى جرح كبير ، أما الذراع اليسرى

(١) شارع بلاتريير Plâtrière هو الذي سكن روسو في منزل به بالدور الرابع عندما عاد الى باريس عام ١٧٧٠ ولم ينتقل منه الا في ٢ من مايو عام ١٧٧٨ ويسمى هذا الشارع اليوم شارع جان جاك روسو .

فقد أصيب بالتواء كذلك وأما الركبة اليسرى فكانت شديدة التورم وبها
رض شديد ومؤلم يمنعها كلية من القدرة على الانثناء . وبرغم هذه
الإصابات جميعا فإنه لم تكن هناك كسور ولا في سن واحدة وهو أمر يكاد
يشبه المعجزة بعد سقطة كتلك التي تعرضت لها .

تلك هي قصة الحادث الذي وقع لي بمنتهى الصدق (١) وقد
انتشرت تلك القصة بعد أيام قليلة في باريس بعد أن تناولها التغيير
والتحوير حتى أضحي من المستحيل التعرف على شيء منها . وكان من
الواجب أن أفترض مقديما ذلك التحوير ولكن صحبت ذلك الجحاث
ظروف كثيرة غريبة ولفو مبهم وتكتم ، وكان الناس يتحدثون الي في
فضول مضحك جعلني أوجس شرا من كل تلك المعميات .

لقد كنت دائما أكره الظلمة لأنها بطبيعتها تبعث في نفسي رعبا حتى
أن ما أحاطني به الناس طوال تلك السنوات الكثيرة ما كان ليقلل منه .
ومن بين غرائب هذه الفترة لن أشير الا الى واحدة تكفى مع ذلك للحكم
على غيرها .

فقد أرسل السيد (٠٠٠) (٢) الذي لم تكن لي به صلة ما في يوم
من الايام سكرتيره ليستطلع أخباري وليعرض علي في الحاح خدمات لم
أر لها في تلك الآونة فائدة في التخفيف عني . ولم يفت سكرتيره هذا أن
بحثنى في اصرار علي أن أتمسك بعروضه حتى أنه قال لي انه ان لم تكن
لي ثقة فيه فان في استطاعتي أن أكتب مباشرة الي السيد (٠٠٠٠) .

وقد أدركت من وراء هذا الالاح في النصح وروح الثقة التي
صحبتة سرا ماكنت أحاول عبثا الكشف عنه ، ولم يكن الامر يستوجب
مزيدا لينفرنني وبخاصة في حالة الاضطراب التي كان يعانيتها عقلي من جراء
الحادث والحمى التي صحبتة . وقد استسلمت لألف من الافتراضات

(١) وردت عن هذا الحادث روايات عدة تختلف في بعض التفاصيل ، لعل أهمها ما أورده

برناردين دوسان بيير Bernardin de Saint-Pierre وكورانسيه Corancez

وهما يؤيدان ما يرويه روسو . الاول في كتابه عن حياة روسو وأعماله

la vie et les ouvrages de J.J. Rousseau

والثاني في « جورنال دوباري Journal de Paris (السنة السادسة . الجزء

الاول من رقم ٢٥٩ - ٢٦١) ويرى البعض أن روسو ربما كان متأثرا فيما يرويه

بما كتبه مونتسائي Montaigne عن أحاسيسه بعد سقطة من فوق الحصان .

« Essais, Liv. II, Chap. VI » .

(٢) السيد لِنوار Monsieur Lenoir هو رئيس الشرطة طبقا لما جاء بالنسخة الخطية

للسبع جولات الاولى وهي النسخة المحفوظة في نيوشاتل .

المقلقة الكئيبة وكانت لى على كل ما يدور حولى تعليقات تتسم بهذيان الحمى اكثر مما تتسم بهذوء أعصاب رجل لم يعد يكثر بشيء .

ثم طرا امر آخر قضى على البقية الباقية من هدوئى ذلك ان السيدة «.....» (١) كانت تطاردنى منذ بضع سنوات دون أن أحس سبب ذلك فمن هدايا صغيرة كانت تفتعل مناسبتها ، الى زيارات متكررة لم يكن هناك من داع لها ، ولم تكن تبعث السرور كذلك وكانت كافية لان تدفعنى الى الوثوق من وجود هدف مستور وراء ذلك كله ، وان لم تبينه تماما . وكانت قد تحدثت لى عن قصة تريد كتابتها لتقدمها الى الملكة وذكرت لها رأى فى المؤلفات من النساء ، وأفهمتنى أن هدفها من هذا المشروع استعادة ثروتها مما يجعلها فى حاجة الى رعاية ، ولكن لم يكن لدى من رد على ذلك . ثم ذكرت لى بعد ذلك أنها لم تستطع الاتصال بالملكة ولذا استقر رأيا على تقديم كتابها للجمهور . ولم يكن هناك مجال لاسداء نصيح لم تطلبه بل لو أن هذا حدث لما استمعت الى . وكانت قد قالت لى انها ستعرض على المخطوط أولا فرجوتها ألا تفعل وقد استجابت الى ذلك .

وقد تلقيت منها ذلك الكتاب ذات يوم خلال فترة نقاهتى مطبوعا بل ومجلدا وشهدت فى المقدمة مديحا ضخما لشخصى صدر به الكتاب بشكل مجوج وفيه كثير من الافتعال مما كان له أسوأ الأثر فى نفسى . ولم يكن الملق الفج الذى يتلمسه المرء فى ثناياه مما يتفق واللباقة ولم يكن قلبى ليخضع به .

وجاءت السيدة «.....» بعد عدة أيام لزيارتى ومعها ابنتها وذكرت لى أن كتابها اثار أكبر ضجة بسبب الملاحظة وردت به . وقد لاحظت بالكتاب هذه الملاحظة حين كنت أتصفح على عجل هذه القصة ، فأعدت قراءتها بعد انصراف السيدة ، وتمعننت فى تركيبها وأحسبنتى كشفت عن هدف زيارتها لى وملقها اباى وما أسبغته من مديح مغالى فيه لشخصى فى مقدمة الكتاب . وأيقنت أن هذا كله لم يكن له من هدف آخر سوى تهيئة أذهان الجمهور لتنسب تلك الملاحظة لى وبالتالي ماتثيره من لوم على كاتبها فى الظرف الذى تم نشرها فيه .

لم يكن لدى من وسيلة لاختماد هذه الضجة والأثر الذى يمكن أن

(١) - مدام دورمو Mme d'Ormoى هى اديبة ، مؤلفة كتاب :
Malheur de la Jeune Emilie (Paris 1777).

ينجم عنها ، وكان كل ما استطيع القيام به هو الا اعمل على اذكائها بتحمل استمرار زيارات السيدة «...» وابنتها ، هذه الزيارات الفارغة المكشوفة . ومن أجل ذلك كتبت الى الأم هذه الرسالة :

« لما كان روسو لا يستقبل في بيته أى مؤلف ، فهو يشكر السيدة «...» على أفضالها ويرجو ألا تشرفه بعد اليوم بزيارتها ، » .

وقد كتبت لى الرزد خطابا صادقا ظاهره وان كان ملتويا ككل الخطابات التى تكتب الى فى مثل هذه المناسبة . ولقد أغمدت الخنجر بوحشية فى قلبها الحساس ، وكان على أن أصدق من وراء لهجة خطابها انها لن تحمل البتة هذه القطيعة بل ان دونها الموت لما تكنه من مشاعر حادة صادقة ، وهكذا تعد الاستقامة والصراحة فى كل شىء جرائم بشعة فى هذا العالم ، وهكذا كنت ابدو لمعاصرى شريرا شرسا حين لا يكون لى من جرم فى نظرهم سوى أننى لست مضللا او مخادعا مثلهم .

كنت قد خرجت مرات كثيرة بل كنت اتجول غالبا فى التويلرى Tuileries عندما استنتجت من دهشة الكثيرين الذين كانوا يقابلونى انه لا يزال هناك نبا آخر يتصل بى كنت أجهله . وعلمت فى نهاية الامر ان شائعة سرت بين الناس مؤداها أننى مت على اثر سقطتى . وقد انتشرت تلك الشائعة فى سرعة وأصرار ، حتى أنه بعد أكثر من خمسة عشر يوما من علمى بها كان الناس يتحدثون عنها فى البلاط وكأنما هى أمر أكيد . ولم يفت جريدة «الكورييه دافنيون» Courrier d'Avignon (١)

(١) - فى عدد الثلاثاء ٢ من ديسمبر نشرت جريدة كورييه دافنيون Courrier d'Avignon « منذ بضعة أيام صدم أحد تلك الكلاب الدانمركية التى تتقدم العربات السريعة السيد روسو الذى غالبا ما يتجول وحيدا فى الريف ... ويقال انه مريض جدا بسبب هذه السقطة ، ولا نستطيع أن نأسف كثيرا على ما ناله بسبب دوس الكلاب له ... » وفى عدد الجمعة ٢٠ من ديسمبر : « مات جان جاك روسو متأثرا من سقطته . لقد عاش فقيرا ومات بائسا . ان غرابية قدره صحته حتى القبر ، وانه ليؤسفنا اننا لانستطيع أن نتحدث عن مواهب هذا الكاتب البليخ . ولا بد أن قراءنا يدركون أن سوء استعماله اياها يفرض علينا الصمت المطبق فى هذا المقام . فليطمئن الناس تماما من أنهم لن يجرموا من الالام بتفصيلات حياته وأنهم سيجدون بها حتى اسم الكلب الذى قتله » .

وقد كتب فولتير Voltaire الى فلوريان Florian فى ٢٦ من ديسمبر ١٧٧٦ يقول : « لقد أحسن جان جاك صنعا بموته ، ويزم انه ليس صحيحا أن كلبا قتله ، وأنه شفى من الجراح التى أصابه بها صديقه الكلب . ولكن يقال انه فى يوم ١٢ من ديسمبر عن له أن يقوم بالتسلىق فى باريس مع صديق =

كما عنى البعض بالكتابة الى مشيرين الى ماجاء بها - عندما زفت هذا النبأ السعيد - أن تتعجل بهذه المناسبة ما يعد لما أستحقه من السباب والاهانات للذكرى وفاتى في صورة رثاء ، وقد اقترن ذلك الخبر بظرف آخر اكثر غرابة كذلك لم أعلم به الا مصادفة وان لم أعرف شيئا عن قصيلاته : ذلك أنه افتتح اكتاب فى الوقت نفسه لطبع المخطوطات التى قد يعثرون عليها لدى ، وفهمت من وراء ذلك أنهم قد أعدوا مجموعة من الكتابات اصطنعوها خصيصا لتنسب الى بعد موتى مباشرة ، ذلك لان الاعتقاد بأنهم قد يقومون مخلصين بطبع آية واحدة من بين ما قد يعثرون عليه حقيقة ، سخافة لايمكن أن يقبلها تفكير رجل عاقل جنبته اياها خبرة خمسة عشر عاما .

وقد أهاجت هذه الملاحظات خيالى من جديد بعد أن كنت اظن انه خمد وذلك حين توالت وحين تبعتها أخريات ليست بأقل منها عجبا ، كما أحييت في نفسى تلك الافتراءات المضللة - التى دأبوا على تدعيمها بغير هوادة من حولى - كل ما تبعته فى نفسى عادة من اشمئزاز .

ولقد نال منى الجهد وأنا احاول ايجاد ألف تفسير لهذا كله ومن جراء محاولة تفهم الاسرار التى جعلوها مستغلقة على ، وكانت النتيجة الوحيدة الثابتة لتلك المعميات تأكيدا لكل ما انتهيت اليه من قبل وهو ان ما قدر لى وما قدر لسمعتى قد اتفق على تحديدهما الجيل الحاضر جميعه بحيث لم يكن أى جهد من جانبى ليستطيع تخليصى مادام ليس فى مكنتى اطلاقا أن انقل الى الاجيال المقبلة آية وديعة دون أن تمر بين أيدي هذا الجيل التى يههما القضاءعليها .

ولكننى فى هذه المرة ذهبت الى أبعد من ذلك : ان تجمع هذا القدر من الاحداث الطارئة وارتفاع شأن الأعدائى جميعا بفضل يد القدر كما يقال وكل أولى الأمر فى الدولة ، وكل من يوجهون الرأى العام ، وجميع ذوى المكانة والصفوة من ذوى الاعتبار الذين كأنما اختيروا عمدا من بين أولئك الذين يحملون لى ضعفنا دفينا ، متسابقين ليسهموا فى المؤامرة المشتركة . . . هذا الاجماع العام من الغرابة بحيث لايمكن أن يكون محض صدفة . ولو ان أمرا أبى أن يسهم فى المؤامرة ، او لم يتفق احد أحداثها مع وجهة نظره ، او أن ظرفا غير متوقع اعترض سبيله ، لكان

= قديم من جنيف يدعى رومبى Romilly وانه أكل كشيطان فاصيب بعسر
هضم ثم مات ككلب . . .

ذلك كافيا لفشلها ، ولكن دعمت من صنيعهم كل الإرادات والمقدرات والمال والثورات . وأن تسابقا مشرا كهذا يكاد يشبه المعجزة ، لا بدع مجالاً للشك لدى في أن نجاحه المحقق كان مكتوباً في لوح القدر ، وأن كثيراً من الملاحظات الخاصة سواء في الماضي أو في الحاضر أيدت رأيي هذا ، لدرجة لا يستطيع معها أن أمنع نفسي بعد من أن أرى ما كنت أحسبه حتى اليوم ثمرة الشر الانساني ، كأنما هو واحد من تلك الاسرار الالهية المستعصية على العقل البشري .

ان هذه الفكرة بدلا من أن تقسو على وتمزق قلبي أراها تعزيني ، وتدخل السكينة الى نفسي وتساعدني على الاستسلام ، وأنا في هذا لا أختلف عن « القديس أوغسطين » (١) الذي عزى نفسه عن تعذيب الناس له باعتبار أن هكذا كانت مشيئة الله . وأما استسلامي فمصدره لا يخلو من الغرض في الواقع ولو أنه ليس اقل نقاء وأكثر جدارة في رأيي بالكائن الكامل الذي أعبدته .

ان الله عادل ، وهو يريد أن أتالم وهو يعلم أنني بريء . . . ذلك هو سبب ايماني الذي يؤكد قلبي وعقلي انه لن يضللني . فليدع اناس والقدر اذن لما يعملون ولنتعلم كيف نحتلم الألم بغير تدمير : فلا بد وأن تنتظم الامور جميعا في النهاية ، وسيحل دوري ان عاجلا أو آجلا .

(١) - القديس أوغسطين **Saint-Augustin** هو ابن القديسة مونيك **Sainte Monique** (٣٥٤ - ٤٣٠ م) وقد اجتذبه الحياة الدينية بعد شباب ماجن وأصبح فيما بعد أشهر آباء الكنيسة اللاتينية ، ومن أهم مؤلفاته مدينة الله والاعترافات . وهذه روى فيها أخطاء شبابه ثم هدايته (حوالى ٣٩٨ م) .

الجولة الثالثة

« اننى أشيخ وما أزال أتعلم »

كان «سولون» (١) يردد هذا البيت من الشعر كثيرا فى شيخوخته ، ولهذا البيت معنى أستطيع أنا الآخر أن أردده فى شيخوختي كذلك . وياله من علم يدغو الى الرئاء ، ذلك العلم الذى أكسبتنى اياه التجربة منذ عشرين عاما (٢) ، ان الجهل أفضل منه . ان المحنة هى من غير شك معلم كبير ، ولكن هذا المعلم يتقاضى غالبا ثمن دروسه ، وأغلب الامر أن مايجنيه المرء من فائدة من ورائها لا يعادل الثمن الذى تكلفته . هذا الى أن فرصة الافادة منها تنقضى قبل أن يستطيع المرء الحصول عليها من وراء دروس جاءت متأخرة . ان الشباب هو الفترة التى يتعلم المرء فيها الحكمة ، أما الشيخوخة فمرحلة ممارستها . وانى لأقر أن التجربة تعلم دائما ولكنها لا تفيد الا بقدر ما أمام المرء من فسحة فى الوقت . ان ساعة الموت هى اللحظة التى يتعلم فيها كيف كان يجب أن يعيش ؟

وبعد ، فيم تفيدنى معلومات جاءت متأخرة وبهذه الصورة المؤلمة عن مصرى وعن عواطف الآخرين ومصرى من صنعهم ؟ انى لم أتعلم أن أزداد معرفة بالناس الا لأزداد احساسا بمدى ماأغرقونى فيه من تعاسة دون أن تستطيع تلك المعرفة حين أماطت اللثام عن كل مانصبوه لى من شرك ، أن تجنبنى واحدا منها .

ليتنى ظللت أنعم بهذهالثقة العمياء - الحلوة مع ذلك - التى جعلت منى طوال تلك الأعوال العديدة فريسة وألعوبة لصحابى الصاخبين ،

(١) سولون Solon هو فيلسوف ومشرع اغريقى (٦٤٠ - ٥٥٨ ق.م) .
(٢) بشر روسو هنا الى عام ١٧٥٧ حيث تمت القطيعة بينه من ناحية وبين مدام دابناني Mme d'Epinaى وجريم Grimm وديدرو Diderot من ناحية اخرى ، وكان ذلك بداية متابعه الحقة واعتقاده فى مؤامرة يحيكها له أعداؤه .

دون أن ينالني أدنى شك فيما أحاطوني به من تدبيرات . حقا لقد كنت موضع استغفالهم كما كنت ضحية لهم ، ولكنني كنت أحسبني محبوبا منهم ، وكان قلبي يستمتع بما أوحوا الى من محبة حسبتهم يبادلونني مثلها . ولكن انهارت هذه الاوهام اللذيذة . ان الحقيقة الاليمة التي كشف لي عنها الزمن والعقل وهما يجعلاني أجس بشقائي ، جعلتني أدرك أن لاوسيلة للبرء منه ، وأنه لم يعد لي الا ان أستسلم له ، ومن ثم كانت كل تجارب عمري بالنسبة لي وفي حالتي هذه ، بغير نفع حاضر ، أو كسب في المستقبل . اننا نشرع في الكفاح عند مولدنا ونفرغ منه عند الموت ، فما جدوى تعلم المرء كيف يحسن قيادة مركبته حين يكون قد بلغ نهاية المطاف ؟ انه لم يعد اذ ذاك مجال للتفكير اللهم الا في كيفية الخروج منه . ان ما على الشيخ أن يدرسه . . . اذا كان لايزال هناك مجال للدراسة لايعدو أن يكون المران على الموت ، وتلك الدراسة على وجه التحديد هي أقل ما يهتم به من كان في مثل سنى ، فهو يفكر اذ ذاك في كل شيء الا ذلك الامر . والشيوخ جميعا يستمسكون بالحياة أكثر من استمساك الاطفال بها ، ويرحلون عنها في أسى يفوق حزن الشباب على فراقها ، ذلك لانهم - وقد كان كل ما قاموا به من أعمال انما قاموا به من أجل هذه الحياة الدنيا - يشعرون في نهايتها أن كل جهودهم ضاعت هباء فهم يخلفون عند رحيلهم كل ما جهدوا من أجله وكل متاعهم وكل الثمار التي سهروا يعملون من أجلها . ولم يفكروا خلال حياتهم أن يكتسبوا شيئا يستطيعون حمله معهم عند موتهم .

لقد رددت ذلك لنفسى في الوقت المناسب له ، ولئن لم يكن في الامكان أن أفيد من خواطرى خيرا من ذلك ، فليس هذا لانها لم تعن لي في اوانها أو لأنني لم أستطع استيعابها تماما . ولما كنت قد زج بى منذ طفولتى وفي خضم الحياة ، فقد أدركت مبكرا ، وبالتجربة ، أنني لم أخلق لأعيش فيها ، واننى لن أنجح البتة في الوصول الى ما يحس قلبي بحاجته اليه . واذن فلما توقفت عن البحث بين الناس عن السعادة التي كنت أدرك عدم قدرتى على أن أجدها بينهم ، فان خيالى المتوقد مالبث ان وثب متخطيا نطاق حياتى وهي بعد في مستهلها ، وكأنما يجتاز أرضا غريبة عنى ليستقر فوق بقعة هادئة أستطيع أن أثبت عليها .

كان هذا الشعور الذى اغتدى بما تعلمته منذ طفولتى والذى تدغم طوال حياتى . . . بتلك السلسلة - من الشسقاوة وسوء الحظ - التى

ملأت أرجاءها . . . مما دفعنى فى كل وقت ، الى محاولة معرفة طبيعة كيانى وما سوف ينتهى اليه وذلك فى اهتمام وفى عناية أبلغ مما أجدهما عليه لدى أى انسان آخر . لقد شهدت من بين الناس من استطاعوا أن يتعمقوا فى فلسفتهم أكثر منى ، ولكن فلسفتهم تلك ، ان صح القول ، كانت غريبة بالنسبة لهم ، فرغبة منهم فى ان يصبحوا أغزر علما من غيرهم ، أخذوا يدرسون الكون حتى يتوصلوا الى معرفة كيف نظم ، كما لو كانوا يدرسون بدافع الفضول المحض آلة من الآلات وقع نظرهم عليها . لقد كانوا يدرسون الطبيعة البشرية ليستطيعوا التحدث عنها حديث العلماء . . لا ليتعرفوا على أنفسهم ، وكانوا يعملون لتثقيف الآخرين . . لا لالقاء ضوء المعرفة على دخيلة أنفسهم . بل ان الكثيرين منهم لم تكن لهم من رغبة سوى تأليف كتاب - ولا يهم فى ذلك أى كتاب - على شريطة أن يتقبله الناس ، وحين يتم تأليفا ونشرا فلا تهمهم بعد ذلك محتوياته فى كثير أو قليل ، اللهم الا دفع الناس الى اعتناقها ، والدفاع عنها أن هوجمت . وذلك دون أن يفيدوا منها أو يجشموا أنفسهم عناء معرفة صواب أو خطأ هذه المحتويات مادام الناس لم يفندوها . وأما أنا ، فاننى حين كانت تحسدونى الرغبة فى التعلم ، فقد كنت أستهدف معرفة ذاتى ، لا تعليم الناس . . وكنت أومن دائما أن على الانسان أن يبدأ بمعرفة الكثير لذاته قبل أن يعلم الآخرين . ومن بين كل الدراسات التى حاولت القيام بها خلال حياتى بين الناس ، لم تكن هناك واحدة لا أستطيع القيام بها كذلك وحيدا فى جزيرة تخلو منهم أحتجز فيها بقية أيام حياتى . ان مايجب على الانسان عمله يتوقف كثيرا على ما يجب عليه الايمان به ، وأن معتقداتنا هى التى تنظم فعالتنا الا فيما يتعلق بالضرورات الاولى التى تفرضها الطبيعة . ولقد حاولت كثيرا لفترة طويلة - وبهذا المبدأ الذى اعتنقته دائما - أن أوجه طريقة حياتى وأن اتعرف نهايتها الحققة ، فما لبثت ان تعزيت عن ضعف مقدرتى على شق طريقى بمهارة فى هذا العالم وذلك حين شعرت أنه لم يكن من الضرورى السعى وراء معرفتى تلك النهاية .

أما وقد ولدت فى أسرة تسودها التقاليد المتينة والتقوى وربيت فيما بعد بحنان لدى كاهن بالغ الحكمة والتدين ، فقد تلقيت منذ نعومة أظفارى مبادئ ومثالا - قد يسميها الآخرون معتقدات - لم يحدث مطلقا أن تخلت عنها تماما . وعندما كنت لا أزال طفلا ، على شجيتى ،

يفرني التذليل ، ويملكني الزهو ، وتخدعني الأمانى ، وتقهرنى الحاجة ، اعتنقت الكاثوليكية ولكنى ظلمت دائما مسيحيا ، وما لبث قلبى بحكم العادة أن تعلق بإخلاق بدينى الجديد . وقد وطدت لدى هذا التعلق تعاليم مدام «دوفوران» (١) Mme de Warens وما سردته على من أمثال . كما أن وحدتى فى الريف حيث أمضيت زهرة شبابى ، بالإضافة الى دراسة الكتب الجديدة التى تفرغت لها بكليتى ، دعمت - وأنا بجوارها - من استعداداتى الطبيعية لمشاعر الود وجعلت منى متدينا على طريقة فينلون Fénelon (٢) تقريبا . ان التفكير أثناء العزلة ودراسة الطبيعة وتأمل الكون ، تضطر جميعا المرء المنفرد بنفسه الى الانطلاق دوما نحو خالق الأشياء ، والى البحث فى لهفة مستحبة وراء غاية كل ما يراه وعلة كل ما يحس به . وحين ألقى بى قدرى فى دوامة الحياة ، لم أعد أجد فيها ما يستطيع أن يستهوى قلبى ، ولوللحظة واحدة ، فقد تبعتنى الحسرة - أينما توجهت - على أوقات فراغى الحلوة ، ولونت بعدم الاكتراث والاشمئزاز كل ما كان من الممكن أن أجده فى متناول يدي، حريا أن يقودنى وراء الثراء ومراتب المجد ، ولما لم أكن مستقرا تحدونى رغباتى القلقة، فقد كنت آمل فى القليل ، فحصلت على الأقل ، وشعرت حتى فى اشراقه الرخاء أننى لو قدر لى أن أحصل على ما كنت أظننى أبحث عنه لما عثرت فيه قط على تلك السعادة التى كان قلبى متعطشا إليها دون أن يستطيع تبين كنهها . وهكذا كان كل شيء يسهم فى تقطيع أوصال المودة بينى وبين هذا العالم حتى قبل أن تحل بى المصائب التى كان من شأنها أن جعلتنى غريبا عنه تماما . وهكذا شارفت الاربعين من عمري ، أتأرجح بين العوز والثراء . . . بين الحكمة والضياع ، تجللتنى رذائل اعتدتها دون أن يكون بقلبي أى ميل الى الاثم ، أعيش مقامرا دون مبادئ محدودة تماما فى فكرى ، لاهيا عن واجباتى دون أن أحقرها ، ولكن دون ان أتفهمها جيدا فى أغلب الامر .

(١) - مدام دوفوران Mme de Warens هى السيدة التى حولت روسو من البروتستانتية الى الكاثوليكية وأقام عندها سنوات كان يناديها خلالها « أمى » ويعتبرها روسو (الجولة المباشرة) أسعد سنوات عمره .

(٢) فينلون Fenelon كاتب فرنسي ومن كبار رجال الدين (١٦٥١ - ١٧١٥) ، اعتنق مذهباً يدعى Le quiétisme يقصد به «الحب الخالص لله» ولا يطلب من يعشق هذا المذهب القيام بأية شعائر دينية ، فما طيه الا ان يعيش محبا لله فى هدوء مطلق .

ولقد كتبت منذ أيام شبابي قد حددت هذه المرحلة - مرحلة الاربعين - كحد لمجهودي في سبيل النجاح ، وكحد لمشروعاتي في كل نوع مصرا - بمجرد بلوغى هذه السن ومهما يكن من مركزى حينئذ - ألا اناضل من أجل الخروج منه ، وأن أفضى ما تبقى من أيامى ، أعيش ليومى دون أن أشغل بالمستقبل . ولما حلت تلك الساعة ، نفذت هذا المشروع دون عناء ، وبالرغم من أن حظى اذ ذاك بدا وكأنما ينحو الى مزيد من الاستقرار ، الا اننى عدلت عنه ، لا بغير أسف فحسب بل وبسرور حق . وفيما أنا أحاول الفكك من كل هذه المضلات ، ومن كل تلك الأمانى الكاذبة ، استسلمت كلية للاهمال ودعة الفكر التى كان لى بها ميل مستبد وانعطاف مقيم ، هجرت المجتمع بمباهجه ، وزهدت كل زينة ، فلم يعد لدى سيف ولا ساعة ، لا جوارب بيضاء ولا حلى ذهبية ولا زينة شعر ، بل شعر مستعار بسيط جدا ، ورداء سميك من الصوف ، بل - وخيرا من هذا كله - نزعنت من قلبى كل اشتهاى لجمع المال وكل مطمع فى كل ما تخليت عنه مما يجعل له قيمة ثم هجرت الوظيفة التى كنت أشغلها(١) اذ ذاك ، والتى لم أكن خليقا بها البتة وانصرفت الى نسخ الموسيقى نظير أجر للصفحة الواحدة وهو عمل كنت شديد الميل اليه دائما .

ولم أقصر اصلاح امرى على المظاهر الخارجية . ذلك لاننى شعرت بأن هذا الاصلاح نفسه كان يتطلب اصلاحا آخر فى الافكار أشد عسرا من غير شك ، وان كان أشد ضرورة ، وهو اصلاح الآراء ، ولما كنت قد عولت على ألا أقوم بعمل ذلك على دفعتين ، فقد بدأت باخضاع ذاتى الداخلية لفحص دقيق يستطيع أن ينظمها بقية أيام حياتى على الصورة التى كنت أريدها عليها عند موتى .

كان قد حدث انقلاب كبير فى ذاتى . كان يتكشف عالم معنوى آخر لناظرى ، فالاحكام الخرقاء التى كان يصدرها الناس ، بدأت أحس باستحالتها ، دون أن أتكهن بعد ٠٠ كم سأكون فريسة لها ؟ والحاجة المتزايدة الى متعة اخرى غير المجد الادبى الذى ما كاد يلفحنى بخاره حتى اشمأزت منه نفسى ، وأخيرا ٠٠ الرغبة فى أن أرسم للبقية من مطافى طريقا أقل قلقا من ذلك الذى قضيت فيه زهرة أيامى . . . دفعنى بكل هذا الى هذه المراجعة الكبرى التى كنت أحس منذ أمد طويل

(١) كان روسو اذ ذاك صرافا مند مسيو دوفرانكى M. de Francueil محصل

الحاجة إليها وهكذا شرعت فيها ، ولم أهمل شيئاً مما يتوقف على كي يتم تنفيذ ذلك المشروع على ما يرام .

اننى أستطيع أن أحدد تاريخ عزوفى التام عن المجتمع ابتداء من هذه الفترة ، وكذلك هذا المسئل الشديد للوحدة . . اننى لازمنى منذ تلك الوقت ، ولم يكن من المستطاع أن ينفذ العمل الذى شرعت فيه الا فى عزلة مطلقة ، ذلك لانه كان يتطلب تأملات طويلة هادئة لا يسمح بها صخب المجتمع ، وقد اضطررنى هذا ، الى حين ، أن انهج طريقة أخرى فى الحياة ارتحت اليها فيما بعد ، حتى اننى ، وقد تابعتها منذ ذلك الحين ، ولم أنقطع الا مضطرا ولفترات قليلة ، عاودت انتهاجها من جديد بجماع قلبى واقتصرت عليها فى غير جهد بمجرد أن تسنى لى ذلك . ولما اضطررنى الناس فيما بعد الى أن احيا وحيدا وجدت أنهم باحتياسى مستهدفين شقوتى ، عملوا فى سبيل تحقيق سعادتى أكثر مما استطعت أنا أن أفعل لِنفسى .

اتجهت الى العمل الذى كنت قد شرعت فيه بحمية تتفق وأهمية ما أنا بصدده والحاجة التى أحس بها نحوه . كنت أعيش اذ ذاك مع فلاسفة محدثين ليس بينهم وبين القدامى وجه شبه ، وبدلا من أن يزيلوا شكوكى ، ويوقفوا ترددى ، زعزعوا كل ثقة كنت أظننى عليها فى النواحي التى كان يهمنى ، أكثر ما يهمنى ، الامام بها ، ذلك لانهم كمشيرين متعنتين للالحاد ، وكمتعصبين معتدين بأنفسهم ، لن يستسيغوا بأية حال وبغير غضب أن يجرؤ واحد على تفكير يفاير تفكيرهم مهما يكن وجه الخلاف .

وكثيرا ما كنت أدافع عن نفسى بشيء من الضعف كراهية للجدل وقلة دراية بمتابعته ، ولكننى لم أعتنق البتة مذهبهم الهدام . كما أن هذه المقاومة ليقوم بلغوا هذا الحد من التعصب - ولهم قبل كل شيء وجهة نظرهم - لم تكن من الاسباب القليلة التى أثارت عداوتهم .

انهم لم يقنعونى ولكنهم أثاروا القلق فى نفسى ، ولقد زعزعتنى حججهم دون أن تقنعنى أبدا ، ذلك لاننى لم أجده فيها أى جواب شاف ، ولكننى أحسبت ضرورة وجود ذلك الجواب ، وكنت أتهم نفسى بالقصور أكثر من اتهامى اياها بالخطأ ، وكان قلبى يتولى الرد عليهم خيرا مما يفعل عقلى . وقلت لنفسى أخيرا :

« أفأترك نفسى أبدا العوبة لسفسطة المتفهبين ممن لا أثق - حتى -

في أن الآراء التي يدعون إليها ويتحمسون لنشرها إلى هذا الحد حتى يعتنقها الآخرون هي آراؤهم ؟ إن عواطفهم التي تسيطر على مذهبهم ، واهتمامهم بأن يحملوا الناس على تصديق هذا الأمر أو ذاك تجعل من المستحيل النفاذ إلى ما يعتقدون هم أنفسهم يمكن افتراض حسن النية لدى رؤساء الشيع ؟ إن فلسفتهم للآخرين ، وكان لابد لي من فلسفة خاصة بي فلا بحث عنها بكل قواي ما دام هناك متسع من الوقت لذلك ، حتى أستطيع وضع قاعدة ثابتة للسلوك فيما بقي لي من أيام حياتي . هأنذا في نضج العمر ، في عنفوان الوعي ، وقد شارفت على الإفول ، ولئن انتظرت أكثر من ذلك فلن أستطيع استخدام جميع قواي عند مراجعة نفسي مراجعة تجيء متأخرة ، وستكون ملكاتي العقلية قد فقدت بعض نشاطها ، وسيكون أدائي لما أستطيع اليوم القيام به على خير وجه أقل اتقاناً . فلا غنم تلك اللحظة المواتية ، فهي أوان اصلاحى الخارجى والمادى ، إلا فلتكن كذلك أوان اصلاحى الفكرى والخلقى ، ولأحد مرة واحدة آرائى ومبادئى ، ولأكن فيما تبقى من أيام حياتي ما كنت أرى أنه يجب أن أكونه بعد أعمال الفكر فيه . ولقد نفذت ذلك المشروع في ببطء وعلى فترات متفاوتة وإن كان ذلك بكل ما كان يسعنى من جهد وعناية . وكنت أحس احساساً قوياً أن ما سوف أنعم به من راحة بقية أيامى وكل ما قدر لي يتوقفان على ذلك . ولقد وجدت نفسى فى البداية فى متاهة من الحيرة ، والصعاب ، والاعتراضات ، والالتواءات ، والظلمبات ، حتى راودتنى نفسى عشرين مرة أن أتخلى عن كل شئ ، وكدت أتمسك - متخلياً عن بحوث لا طائل وراءها - بأصول الحيلة المعتادة فى مداولاتى مع نفسى ، وذلك دون معاودة البحث وراء المبادئ التى طالما جهدت فى توضيحها . ولكن هذا الحرص نفسه كان شديد الغرابة . لقد كنت أحس اننى أقل من أن أكون أهلاً للوصول إليه ، حتى إن اتخاذه هادياً لي لم يكن إلا كربة فى البحث فى وسط البحار والعواصف بغير دفة وبغير « بوصلة » عن منارة لا يكاد يستطيع الوصول إليها ولا تهدينى إلى أى ميناء .

ولكننى صمدت ولأول مرة فى حياتى تملكتنى الشجاعة ، وانى لأدين لانتصارها بمقدرتى على تحمل القدر المخيف الذى أخذ يحتوينى منذ ذلك الوقت دون أن يساورنى من ذلك أدنى شك . وبعد جهود بالغة العنف ، والصدق ، ربما لم يقدّم بمثلها على الإطلاق أى كائن ، حددت موقفى للمقبل من سنى حياتى بالنسبة لمختلف الاحاسيس التى كان يهمنى أن تنطبع فى ذاتى . ولئن كنت عرضة للخطأ فيما

انتهيت اليه ، فأننى على ثقة تامة على الاقل بأن خطي لم يكن يعد من قبيل الجرم من ناحيتى ، ذلك لاننى بذلت كل جهودى لتوقيه . والحق اننى لست أشك مطلقا فى أن معتقدات الطفولة ورغبات صدرى المكنونه لم ترجح كفة الميزان الاكثر عزاء لنفسى . ان الانسان ليجهد فى مشقة فى ذود نفسه عن الايمان بما يتوق لتحقيقه فى كثير من الحماس ، والا فمن ذا الذى يقوى على الشك فى أن الفائدة التى تعود من وراء القبول أو الرفض لاحكام الحياة الآخرة لا تحدد عقيدة معظم الناس فيما يأملون أو يخشون ؟ كان هذا كله كفيلا بأن يتسلط على أحكامى - وهذا ما أسلم به . ولكن لايقوى على أن يغير من حسن نيتى . . . اذ أننى كنت أخشى الوقوع فى الخطأ فى كل شىء ولئن كان الهدف هو الافادة من هذه الحياة فحسب فقد كان يهمنى معرفة ذلك لكى أستخلص لنفسى منها على الاقل خير نصيب ، ما دامت هناك بعد ، فسحة من الوقت فلا أغدو غرا تماما ولكن كان أخوف ما أخافه فى هذا العالم - وأنا أمر بحالتى تلك - هو أن أخاطر بمصير نفسى الابدى نظير تدرق متاع هذا العالم الذى لم يبد لى قط ذا قيمة كبيرة .

وانى لاعترف كذلك أننى لم أقض دائما - كما أحب - على كل تلك الضعاب ، التى حيرتنى والتى كثيرا ما آذى فلاسفتنا بها سمعى . ولكن ما ان قر رأيى أخيرا على أن أبت فى أمور يقل استيعاب الفهم الانسانى لها - بعد أن وجدت فى كل النواحي أسراراً منيعة واعتراضات يستعصى حلها - التزمت فى كل أمر الشعور الذى بدا لى مباشرة أو طد أساسا ، والاكثر قابلية للتصديق بذاته ، دون أن أتوقف عند الاعتراضات التى لم اكن أستطيع حلها ، ولكن كانت تدحضها اعتراضات لا تقبل عنها قوة ، من المذهب المضاد . ولم تكن اللهجة اليقينية فى هذه الامور تناسب غير الدجالين وان يكن من الضرورى أن يكون للمرء احساسه الخاص به وأن ينتقيه بكل ما أوتى من نضج عقلى ، فلئن وقعنا برغم ذلك فى الخطأ فان العدالة الحققة لا توجب علينا العقوبة ما دمنا لم نقترف اثما . ان ذلك هو المبدأ الراسخ الذى اتخذته أساساً لسلامتى .

وقد كان من نتيجة أبحاثى المضنية التى ضمنتها بعد ذلك كتابى « اشهار عقيدة كاهن من سفوا » (1) .

Profession de foi du vicaire Savoyard

(1) كتاب اشهار عقيدة كاهن من سفوا

Profession de foi du vicaire Savoyard

هو الذى الحقه روسو بكتابه «اميل» وضمنه أسس عقيدته مما كان سببا فى مصادرة الكتاب كله واعتباره خارجا على الديانة المسيحية الحققة .

وهو كتاب انتهك حرمة ودينه ظلما أبناء الجيل الحاضر ولكنه قد يحدث في يوم من الايام ثورة بين الناس لو بعث فيهم الادراك السليم وحسن النية .

منذ ذلك الحين - وقد ركنت الى المبادئ التي كنت قد امنتقتها بعد طول تأمل وروية - اتخذت منها قاعدة راسخة لسلوكي وايمانى دون أن آبه بعد ٠٠ لا بالاعترافات التي لم أقو على التغلب عليها ، ولا بتلك التي لم أستطع التكهن بها والتي كانت جميعا تنتاب ذهني من وقت لآخر ، ولقد سببت لى في بعض الاحايين قلقا ، ولكنها لم تزعزعى بتاتا ، ودائما ما حدثت نفسى قائلا: « ليست هذه جميعا سوى مجادلات وتخريجات ميتافيزيقية لا وزن لها الى جانب المبادئ الاساسية التي يعتنقها عقلي ويؤكدها قلبي والتي يطبعها جميعا رضا النفس حين تسكن الاهواء . أفيجوز في أمور تتسامى فوق مستوى فهم البشر أن يقلب اعتراض لا أستطيع التغلب عليه مذهبا على هذا الرسوخ وبهذا الاحكام يكون بعد طول تأمل وعناية متجاوبا مع أحكام عقلي وقلبي وكيانى كله ومعززا برضا نفسى الذى أحس اننى أفتقده فى جميع المذاهب الاخرى ؟ ٠٠٠ لا . . لن تقضى أبدا أية مغالطات على التوافق الذى الحظه فيما بين طبيعتى الخالدة ودستور هذا العالم من جهة ٠٠ والنظام المادى الذى أراه يسوده من جهة أخرى . اننى أجد فى النظام المعنوى المقابل - وهو النظام الذى كان نهجه ثمرة أبحاثى - ما أنا فى حاجة الى الاعتماد عليه لتحمل ما أقاسيه من شقاء فى الحياة . وأما فى أى نظام آخر فقد أعيش بغير موارد ، وقد أموت بغير أمل، وقد أكون أتعس المخلوقات طرا ، فلاستمسك اذن بالنظام الذى يكفل اسعادي وحده برغم القدر وبرغم البشر .

ألا يبدو ذلك التفكير ، والنتيجة التي استخلصتها منه ، كما لو أن السماء نفسها كانت أملت على لتعدنى للقدر الذى كان ينتظرني ولتجعلني فى حالة تمكنني من احتمالاه ؟ ماذا كان يمكن أن يكون أمرى ، بل كيف كان يصبح حالى بين تلك المخاوف المروعة التي كانت تتربص بى ، وفى ذلك الموقف الذى لايمكن تصوره والذى زج بى فيه بقية حياتى، لو اننى بقيت بغير مأوى حيث يمكننى أن أفلت من مضطهدى العتاة ، وبغير تعويض عما يكبدوننى من عار فى هذا العالم وبغير أمل فى الوصول الى ما استحق من عدالة ، ووجدتني منساقا بجمع نفسى لاقسى مصير يمكن أن يعاينه مخلوق على ظهر البسيطة ؟

وفيما أنا مستغرق فى سذاجتى ، لم أكن اتصور الا أن الناس

يحملون لى الاحترام والرعاية ، وفيما كان قلبى متفتحا مليئا بالثقة يفضى بسريرته للاصدقاء والاخوان ، كان الحونة يقيدوننى - فى صمت - بأحاييل صيغت فى أعماق الجحيم ، وبعد أن فوجئت بأخر ما تتوقعه نفس ذات كبرياء من أقسى الرزايا وأسخفها وجزرت فى الحما دون أن أعرف مطلقا شخصية من يفعل بى ذلك ، ولم يفعله إلا مغرقا فى هاوية من العار ، مخوطا بظلمات مروعة لا أتبين خلالها سوى النحاس من الامور أصابنى الانهيار من المفاجأة الاولى وكان من الجائز الا أفيق من اليأس الذى القى بى فيه ذلك اللون غير المتوقع من الكوارث لو لم أكن مزودا من قبل بقوى تقيلنى من عثرتى .

ولم أحس بقيمة الموارد التى زودت بها نفسى لوقت الشدة الا بعد سنوات من الإضطراب حين ثبت الى نفسى أخيرا وبدأت أسترجع صوابى . وبعد أن انتهيت الى رأى فيما كان يعينى الحكم عليه وجدت - وأنا اكارن مبادئى بموقفى الذى كنت فيه - اننى كنت أعير الاحكام المختلفة التى كان يصدرها الناس والاحداث التافهة لهذه الحياة القصيرة أكثر بكثير مما لها من أهمية ، كما وجدت أن هذه الحياة مادامت ليست سوى سلسلة من المحن ، فليس يهم كثيرا أن تبدو هذه المحن على هذه الصورة أو تلك مادام ينجم عنها الاثر الذى قدرت من أجله ، وانه تبعا لذلك كلما عظمت المحن وقويت وتعذدت ، فمن المفيد أن يتعلم الانسان كيف يحتملها . ان أبلغ الآلام عنفا تفقد حدتها لدى من يرى أن تعويضه عنها سيكون سخيا ومضمونا . كان ضمان هذا الجزء . . الثمرة الرئيسية التى اقتطفتها من وراء تأملاتى السابقة .

والواقع انه مرت بى فى ثنايا الاهدانات التى لا حصر لها ، وألوان النذل التى لا حد لها ، والتى شعرت بها تثقل على من كل جانب ، فترات من القلق ومن الشك كانت تراودنى من وقت لآخر فتزعزع امانى وتزعج هدوئى . كانت الاعتراضات القوية التى لم أستطع حلها ، تيسدو لعقلى اذ ذاك أشد قوة كى تقضى على تماما فى اللحظات نفسها التى يرهقنى فيها ثقل ما قدر لى حتى كاد يحل بى القنوط . وكثيرا ما كانت تراود فكرى حجج جديدة - كنت أنتوى الاخذ بها - تساند تلك التى كانت قد عذبتنى وكنت أقول لنفسى حينئذ وصدري يضيق حتى لتكاد روحى تزهب : أواه ! من ذا يؤمننى من اليأس اذا كنت لا أرى - وسط ما يحيق بحظى فى الحياة من أهوال - سوى أوهام فيما يقدمه لى عقلى من عزاء ، انه بتقويضه على هذا النحو - ما قدم من صنيع - قلب رأسا على عقب . . كل

دعامة أمل وثقة أمدنى بها فى شدتى ؟ يا لها من دعامة ليست سوى أوهام لا يتعلل بها سوى فى هذا العالم ! ان الجيل الحاضر بأجمعه لا يرى فى المشاعر التى أعيش عليها وحدى سوى أخطاء وظنون ، وهو يعتقد أن الحق والبديهة تتضمنهما الطريقة المضادة لطريقتى ، بل انه يبدو - وكأنما لا يستطيع أن يصدق - اننى أنتهجهما عن ايمان حق ، وأنا نفسى بتسليمى بها عن طواعية مطلقه أقابل فيها صعبا يتعذر التغلب عليها بل يستحيل على حلها وان لم تمنعنى من المثابرة عليها . أفأنا اذن العاقل الوحيد والمستنير الوحيد بين البشر ؟ أفيكفى كى أعتقد أن الامور تجرى على صورة ما أن تتفق وهواى ؟ وهل أستطيع أن تكون لى ثقة واعية فى مظاهر ليس لها من أساس ثابت فى عيون الآخرين . . . وكان من الممكن أن تكون مضللة بالنسبة لى كذلك ، لو أن قلبى لم يساند عقلى ؟ أو لم يكن خيرا لى أن أصطرح مع مضطهدى . . . بأسلحة متكافئة عن طريق اعتناق مبادئهم من أن أظل على أوهام مبادئى . . . فريسة لهجماتهم دون أن أعمل على دفعها ؟ اننى أومن بحكمتى وما أنا سوى غر ، ضحية خطأ عقيم وشهيد له .

كم من مرة كدت أستسلم الى اليأس فى تلك الفترات من الشك والحيرة ! ولو اننى قضيت شهرا كاملا على تلك الحال لا نقضى أمر حياتى وأمري ، ولكن تلك الازمات على تكرار حدوثها فى الماضى كانت دائما قصيرة المدى . واما الآن ، ولو اننى لم أتخلص منها بعد تماما ، الا انها بلفت من الندرة والسرعة بحيث لم تعد لها القدرة على إقلاق راحتى . انها هموم طفيفة لا تستطيع أن تؤثر فى نفسى أكثر مما تستطيع ريشة تقع فى النهر أن تغير من اتجاه مجرى الماء فيه . وقد أدركت ان العودة الى تدبر النقاط نفسها التى استقر عندها رأيى من قبل ، كانت لى بمشابهة افتراض معلومات جديدة أو حكم أحسن تكويننا أو تحمس للحقيقة أشد . . . لم يكن لدى حين كنت أبحث عنها . ومادامت واحدة من هذه الحالات لم تكن - وليس من المستطاع أن تكون - حالتى ، فاننى لم أقو على أن أفضل - مستندا الى أى سبب قوى - آراء لم تكن - وأنا رازح تحت أعباء اليأس - تراودنى . . . الا لتزيد من شقائى عن مشاعر اتخذتها فى عنفوان العمر ، والذهن فى تمام نضجه . وبعد دراسة على أكبر قدر من الروية وفى أوقات لم يكن هدوء حياتى ليترك لى من شاغل مقيم سوى التعرف على الحقيقة . واليوم . . . وقلبى يعترضه الضيق ، ونفسى يبهبها السأم ، وخيالى مستوحش ورأسى تضنيها تلك الاحاجى الشنعاء التى

تحيط بي . اليوم . . وقد فقدت ملكاتي جميعا كل ما يحفرها على العمل بعد ان انهكتها الشيخوخة والفرع ، فأسلب نفسي من غير داع كل الموارد التي هيأتها لذاتي ؟ واكون اكثر اطمئنانا الى عقلى المشرف على الافول ليجعلنى تعسا بغير وجه حق منى . . الى عقلى الكامل القوى ليعوضنى عن الآلام التي أتحملها دون أن أستحقها ؟ لا . . اننى لم أكن أكثر حكمة ولا أغزر علما ولا أفضل ايمانا الا عندما قطعت برأى فى هذه الامور الكبرى . . اننى لم أكن أجهل اذ ذاك الصعاب التي ادعها اليوم تثير ضيقى . انها لم تستوقفنى ولئن عرض منها جديد لم يكن قد استرعى انتباه أحد من قبل . . فما ذلك الا السفسطة ذات التخريجات الميتافيزيقية التي لا يمكنها ان تززع الحقائق الخالدة المتفق عليها فى كل العصور ومن كل الحكماء ، والاعتراف بها بين جميع الشعوب والمنقوشة فى كل قلوب البشر بحروف لا يمكن أن تمحى . . وكنت أعلم - وأنا أتدبر تلك الامور - أن الفهم الانسانى الذى تحدده الحواس لم يكن يستطيع الاحاطة بها من جميع نواحيها . . واذن فقد استمسكت بما وسعت طاقتى دون أن ارتبط بما وراءها ، وكان هذا المسلك معقولا فلزمته فيما مضى وتمسكت به وقد ارتضاه عقلى وقلبى معا . . فعلى أى أساس أتخلى عنه اليوم بعد ان أصبحت توجب على الارتباط به دوافع قوية ؟ ترى أى خطر أراه فى اتباعه ؟ وأية مزية تعود على من وراء التخلي عنه ؟ اذا ما اعتنقت مذهب مضطهدى ، أفكنت كذلك أعتنق مبدأهم الخلقى ؟ ان هذا المبدأ - ولا أصل له ولا نتيجة - الذى يعرضونه مطمئنين به فى كتب أو مواقف مسرحية دون أن ينفذ شيء منه البتة الى القلب أو الى العقل . . أو بالأحرى هذا المبدأ الآخر الخفى المتعنت . . أعنى التعاليم السرية لجميع الاتبساغ التي ليست الأخرى سوى قناع لها ، والتي هى رائدهم فيما يسلكون وفيما مارسوه معى بكل ذلك الدهاء . . ان هذا المبدأ الخلقى - وهو مبدأ هجومى بحت - لا يجدى مطلقا فى حالة الدخاع ولا يمكن أن يفيد الا فى العدوان . . فقيم اذن كان يعود على بالنفع فى الحالة التي انتهوا بي اليها ؟ ان براءتى وحدها هى التي تساندى فى المصائب ، وكم كنت أزيد من شقائى كذلك لو اننى استبدلتها بنزعة شر وأنا أحرم نفسى من هذا المورد الوحيد . . القوى مع ذلك . . أفكنت أصل الى مرتبتهم فى فن الاساءة ؟ واذا ما توصات الى ذلك فمن أى ألم قد يريحنى ما أستطيع ان أوجهه اليهم ؟ اننى بهذا قد أفقد احترامى لنفسى ولن أكسب شيئا بدلا منه .

وهكذا بمناقشة الامر مع نفسى عولت على ألا ادعنى أتا رجح فى

مبادئ تفوق طاقتي وربما طاقة العقل البشرى . أما عقلي وقد استقر عند أوطنه أساس استطعت أن أهينه له ، فقد اعتاد تماما على أن يستكين لها في حمى ضميري ، حتى أنه لم يعد في استطاعة أى مذهب غريب قديم أو مستحدث أن يستثيره ، أو يعكر من صفوى لحظة واحدة . وحين حل بى الفتور وركود الذهن ، نسيت حتى الحجج التى كنت أقيم عليها أسس عقيدتى ومبادئى ، ولكننى لن أنسى أبدا النتائج التى استخلصتها منها برضا ضميرى وعقلى وسأتمسك بها منذ الآن . فليتقدم كل الفلاسفة ليقارعوها ، وسيضيع عليهم وقتهم وجهدهم . اننى متمسك فيما بقى من حياتى فى كل الامور بما اتخذته من رأى عندما كنت فى حالة تمكننى من حسن الاختيار .

وبعد أن سكنت الى هذه التدابير وجدت فيها - ونفسى راضية - الأمل والعزاء اللذين أحتاج لهما فى موقفى هذا . وليس من الممكن الا تلقى بى أحيانا فى غمار اليأس عزلة مطلقة متواصلة كثيبة فى ذاتها، وضغن بين من جميع أبناء الجيل الحاضر مشوب على الدوام ، ومهانات يميلونها على باستمرار . ولم يزل أمل المزعزع وشكوكى المثبطة تعاودنى من وقت لآخر لتزعج نفسى وتملاها شجنا . أما وقد عجزت عن ممارسة التفكير اللازم لاطمئن نفسى بنفسى ، بما أحس به ، من حاجتى الى تذكر قراراتى القديمة : ذلك لان العناية والحرص وخلوص القلب ، تلك التى آليت على نفسى التزامها عند اتخاذ هذه القرارات ، تعاودنى ذكراها وترد الى كل ثقتى ، وهكذا أمتنع عن تقبل أية آراء جديدة ، وكأنما هى اخطاء مشئومة ليس لها سوى المظهر الخادع وكأنما ليس من شأنها الا اطلاق راحتى .

وهكذا وقد احتبست داخل حيز ضيق من معلوماتى القديمة لم يعد لدى كما كان الامر مع « سولون » فرصة القدرة على التعلم كل يوم ، والعمر يتقدم بى ، بل يجب على أن أجنب نفسى الغرور الخطر الذى يدفعنى الى الرغبة فى معرفة ما أنا منذ اليوم عاجز عن الايام به تماما . ولكن اذا ما بقيت أمامى بعض مفانم من معلومات نافعة أمل فى الحصول عليها ، فان على بعند ذلك أن أسعى وراء شئ له أهمية ، وذلك من ناحية الفضائل الضرورية لحالتى . وعندئذ يكون قد حل الوقت المناسب للتزويد روحى وتزيينها بمفهم تستطيع أن تحمله معها عند تحررها من هذا الجسد الذى يفشيها ويعميها .

وبرؤيتها للحقيقة سافرة ستدرك مدى تفاهة جميع المعلومات التي يزعمونها إلى هذا الحد علماً أننا المزيّفون .. ستنوح روي على تلك اللحظات التي ضيعتها في هذه الحياة رغبة في كسبها. ولكن الصبر والوداعة والاستسلام والاستقامة والعدالة المطلقة كل أولئك ألوان من الثراء يحملها الإنسان معه تستطيع أن تزيد من ثرائه باستمرار دون أن يخشى أن يفقدها قيمتها .. حتى الموت نفسه • اننى أكرس البقية الباقية من شيخوختى لهذه الدراسة الوحيدة النافعة وكم أكون سعيداً لو أننى تعلمت ، بما أحرزت من تفوق على نفسى ، كيف أخرج من الحياة .. لا خيراً مما دخلتها .. فان هذا ليس ممكناً .. ولكن أكثر فضيلة •

الرحلة الرابعة

من بين الكتب القليلة التي لا تزال أقرأها أحيانا كتاب «بلوتارك» (١) الذى يجذبني اليه ويستحوذ على أكثر من غيره . لقد كان أول ما طالعت في طفولتي (٢) ، وسيكون آخرها في شيخوختي . فهو تقريبا المؤلف الوحيد الذى لم أقرأ له مرة واحدة الا وجنيت من ذلك فائدة ما . ولقد كنت أول أمس أطالع فى مؤلفاته الاخلاقية رسالة عن «كيف يفيد الانسان من أعدائه ؟ » *Comment on pourra tirer utilité de ses ennemis ?* وفى اليوم نفسه حين كنت أقوم بترتيب بعض الكراسات التى بعث بها الى المؤلفون ، وقعت عيني على احدى يوميات الراهب « R. (٣) » التى فى عنوانها هذه الكلمات « الى من يكرس حياته للحقيقة » (٤) .
Vitam vero impendenti, R.

ولما كنت بالغ اليقظة ازاء مداورات هؤلاء السادة بحيث أدعها هذه المرة دون أن أرد عليها بمثلها ، فقد أدركت أنه اعتقد تحت هذا الستار من الادب انه يستطيع ايلامى بالتجنى على الحقيقة ولكن على أى أساس كان ذلك ؟ ولم هذا التهكم ؟ وأى موضوع كنت أستطيع أن

(١) بلوتارك Plutarque مؤرخ اغريقى قديم كتب كتابا عن « حياة مشاهير الرجال » وكان له اثره على تفكير روسو طيلة حياته .

(٢) كتب روسو خطابا الى مالزرب Malesherbes بتاريخ ١٢ من يناير ١٧٦٢ فيه « وقع بلوتارك تحت يدي وانا في السادسة من عمري وحفظته من ظهر قلب وانا في الثامنة » .

(٣) هو الأب روزيه l'Abbé Rozier طبقا لما ورد في مخطوط نبوشائل وإن ورد الاسم في طبعة *Bibliothèque indépendante d'Édition* (عام ١٩٠٥ ص ١١٤) تحت اسم رويو Royou وفي الخطاب رقم ٨ من روسو الى لانوريت *La tourette* هو الراهب الذى خرج روسو معه في رحلات استعشاب عام ١٧٨٨ وللراهب مؤلف هو : *Voyage à l'île des Peupliers*

(٤) *Vitam vero impendenti* أى « الذى يكرس نفسه للحقيقة » - وهو الشعار الذى اتخذه روسو ورد أيضا في حاشية خطابات من (الجيل) *Lettres de la Montagne*

أضمنه اياه ؟ ورغبة منى في تحقيق الفائدة من دروس « بلوتارك » فقد اعترفت ان أكرس جولة الغد لاقوم باختبار نفسى من ناحية الكذب ، وانتهيت فى ذلك الى تأكيد الرأى المسلم به من قبل وهو « اعرف نفسك بنفسك » شعاع معبد « دلف » لم يكن مبدأ من الميسور اتباعه على نحو ما كنت أعتقد فى « اعترافى » .

وفى اليوم التالى عندما هممت بالسير لتنفيذ هذا القرار ، كانت أول فكرة راودتنى حين بدأت أجمع شتات نفسى ، فكرة الأكذوبة الشنعاء التى ارتكبتها فى مستهل شبابى (١) ، وعكرت ذكراها صفوى طوال حياتى ، ولا تزال حتى فى شيخوختى تدفع بالحزن الى قلبى على ما به من احزان سببتها له عوامل أخرى . ان تلك الاكذوبة ، التى كانت فى حد ذاتها جرما كبيرا لا بد وانها كانت أفظع جرم أيضا بما ترتب عليها من آثار جهلتها دائما ولو أن الندم صورها لى أشد ما يمكن أن تكون قسوة . ومع ذلك ، فلو لم أدخل فى الاعتبار سوى الحالة التى كنت عليها حين ارتكبتها ، فان تلك الاكذوبة لم تكن سوى نتيجة خذى شائن ، وأبعد ما تكون عن قصد الاساءة الى من كانت ضحية لها ، ويمكننى ان افسم امام وجه الله أنه فى اللحظة نفسها التى كان ينتزعها هذا الخذى الذى لا يقهر ، وددت لو بذلت كل دمي راضيا لأحول أثرها الى وحدى ، ان هذا لون من ألوان الهذيان لا أستطيع أن أفسره الا بقولى - كما أظننى أحسه - انه فى تلك اللحظة قهرت طبيعتي الخجول كل أماني قلبى . ان ذكرى تلك الفعلة التعسة ، والندم الذى لا يخبو أواره الذى حلقته لى ، بثت فى نفسى من ناحية الكذب نفورا كان حريا أن يجنب قلبى هذه الرذيلة بقية حياتى . وعندما اتخذت شعارى ، كنت أحس بأننى مهيا لان أستحقه ولم يكن لدى شك فى أننى لست جديرا به حين بدأت أختبر نفسى فى جدية أكثر على ضوء مقالة الراهب « ر ٠٠٠ »

وعندئذ دهشت جدا - وأنا أفحص نفسى فى عناية متزايدة - لكثرة ما اخترعت مما كنت أذكر اننى قلت على أنه الصدق ، فى الوقت نفسه الذى كنت - وانا مزهو فى قرارة نفسى بحبى للحقيقة - أضحى فى سبيلها بسلامتى ، ومصالحى ، وشخصى ، بعدم تحيز لا أعرف له ضريبا بين البشر . وكان أشد ما أثار الدهشة فى نفسى ، هو اننى عند تذكرى لتلك

(١) المقصود هنا حادثة سرقة شريط ترك روسو الاتهام فيها ينصب على الخادمة ماريون Marion ، وجاء فى « الاعترافات » فى الكتاب الثانى ان روسو كان قد سرق شريطا « بلون الورد والفضة » ، أما ماريون التى ألقى عليها التهمة فهى طباحة لدى مدام دو فرسليس Mme de Vercellis

الأمور المختلفة ، لم أكن أحس ازاءها أى ندم حقيقى . . وأنا من ليس فى قلبه مكان للتردد فى الاشتمزاز من الزيف . أنا من قد يخوض ألوان التعذيب لو أن تجنبها ما كان يستدعى الكذب . . أى تناقض عجيب ذلك الذى كان يدفعنى الى الكذب مختاراً ودون موجب وبلا فائدة تجنى؟ وأى تعارض غير معقول ذلك الذى يجعلنى لأحس مع ذلك بأدنى أسف . . أنا من لم يكف الندم على أكتوبة واحدة عن ايلامه طيلة خمسين عاماً ؟

اننى لم أكن أبداً عنيدا ازاء أخطائى ، وكان لى فى الوازع الخلقى خير رائد . وقد احتفظ ضميرى بنقاؤه الاول ، وحتى لو ان التغيير تناوله ادعانا منه لمصالحى فكيف يتأتى له وهو محتفظ باستقامته فى الظروف التى يستطيع الانسان - وقد قهرته عواطفه - أن يعتذر على الاقل بضعفه ؟ كيف يتأتى له أن يفقد هذه الاستقامة فى ما لا أهمية له من الأمور فحسب حيث لا يكون للرديلة مبرر مطلقاً ؟ لقد وجدت أنه على حل تلك المسألة تتوقف سلامة الحكم الذى كان على أن أطبقه هنا على شخصى . وهاهى ذى الوسيلة التى مكنتنى من تفسيرها لنفسى بعد أن درست تلك المسألة دراسة وافية

أذكر أنتى قرأت فى كتاب للفلسفة أن الكذب هو اخفاء حقيقة يجب اظهارها . ويترتب تماماً على هذا التعريف أن السكوت عن قول الحق الذى لا يكون المرء مضطراً للجهر به لا يعد كذباً ، ولكن من لا يقنع فى مثل تلك الحالة بسكوته عن قول الحقيقة فيذكر ما يخالفها ، أكون عندئذ كاذباً أم غير كاذب ؟ انه - طبقاً للتعريف - لا يمكن أن يقال انه كاذب ، ذلك لانه اذا أعطى عملة زائفة لشخص هو ليس مديناً له بشئ فانه يخدع ذلك الشخص - ما فى ذلك من شك - ولكنه لا يسرقه . ويعرض هنا سؤالان كلاهما بالغ الأهمية يستدعيان البحث . أما السؤال الاول فهو : متى وكيف يجب قول الحقيقة للآخرين مادام ليس من الواجب قولها دائماً ؟ وأما السؤال الثانى فهو ما اذا كانت هناك حالات يمكن أن يخدع المرء فيها غيره بحسن نية .

ان هذا السؤال الثانى أمر قطع فيه - وأنا أعلم ذلك تماماً - نفيًا فى الكتب حيث لا يكلف أشد مبادئ الاخلاق تزمها المؤلف شيئاً ، ويجابا فى المجتمع ، حيث لاتعدو مبادئ الاخلاق التى تنادى بها الكتب أن تكون ثرثرة تستحيل ممارستها . فلأدع اذن جهات الاختصاص هذه فى تضاربها ولابحث لنفسى عن حل لهذه الاسئلة عن طريق مبادئ الشخصية .

ان الحقيقة العامة المجردة هي أغلى ما يملكه المرء . فبدونها يغدو أعمى ،
 انها العين البصرة للعقل ، عن طريقها يتعلم المرء السلوك ، ويصبح
 ما يجب أن يكونه ، ويعمل ما يجب عليه عمله ، وكيف يصل الى هدفه
 الحقيقي . اما الحقيقة الخاصة والفردية فليست خيرا دائما ، فقد تكون في
 بعض الاحيان شرا ، وهي في أغاب الأمر شيء لا هو خير ولا هو شر .
 أن الامور التي تهم المرء معرفتها ، والتي تكون الدراية بها ضرورية لاسعاده ،
 قد لا تكون كثيرة العدد ، ولكن مهما يكن من أمر عددها فانها تعتبر ملكه
 الخاص ، له الحق في المطالبة به حيثما يجده ، ولا يمكن لأحد أن يهضمه
 هذا الحق دون أن يرتكب أحسن أنواع السرقات ، أذاتها - أي تلك الامور -
 من تلك الملكيات التي يشترك فيها الجميع والتي لا يحرم شيوعها البتة
 واهبها هذا الحق .

أما بالنسبة للحقائق التي ليست لها منفعة من أى نوع ، لا علما
 ولا عملا ، فكيف يمكن أن تعد ملكا واجبا مادامت ليست لها حتى صفة
 الملك ؟ ومادامت الملكية لا تقوم الا على أساس المنفعة ، فحيث تنعدم المنفعة
 لا يمكن أن تكون هناك ملكية .

ان المرء يستطيع ان يطالب بقطعة ارض ولو كانت مجذبة لانه يمكنه
 على الاقل ان يقيم عليها ، ولكن أن تكون واقعة ما ، عقيمة ليست ذات بال
 من كافة الاعتبارات وليس لها من أثر على أى انسان ، أن تكون صحيحة
 أو زائفة فان هذا لا يهم كائنا من كان . وليس هناك فى مجال المعنويات
 شيء غير ذى منفعة ويستوى فى ذلك مجال الماديات ، اذ لا يمكن أن يعد
 حقا واجبا مالا ترجى فائدة من ورائه ، ولكى يصبح الشيء واجبا . . يجب
 أن يكون - أو أنه يمكن أن يكون - نافعا . وهكذا تكون الحقيقة الواجبة هي
 تلك التى تفيد العدالة ، وانه لتدئيس - لسمى الحقيقة المقدس - ان نطلقه
 على العقيم من الامور التى لا يهم الجميع وجودها ، كما أن معرفتها غير مجدية
 فى أية ناحية . والحقيقة ان تجردت من أية فائدة ، ولو كانت ممكنة
 لا يجوز أن تكون اذن شيئا واجبا ، وبالتالي لا يكون من يسكت عنها او
 يموهها كاذبا البتة .

ولكن هناك من الحقائق ما هي عقيمة تماما بحيث تكون عديمة النفع
 فى أى شيء ومن جميع الوجوه ؟ ان هذه مسألة أخرى تستحق المناقشة ،
 وسأعود اليها فورا . أما الآن فلننتقل الى السؤال الثانى .

إن عدم ذكرها - مع أنه حق - والجهر بالكذب أمران مختلفان جد
 الاختلاف ، ولكن يجوز أن ينبجم عنهما مع ذلك الأثر نفسه ، ذلك لأن هذه

النتيجة هي بالتأكيد النتيجة نفسها كلما كان هذا الاثر معدوما . وحيثما لا يهمل قول الحقيقة فان قول الخطأ الذي يقابله لا يكون مهما كذلك ، ومن ثم فانه في مثل تلك الحالة لا يعد من يخدع الناس بقول ما يناقض الحقيقة أشد ظلما من ذلك الذي يخدعهم وهو لا يجهر بها لانه في حالة الحقائق غير المجدية لا يكون الخطأ أسوأ من الجهل . وانني لو اعتقدت أن لون الرمال في قاع البحر أبيض أو أحمر ، فان ذلك لا يهمني أكثر مما يهمني الجهل بلونها الفعلي . وكيف يتأتى للمرء أن يكون ظالما وهو لا يؤذى أحدا ، ما دام الظلم لا يكون الا بلاسوءة للآخرين ؟ ولكن هذه الاسئلة ، وقد قطعت فيها بهذا الاجاز ، لا تستطيع أن تزودني كذلك بما يضمن لي تطبيقها من الناحية العلمية دون أن يسبقها ايضاح كثير ضروري حتى يكون التطبيق سليما في جميع الحالات التي قد تعرض ، ذلك لانه اذا ما كان الالتزام بقول الحقيقة لا يقوم الا على أساس النفع المرجو من ورائها ، فكيف لي أن انصب من نفسي حكما على هذا النفع ؟ ان ما يجنيه المرء من مزية يكون ضارا في أغلب الامر بغيره ، فالمصلحة الخاصة غالبا ما تتعارض مع المصلحة العامة ، فكيف يسلك الانسان في هذه الحالة ؟ أيجب أن يضحي بالنفع الذي يعود على الغائب في سبيل نفع يعود على المخاطب ؟ أيجب السكوت أم الجهر بالنسبة للحقيقة التي اذ تنفيذ امرأ تؤذى آخر ؟ أيجب أن نزن كل ما يجب قوله بميزان الصالح العام فحسب أم بميزان العدالة الفردية ؟ وهل أنا مطمئن الى أنني أعرف جيدا كل ما له صلة بهذا الامر حتى لا أتصرف فيما لدى من معلومات الا على أساس قواعد العدالة ؟ بل أكثر من ذلك : هل قمت بفحص كاف لما يجب على الانسان نحو نفسه ، وما يجب عليه ازاء الحقيقة المجردة لذاتها ، وأنا أتحرى ما يجب عليه نحو الآخرين ؟ لئن لم أسبب لانسان آخر أى ضرر عن طريق الخديعة ، أفيستبع ذلك ألا يصيبني ضرر مطلقا من وراء ذلك ؟ وهل يكفي ألا أكون ظالما أبدا لاكون بريئا دائما؟

كم من مناقشات محيرة يكون من الميسور التخلص منها بقولنا لأنفسنا : « فلنلزم دائما جانب الحق ، معرضين أنفسنا لكل ما قد يحدث من جراء ذلك . ان العدالة نفسها كامنة في صديق الأمور ، والكذب ظلم دائما كما ان الخطأ خداع دائما ، وذلك عندما يقول المرء ما لا يتفق وأصول ما يجب عايه عمله أو الايمان به . ومهما يكن الاثر الذي يترتب على قول الحقيقة ، فالمرء يكون دائما غير مذنب اذا ما قالها لانه لم يصف اليها شيئا من عنده » .

ولكن ذلك حسم للمسألة دون حلها . اذ لم يكن المطلوب بيان ما اذا كان من الخير دائما قول الحقيقة ، وانما ما اذا كان الانسان ملزما كذلك

بالجهر بها دائما . ثم انه ، على ضوء التعريف الذى كان محل دراستى ، مفترضاً النفسى ، وهو التمييز بين الحالات التى يتحتم قول الحقيقة فيها ، وبين تلك التى يمكن السكوت عنها دون ان يحيق الظلم بأحد ، وتوبيهها دون ان يعد ذلك كذبا : ذلك لأننى وجدت أن مثل هذه الحالات قائمة فعلا ، ومن ثم فالمطلوب هو البحث عن قاعدة مؤكدة تؤدى الى معرفتها وتحديدها تحديدا دقيقا .

ولكن من أين نستخلص تلك القاعدة والدليل على سلامتها ؟ لقد وجدت نفسى دائما فى جميع المسائل الخلقية العسيرة مثل هذه ، أكثر استعدادا لحلها بوحى من ضميرى ، منى ، بهدى من عقلى . ولم يحدث أبدا أن ضللتنى غريزتى الخلقية ، فقد ظلت حتى الآن محتفظة بنقاها فى قلبى بالقدر الذى أستطيع معه أن أركزن اليها ، ولئن سكنت أحيانا أمام انسياقى لعواطفى فى سلوكى ، فإنها تستعيد سيطرتها تماما عندما أستعرض ذكرياتى . وعندئذ أحاسب نفسى حسابا قد يبلغ فى عسره حساب القاضى الاعظم بعد هذه الحياة .

ان الحكم على أحداث الناس على ضوء ما يتخلف عنها من آثار هو فى أغلب الاحيان اساءة تقدير لها ، فضلا على أن هذه الآثار ليست دائما ملموسة ومن الميسور معرفتها ، فهى تتغير دائما مثلما تتغير الملابسات التى تلقى فيها تلك الاحاديت ومع ذلك فلا يقدر قيمتها أو يحدد مدى ما بها من مكر أو طيبة قلب الا قصد ملقيها وحده . فقول الخطأ لا يعد كذبا الا أن كان بقصد التضليل ، والقصد نفسه من التضليل ، فى بعده من ان يكون دائما مضحوبا بقصد الاضرار ، يكون له أحيانا هدف معتاد تماما . ولكن لكى نسمة أكذوبة بالبراءة ، لا يكفى ألا يكون القصد من الاضرار واضحا ، بل يجب علاوة على ذلك التأكد من أن الخطأ الذى يقع فيه المخاطبون ، لا يستطيع أن يسبب لهم أو لاي كان ضرا بحال من الاحوال . انه لمن النادر والعسير أن يصل المرء الى ذلك التأكد ، ولذا فانه من العسير والنادر كذلك أن تكون هناك أكذوبة بريئة تماما . ان الكذب الذى يستهدف النفع الشخصى خداع ، والكذب لنفع الغير غش ، وأما الكذب من أجل الايذاء فهو افك : انه أسوأ أنواع الكذب . والكذب الذى لا ينطوى على مصلحة أو اضرار بالنفس أو بالآخرين ليس كذبا : انه ليس أكذوبة بل هو توهم .

وتسمى القصص الخيالية ذات الموضوع الاخلاقى عبرا أو حكايات ، ولما كان موضوعها ليس - ولا يجب أن يكون - سوى غلاف يضم حقائق نافعة فى صور ملموسة لطيفة ، فان المرء لا يستمسك اطلاقا فى مثل هذه

الحالة باخفاء كذب الواقعة ، الذى ليس سوى دثار للحقيقة ، ومن لا يروى حكاية خيالية الا من أجل الحكاية نفسها فليس بكاذب بحال من الاحوال .

وهناك قصص ثيخالية أخرى بالغة أقصى التفاهة ، مثل ذلك معظم القصص والروايات التى لا تستهدف سوى التسلية اذ أنها تخلو من أى تثقيف حق . وتلك التخيلات - وقد تجردت من أية فائدة خلقية - لا يستطيع ادراك قيمتها الا اذا عرف قصد مخترعها ، وهو حين يرويهها مؤكدا ايها كأنما هى حقائق واقعة ، لا يسع المرء اطلاقا أن ينكر أنها أكاذيب حقة . ومع ذلك فمن ذا الذى عنى كثيرا بتلك الاكاذيب ، ومن ذا الذى وجه يوما الى قائلها لوما عنيفا ؟ لئن كان هناك ، على سبيل المثال ، مرمرى خلقى فى قصة « معبد نيسد (١) Le Temple de Gnide » فان هذا المرمرى قد حجبته تماما وأفسدته التفاصيل الماجنة والصور الخليعة . ماذا فعل المؤلف ليغطفى ذلك بطلاء من التواضع ؟ لقد تظاهر بأن مؤلفه كان ترجمة لخطوط يونانى وسرد قصة اكتشاف هذا المخطوط على خير وجه يستطيع به اقناع قرائه بصدق روايته . فلئن لم يكن فى ذلك كذب ايجابى أكيد ، فلتقولوا لى ما هو الكذب اذن ؟ ومع ذلك ، فمن ذا الذى فطن الى جريمة المؤلف فى هذه الاكذوبة ، والى اعتباره من أجل ذلك مخادعا عبثا . ان الامر لا يعدو أن يكون دعاية ، وان المؤلف - وهو ماض فى تأكيده - لم يكن راغبا فى اقناع أحد ، بل انه فى الواقع لم يقنع أحدا ، وان الناس لم يشكوا لحظة واحدة فى أنه هو مؤلف الكتاب نفسه الذى زعم أنه يونانى والذى قدم نفسه ك مترجم له . وسأرد على ذلك بأن مثل تلك الدعاية التى لا هدف من ورائها لم تكن سوى عمل صبيانى تافه . وبأن الكاذب لا يكون أقل كذبا عندما يؤكد ما يقول ، مع كونه غير مقنع ، وبأنه يجب أن نستبعد من الجمهور المثقف ، كثرة من القراء السذج البسطاء ، الذين اعتقدوا فى صدق قصة المخطوط ، وقد رواها لهم مؤلف جاد ، وباهجة واثقة ، والذين شربوا دون خشية ، من كأس عتيقة الصورة ، السم الذى لو قدم لهم فى اثناء حديث لكان من الممكن على الاقل أن يتشككوا فيه .

وسواء وجدت تلك التفرقة فى الكتب أو لم توجد ، فانها كائنة فى قلب كل انسان واثق من نفسه ، لا يود أن يجيز لنفسه شيئا يستطيع ضميره أن يلومه بسببه ، ذلك لان قول الزور لمصلحة شخصية لا يقل كذبا عن الجهر به بقصد الاضرار بالغير ، وان كانت الاكذوبة أقل جرما .

(١) معبد نيسد ، او معبد فينوس Le Temple de Gnide Venus هو رواية غرامية

لمونتسكيو Montesquieu

أن منح ميزة لمن لا يستحقها اخلال بمجرى العدالة ، وأن ينسب شخص لنفسه أو لغيره - زورا - عملا قد ينجم عنه نيباء أو تفرع ، اتهام أو تبرئة ، لهو إجراء ظالم . وعلى ذلك ، فإن كل شيء بمخالفته للحقيقة - يخدش العدالة على أية صورة - كذب . ذلك هو الحد الدقيق ، ولكن كل ما يناقض الحقيقة ولا شأن له بالعدالة بأية حال ليس الا من خلق الخيال . واني أعترف أن أى امرئ يلوم نفسه على توهم محض ، عده كذبا ، له ضمير أشد حساسية من ضميرى .

ان ما يسميه الناس أكاذيب المجاملة هي أكاذيب حقيقية ، ذلك لان من يضلل اما لمصلحة الغير أو لمصلحة نفسه ، ليس أقل ظلماً ممن يضلل ملحقاضرا بنفسه . وان أى امرئ يمتدح أو يلوم مخالفا للحقيقة يعد كاذبا اذا ما وجه ذلك الى شخص حقيقى . أما اذا كان ذلك موجها الى كائن خيالى فانه يستطيع أن يتحدث عنه بكل ما يريد دون أن يكذب ، على ألا يحكم على مغزى الوقائع التى يخلتها ، وألا يصدر عليها حكما خاطئا : اذ أنه عندئذ ، ولو لم يكن كاذبا فى الوقائع ، فانه يرتكب الكذب ضد الحقيقة الاخلاقية ، تلك الحقيقة التى يجب احترامها مائة مرة أكثر من حقيقة الوقائع .

لقد صادفت فى الحياة أشخاصا ممن يسمون بصادقين . ان كل صدقهم يستند فى الحادثات التافهة وهم يسردون فى أمانة الامكنة والاقوات والاشخاص ولا يسمحون لانفسهم بأى تخيل ، ولا ينسجون أية ملابس من الخيال ، ولا يبالغون فى شيء . وهم فى كل ما لا يمس مصلحتهم ، يلتزمون فيما يقصون الامانة المطلقة . ولكن ما أن يتطلب الامر معالجة مسألة تهمهم ، أو رواية واقعة ما تمسهم من قريب ، فانهم يستخدمون كافة الالوان ليعرضوا الاشياء على النحو الذى يكون أكثر نفعا بالنسبة لهم . واذا ما كان الكذب مفيدا لهم - وان كانوا يتجنبون قوله بانفسهم - فهم يجذونه فى لباقة ، ويعملون على أن يلتزمه الآخرون دون أن يتمكن أحد من نسبته اليهم . هذا ما يوجبه الحرص : وداعا أيها الصدق .

أما الانسان الذى أسميه « صادقا » فهو يفعل عكس ذلك تماما . ففي الامور التى لاتعنيه بتاتا ، فان الحقيقة - التى يحترمها الغير حينئذ احتراماً شديداً - لا تؤثر فيه الا بقدر ضئيل جدا ، كما أنه لا يعنى أبدا بتسليّة جماعة من صحابه بوقائع مختلفة لا ينجم عنها أى حكم خاطيء ، لصالحه أو ضد - أى من الناس حيا كان أو ميتا . ولكن كل حديث يترتب عليه بالنسبة لأى شخص كسب أو خسارة ، تقدير أو اجتنار ، مدح أو

لوم ، يتنافى مع العدالة والحقيقة ، هو كذب لن يجد سبيله أبدا الى قلبه
أو فيه أو يراعه . وهو راسخ في الصدق حتى ولو ضد مصلحته ، ولو
أنه قلما يدعى ذلك في المحادثات التافهة . انه صادق في عدم محاولته
خداع أحد ، وفي أن أمانته على الحقيقة التي تتهمه ، تستوى وأمانته على
الحقيقة التي تشرفه ، وفي أنه لا يضل لصالحه أو للاضرار بعده .
فالفرق اذن بين رجل صادق وغيره هو أن رجل المجتمع يكون بعيد المغالاة
في أمانته بالنسبة لكل حقيقة لا تكلفه شيئا ، ولكنه لا يتجاوز هذا المدى ،
وأما رجلى أنا فهو لا يخدعها أبدا بمثل تلك الامانة اللهم الا حين يرى من
واجبه أن يضحي بنفسه في سبيلها .

ولكن قد يقال : كيف يمكن التوفيق بين هذا التساهل وهذا الحب
الشديد للحقيقة الذي أمجده من أجلها ؟ واذن ، أفهذا الحب زائف ما دام
يستغل كل هذه الشوائب ؟ كلا انه لطاهر وصادق ، ولكنه ليس سوى
مظهر لحب العدالة، ولا يمكنه أبدا أن يكون زائفا ، برغم أنه غالبا ما يكون
خياليا . ان العدل والحق لفظان مترادفان في ذهنه ، يحل الواحد منهما
محل الآخر بدون تفرقة ، والحقيقة المقدسة التي يعدها قلبه ، ليست
وقائع لا قيمة لها ، وأسماء لا طائل وراءها ، ولكنها اعطاء كل ذي حق
حقه فيما يملكه حقيقة ، وفيما ينسب اليه خيرا كان أو شرا ، وما يجزى
به من تشريف أو تقريع ، من ثناء أو استهجان ، وهو ليس مخطئا لا في
حق الغير لان عدالته تمنعه من ذلك ولأنه لا يريد الاضرار بأحد ظلما ، ولا
في حق نفسه لان ضميره يذوده عن ذلك ، ولأنه لا يمكن أن ينتحل لنفسه
ما لا يملكه . ولكنه يغار بصفة خاصة على احترام ذاته ، فهي ملك له وآخر
ما يسعه التخلي عنه . وهو قد يشعر بخسارة حقة ان هو نال احترام
الآخرين على حساب احترامه لذاته . واذن فانه سيكذب أحيانا فيما لا أهمية
له بدون تحرج ودون أن يعتقد أنه يكذب، ولكن هذا لا يحدث أبدا لاحاق
خسارة أو كسب للغير أو لنفسه . أما في كل ما يتعلق بالحقائق التاريخية
وكل ما يمت بصلة بسلوك الناس وبالعدالة وبواجب المعاشرة وبالايضاحات
المفيدة ، فانه يجنب نفسه كما يجنب الآخرين الخطأ ، ما دام ذلك متوقفا
عليه . وكل كذب فيما عدا ذلك ليس كذبا في نظره . واذا كان « معبد
نيد ، Le Temple de Gnide مؤلفا ناعما فان قصة المخطوط اليوناني ليست
سوى تخيل بالغ البراءة ، ولكنها كذبة تستحق العقاب الشديد اذا كان
الكتاب خطرا .

تلك كانت شريعة ضميري فيما يتصل بالكذب والصدق . ولقد كان
قلبي يتبع هذه الشريعة آليا قبل أن يعتنقها عقلي . ولكن الوازع الخلقى

هو الذى قام وحده بتطبيقها . ان الكذبة الاجرامية التى كانت «ماريون» Marion (١) التعمسة ضحية لها ، خلفت لى ندما لا يمضى ، وقانى فيما بقى لى من حياتى ، لا أية أكذوبة من هذا القبيل فحسب ، بل كافة الاكاذيب التى على تنوع صورها ، كانت تستطيع أن تمس صالح وسمعة الغير . ولما جاء الاقناع شاملا على هذا النحو فقد أحللت نفسى من موازنة النفع والضرر موازنة دقيقة ، ومن تعيين الحدود الفاصلة بين الكذب الضار وكذب المجاملة، ولما كنت أعد كليهما اثما ، فاننى حرمتها معا على نفسى .

وسواء فى تلك المسألة أو فيما عداها ، كان لمزاجى تأثير كبير على مبادئى ، أو بالاحرى على عاداتى ، ذلك لاننى لم أتصرف بناتا متبعا قاعدة ما او التزمت قواعد أخرى فى أى شىء سوى دوافع طبيعتى . ولم يحدث مطلقا أن مرت بخاطرى أكذوبة مدبرة ، كما لم يحدث مطلقا أن كذبت سعيا وراء مصلحة شخصية ، ولكننى كذبت كثيرا بسبب الحجل ، أو لا تخلص من المرح فى أمور لا أهمية لها ، أو لم تكن تهم على الاكثر سواى وذلك حين يكون على أن أوصل حديثنا ، فيضطررنى بطء تفكيرى ونضوب حديثى للالتجاء الى التخيل حتى أجد ما أقوله . وحين يكون الكلام ضروريا ولا تعرض لذهنى سريعا حقائق تبعث على التسلية فاننى أقوم برواية حكايات خيالية حتى لا اظل أبكم ، ولكننى أعنى ، عند اختراع هذه الحكايات بقدر ما يسعنى ذلك - ألا تكون أكاذيب بمعنى أنها لا تخدش العدالة ولا الحقيقة الواجبة ، وألا تكون سوى تخيلات لا قيمة لها بالنسبة للناس جميعا ولى . ولقد كان بودى لو أننى استبدلت فيها على الأقل حقيقة الوقائع بحقيقة أخلاقية، أى بأن أصور فيها تصويرا صادقا الاحاسيس الطبيعية للقلب الانسانى ، وأن أستخلص منها دائما درسا نافعا ، وقصارى القول أن أصنع منها قصصا أخلاقية ، وعبرا ، ولكن كان من اللازم لذلك قسط من حضور البدئية أوفر مما أملك ، ومزيد من طلاقة اللسان حتى أستطيع أن أحقق فائدة التعليم من لغو المحادثة ، ذلك لان سيرها فى سرعة تفوق سرعة أفكارى ، وهو يضطررنى دائما الى النطق قبل التفكير غالبا ما أوحى الى بسخافات وتفاهات لم يكن عقلى ليرضى عنها ، وكان قابى ينكرها فى حين أنها تفلت من شفتى ، ولكنها اذ تسبق حكمى الشخصى فانه لا يعود من الممكن اصلاحها بمراقبتها . وانه ليحدث كذلك بسبب هذا الدافع الأول العنيف لمزاجى ، فى لحظات خاطفة غير متوقعة ، أن ينتزع منى الخجل والحياء غالبا أكاذيب لا دخل لارادتى فيها ، ولكنها

(١) ماريون Marion هى الخادم التى أشرنا اليها فى هامش ص ١٢٨ واتهما روسو ظلما بالسرقة .

تسببها مدفوعة بضرورة الاجابة على التور . ان الانطباعة العميقة التي خلقتها ذكرى « ماريون » المسكينه يمكنها أن تمنع دائما الاكاذيب التي تضر بالغير ، ولكن لا يقوى على منع تلك التي يمكنها مساعدتى على التخلص من الحرج حين يكون الأمر متعلقا بى وحدى ، وهى لا تقل معارضة لضميرى ومبادئ من تلك الاكاذيب التي تصنع التأثير فى مصير الآخرين . وانى لاشهد السماء على أنه اذا كان فى استطاعتى فى اللحظة التالية للاكذوبة التي تبرئنى منها وقول الحق الذى يديننى دون أن أسبب لى نفسى مهانة جديدة بتراجعى لفعلت ذلك من كل قلبى . ولكن الحجل من اظهار نفسى على هذا النحو مخطئا يجعلنى أحجم كذلك ، وانى لأندم مخلصا جدا على خطئى دون أن أجرؤ مع ذلك على اصلاحه . ولعل مثلا يفسر خيرا من ذلك ما أريد قوله ، ويبين أننى لا أكذب سعيا وراء المصلحة ولا عن كبرياء بل وأدنى من ذلك عن حسد أو خبث ، ولكن عن حرج وخجل مزر فحسب ، بل وأنا أعلم تمام العلم فى بعض الأحيان أن هذا الكذب مقضوح ولا يمكن أن يجدى بالمرّة : حدث منذ حين أن دعانى السيد ف ٠٠ (١) - بخلاف ما جرت عليه عادتى - على الخروج مع زوجتى وتناول الطعام اثناء النزهة معه ومع السيد ب ... عند السيدة ... وهى صاحبة مطعم ، تناولت هى وابنتاها الطعام معنا . وثناء تناول الطعام خطر للكبرى ، وهى متزوجة من وقت قصير وكانت حاملا ، أن تسألنى فجأة وهى تحديق فى ان كنت قد رزقت بأولاد . فأجبتها وقد احمر وجهى حتى الجفنين أننى لم أنل هذا الحظ ، فابتسمت فى خبث وهى تتطلع الى الجماعة ، ولم يكن كل ذلك خافيا ، حتى على .

ومن الجلى قبل كل شيء أن هذه الاجابة لم تكن أبدا ما كنت أود أن تكون ولو فيما اذا كانت لدى النية عندئذ فى التضليل ، ذلك لأننى تبعا للاستعداد الذى شهدته فى المدعويين ، كنت واثقا تمام الثقة من أن اجابتى لم تغير شيئا من رأيهم فى هذا الامر . لقد كانوا يتوقعون هذا النفى ، بل انهم أثاروه ليستمتعوا بلذة دفعى الى الكذب . ولم أكن من الغفلة بحيث لا أدرك ذلك . وبعد دقيقتين ، لاحظت لى من تلقائها الاجابة التي كان على أن أجيب بها وهى « هذا سؤال تعوزه الحصافة من سيده شابة ، لرجل تقدمت به السن وهو أعزب » . وكنت بتجدتى على هذا النحو ، بغير كذب ودون أن يكون هناك ما يدعو الى الحجل بسبب أى اعتراف ، كنت مستطعا أن أضم الضاحكتين الى صفى ، وألقنها درسا صغيرا كان من شأنه طبعا أن يقلل من وقاحتها فى سؤالى . ولكننى لم أفعل شيئا من

(١) هو السيد فولكييه Foulquier طبقا لما جاء بطبعة Bernard Groethuysen

هذا كله ، ولم أقل أبدا ما كان يجب قوله ، بل قلت ما لم يكن ضروريا ولم يعد على النفع فى شيء . ومن المؤكد ، اذن انه لا عقلى ولا ارادتى أمليا على اجابتي ، بل انها كانت النتيجة الآلية للحرج الذى كنت فيه . لم يغتورنى هذا الحرج قط من قبل بل كنت اعترف بأخطائى بصراحة أكثر مما كان فى ذلك لأننى لم أكن أشك فى أن الناس لا يرون ما يكفر عنها وما كنت أستشعره فى قرارة نفسى ، ولكن نظرة الخبث تشقيقتى وتبحيرتى: لقد ازداد حياتى بازدياد شقوتى ، ولم يحدث أن كذبت الا حياء .

لم يحدث أبدا ان أحسست بنفورى الطبيعى من الكذب أشد مما أحسست به عند كتابة « اعترافى » ، ذلك لأن الاغراء فيها كان من الممكن أن يتكرر ويشتد مهما أبعدتنى ميولى عن هذه الناحية ، ولكن بدلا من أن أكتفم شيئا أو أخفى شيئا مما قد يديننى ، كنت أحس وأنا أفكر بطريقة يشق على شرحها - لعلها بسبب البعد عن كل محاكاة - كنت أحس أن ميلى للكذب عكس الاتجاه المعتاد ، بانهاهم نفسى فى مزيد من التسوية أشد منه بتبرئتها فى مزيد من التسامح ويؤكد لى ضميرى أن محاكمتى فى يوم من الأيام ستكون أقل قسوة مما حكمت به على نفسى . أجل ، اننى أقول ذلك وأحسه باباء وعزة نفس ، ولقد حملت هذا المكتوب حسن نية وصدقا وصراحة بلغت فيها - فى اعتقادى على الاقل - ما بلغه ، بل أبعد مما بلغه ، أى انسان آخر على الاطلاق (١) ، ولاحساسى بأن الخير يفوق الشر ، وجدت من مصلحتى أن أقول كل شيء ، وقد قلت .

لم يحدث أبدا أن قلت أقل مما يجب ، بل انبى قلت أحيانا أكثر مما يجب ، لا فى الوقائع بل فى الملابس ، وهذا النوع من الكذب كاز نتيجة تخبط الخيال أكثر منه فعلا اراديا ، بل اننى لأحيد عن جادة الصواب أن أسميته كذبا ، ذلك لا لأن واحدة من هذه الاضافات لم تكن كذبا . لقد كنت أكتب اعترافى بعد أن تقدمت بى البسن (٢) ، وبعد أن

(١) قال روسو فى مستهل « الاعترافات » : « لقد صورت نفسى على حقيقتها : فى نعتها وزراتها . وفى صلاحها وحصانة عقلها ، وسموها تبعا للحال التى كنت فيها . . لقد كشفت عن أعماق أغوار نفسى ، كما كنت أنت تراها ، ابها الخالد الحشد الذى لا حصر له من ابناء جنسى ، ودعمهم يصفون الى اعترافى ، فثرون لخستى ، ويخجلون لثالبى . ثم ادع كلاً منهم الى ان يتكشف بدوره - ويعين الصراحة - أسرار قواده ، عند قوائم مرشك ، وليقل ان جرؤ : « لقد كنت خيرا من ذلك الرجل » .

(٢) - بدأ روسو كتابة « الاعترافات » Les Confessions عام ١٧٦٥ أى كان يبلغ اذ ذاك الثالثة والخمسين .

اشمأزت نفسي من المتع الباطلة في الحياة تلك المتع التي كنت مررت بها جميعا من قبل ، والتي أحس قلبي تماما بتفاهتها . كنت أكتبها من الذاكرة ، وكثيرا ما كانت تلك الذاكرة تخونني أو لا تمدني إلا بذكريات ناقصة ، فكنت أسد الثغرات بتفاصيل كنت أتخيلها بالإضافة الى تلك الذكريات ، وان لم تكن متعارضة معها أبدا . كنت أحب أن أتوسع في تناول اللحظات السعيدة في حياتي ، وكنت أجملها أحيانا بمجملات كان يزودني بها أسفى عليها . كنت أردد ما أكون قد نسيتته كما كان يبدو لي أنها لا بد كانت كذلك في رأيي ، أو كما لو كان من الجائز أن يحدث في الواقع ، ولكن ليس بعكس ما كنت أتذكرها عليه أبدا . وكنت أسبغ أحيانا على الحقيقة مفاتن غريبة عليها ، ولكن لم يحدث مطلقا أن أحللت الكذب مكانها لأموه على ردائي أو لأنتحل لنفسي فضائل .

وإذا ما حدثت في بعض الأحيان أن أخفيت - دون أن أفكر في الأمر بدافع غير ارادى - الناحية الشوهاء ، مصورا نفسي تصورا جانبيا ، فإن هذا الكتمان كان يستعاض عنه تماما بكتمان آخر أشد غرابة كثيرا ما جعلني أحرص على الامساك عن ذكر الخير في عناية أشد من حرصى على كتمان الشر ، وهذه غرابة في طبعي لا بد أن يغتفر للناس عدم تصديقها ، ولو أنها - على بعدها عن التصديق الا أنني أتصورها - انني كثيرا ما قلت الشر بكل حقارته ، ونادرا ما قلت الخير بكل ما فيه من جمال ، وكثيرا ما كتمته تماما لانه كان يسبغ على شرفا زائدا ، ولأننى - اذ كنت أسجل اعترافاتي - كنت خليقا أن أبدو كمادح نفسه . لقد وصفت أيام شبابي دون أن أزهى بالحصال الحميدة التي وهب اياها قلبي ، بل وبحذف الوقائع التي كانت تجعلها واضحة تماما . واني لأذكر منها الآن واقعتين حدثتا في طفولتي الباكورة مرتا بذكريتي وأنا أكتب ولكنني أغضيت عنهما للسبب الوحيد الذى ذكرته الآن .

كنت أقضى طيلة نهار أيام الاحاد تقريبا في « باكى » Paquis لدى السيد فازى Fazy الذى كان متزوجا من اخدى عماتى ، والذى كان يمتلك هناك مصنعا للشيت الهندى . وفى يوم كنت بالمنشر فى حجرة الجندرة أتطلع الى اسطوانات من حديد الزهر وكان بريقها يمتع ناظرى وقد زين لي أن أضغ عليها أصابعى وأخذت أمرها فى استمتاع على صفحتها المصقولة ، حين جاء « فازى » الصغير وأدخل نفسه فى العجلة وأدارها ثمن دورة باحكام حتى لم يأخذ الا طرفي أطول أصابع يدي ، ولكن كان هذا كافيا لأن يستحق الطرفين مع بقاء الظفرين فيها ، وصرخت صرخة حادة فأرجع « فازى » العجلة للثو ولكن الأظافر بقيت بالاسطوانة ،

وانسال الدم منهمرا من أصابعى ، واخذ « فازی » فى ذهول يصرخ « اخرج من العجلة » واخذ يقبلنى ، ويقسم لى أنه سيهدىء من صراخى مضييفا أنه يخس نفسه مضييفا . ومع احساسى بالألم الشديد ، فان ألمه أثر فى ، فسكت ، وذهبنا الى المغسل حيث ساعدنى على غسل أصابعى ، وتجفيف دمي برغوة الصابون . ثم توسل الى والدالموع فى عينيه ألا أشير الى اتهامه بما حدث ، فوعده بذلك ، وبررت بوعدى حتى أنه بعد أكثر من عشرين عاما لم يكن هناك من يدري شيئا عن ذلك الحادث الذى خلف ندبتين فى أصبعى ذلك لانهما ظلا دائما كذلك . ولقد ظللت رهين سريرى أكثر من ثلاثة أسابيع ، وقضيت أكثر من شهرين فى حالة لا تمكننى من استخدام يدى مرددا دائما أن كتلة ضيخمة من الحجر سحقت أصابعى حين سقطت عليها .

(1) Magnanima menzogna : or quando è il vero
Si bello, che si possa a te preporre ?

أيتها الاكذوبة الشامخة ، متى أمكن الحقيقة

مهما بلغت من جمال ، أن تفوقك ؟

ومع ذلك فقد جعلنى هذا الحادث شديد الحساسية للظرف الذى حدثت فيه ، لأنه جاء فى وقت التمرينات التى كانوا يقومون خلالها بتشغيل الأهلين ، وكنا قد كونا صفا من ثلاثة أطفال آخرين من سنى ، كان على - وأنا مرتد الزى الرسمى - أن أبشر التمرين مع الجماعة فى الحى الذى اقطنه . وقد سمعت وأنا أتالم صوت طبول الجماعة وهى تمر تحت نافذتى ومن بينهم زملائى الثلاثة فى حين أنا طريح الفراش .

وأما قصتى الأخرى . فشبيهة تماما بهذه القصة وان دارت وقائمه فى سن متقدمة نسبيا . كنت أعب لعبة الصوالج فى بلان باليه Plain - Palais مع واحد من رفاقى يدعى « بلانس » Plince وتشاجرنا أثناء اللعب وتضاربنا فوجه الى رأسى العارية خلال المعركة ضربة

Magnanima menzogna ; Or quando è il vero
Si bello, che si possa a te preporre ;

(1)

وقد ترجمها من الإيطالية الى الفرنسية
Auguste Desplaces
Magnanime mensonge, quand la vérité est-elle
Si belle qu'elle puisse te surpasser ;

فكانت :

وبالعربية : أيتها الاكذوبة العظيمة ، متى كانت الحقيقة من الجمال
بحيث يمكنها أن تفوقك ؟

بالصولج باغت في احكامها أنها لو سددت من يد أشد قوة لكانت كفيلة ان تهشم رأسى . ولقد سقطت على الفور ، ولم أر فى حياتى اضطرابا كاضطراب ذلك الغتتى المسكين . شهد الدم يسيل بغزارة من شعرى فخيلى اليه أنه قتلنى فاندفع نحوى يقبائى ويضمنى اليه بقوة وهو يسكب دموعه ويصرخ صراخا حادا ، فأخذت أقبله كذلك بكل قوتى وأنا أبكى مثله فى عاطفة مضطربة لم تخل من بعض حنان ، وفى نهاية الأمر اخذ يجفف دمي الذى ظل يسيل ، ولما رأى أن منديلينا لم يعودا كافيين ، أخذنى الى امه التى كانت لها حديقة صغيرة على مقربة ، وكاد يغمى على هذه السيدة الطيبة حين رأتنى على هذه الجبال ، ولكنها استطاعت أن تماسك لتضمدى وبعد أن غسلت جرحى جيدا وضعت عليه زهور الزنبق Lxs المنقوعة فى الكحول وهو دواء شاف للجروح يكثر استعماله فى بلادنا . ولقد نفذت دموعها ودموع ابنها الى قلبى ، وحتى ظلمت أنظر اليها وقتا طويلا كام لى ، وظلمت اعتبر ابنها أخا لى ، حتى توارى الاثنان عن ناظرى فنسيتهما شيئا فشيئا .

ولقد احتفظت بسر ذلك الحادث احتفاظى بسر الحادث الآخر ، ثم مر بى فى حياتى مائة حادث آخر من النوع نفسه لم أحاول التحدث عنها فى « اعترافى » ما دمت لم أكن أسعى فيها وراء وسيلة تجعل الناس يقدرون الناحية الخيرة التى كنت استشعرها فى خلقى . كلا ، انى حين تحدثت مخالفا الحق الذى كنت اعرفه ، لم يكن ذلك الا فى أمور تافهة ، بل ان ذلك كان اما عن تخرج عن الكلام ، أو لمجرد الرغبة فى الكتابة أكثر منه بسبب أى دافع لمصلحة خاصة أو بسبب نفع أو ضرر الغير . وان أى شخص سيقرا اعترافى دون تحيز - لو قدر حدوث ذلك - سيحس أن الاعترافات التى سجلتها هناك أكثر اذلالا وأشق عند الادلاء بها ، من اعترافات بانم أشد وان كان أقل مجلبة للخزى ، والتى لم أذكرها لأننى لم أفعلها .

ويستخلص من كل هذه الخواطر أن اشهار الحقيقة الذى التزمته يستند الى أساس من مشاعر الاستقامة والعدالة أكثر من استناده الى حقيقة الامور ، واننى اتبعت من الناحية العملية التوجيهات الاخلاقية لضميرى أكثر من اتباعى الآراء المجردة عن الصواب والخطأ . وكثيرا ما قصصبت حكايات ، ولكنى نادرا جدا ما كذبت . وياتبعى هذه المبادئ بسرت للأخزين الكثير من المآخذ على ، ولكننى لم أخطئ فى حق أحد مهما يكن ولم أنسب لنفسى البتة أكثر مما استحق . ويبدو لى أن أقول

الحقيقة هنا فقط بعد فضيلة ، وأما في التواحي الأخرى فإنها ليست بالنسبة لنا سوى كائن ميتافيزيقي لا ينجم عنه خير أو شر .

ومع ذلك فإن قلبي لا يكاد يحس بالرضى لهذه التفرقة حتى يجعلني أعتقد أنني غير ملوم تماما ، وحين أزن بهذه العناية ما أدين به للآخرين أقترائني درست دراسة كافية واجبي ازاء نفسي ؟ لئن كان من الواجب على المرء أن يكون عادلا بالنسبة للغير فإن من الواجب عليه أن يكون صادقا بالنسبة لنفسه . إن ذلك لولاء على الرجل الشريف أن يؤديه لكرامته . وحين كان يكرهني جذب حديثي على أن أستكمله بتخيلات بريئة كنت مخطئا ، ذلك لأنه لا يجب أبدا - رغبة في تسلية الغير - أن يبخس الانسان نفسه . وعندما كنت أضيف الى أمور واقعة حواشي من اختراعي - مسوقة الى ذلك بالرغبة في الكتابة - كنت أرتكب خطأ أكثر كذلك لأن تزيين الحقيقة بالخرافات هو في الواقع تشويه لها .

ولكن ما يجعل ذنبي لا يفتقر هو ذلك الشعار الذي كنت قد اتخذته كان هذا الشعار يضطرنني أكثر من أي انسان آخر الى التزام الدقة في إشهار الحقيقة ولم يكن يكفي أن أضحي من أجله في كل شيء بمصلحتي وميولي ، بل كان يجب كذلك أن أضحي من أجله بضعفي وبطبيعتي الحينة . كان لا بد من الشجاعة والقدرة لآكون صادقا دائما وفي كل مناسبة ، وألا تخرج البتة تخيلات أو خرافات من فم ومن قلم كرهنا للحق قبل كل شيء . ذلك ما كان يجب على أن أقوله لنفسي حين اتخذت هذا الشعار الرفيع ، وأن أردده باستمرار ما دمت قادرا على الأخذ به . لم يحدث قط أن أملي الخداع أكاذيبي بل انها نجت جميعها عن ضعف ، ولكن ليس هذا عذرا لي بالمرّة يستطيع المرء ذو النفس الضعيفة أن يجتنب الرذيلة على أكثر تقدير ، ولكنه يكون متجبرا ومتهورا إن هو جروا على أن ينادى بفضائل كبيرة .

تلك خواطر كان من المحتمل ألا تعرض لذهني لو لم يوح بها الى الراهب « ر ٠٠٠ » . وليس من شك أن الانتفاع بها بات متأخرا ، ولكن الوقت لم يمت على الإفصاح لتقويم خطئي واخضاع ارادتي للمبدأ ، ذلك لأن هذا هو كل ما يتوقف على منذ اليوم . . . واذن فإنه في هذا وفي كل ما يشابهه من أمور يمكن تطبيق مبدأ « سولون » بالنسبة لكل الأعمار فالقرصنة قائمة دائما كي يتعلم المرء - حتى من أعدائه - كيف يكون عاقلا ، صادقا ، متواضعا ، وأن يعرف على الأقل قدر نفسه .

الجزيرة الخامسة

من بين الديار التي أقيمت فيها جميعا (١٢) ، وكانت لى من بينها ديار بديعة ، لم تسعدنى حقا ولم تخلف لى كل ذلك الأسى سوى جزيرة سان بيير Saint-Pierre القائمة وسط بحيرة بين (٢) Bienne وهذه الجزيرة الصغيرة التي يطلقون عليها فى نيوشاتل Neuchâtel جزيرة لاموت La Motte ليست معروفة حتى فى سويسرا ، الا قليلا ، ولا يورد لها ذكرا واحد من الرحالة ، على ما أعلم . ومع ذلك فهى لطيفة جدا ، وتفردت بموقع كفيل باسعاد من يهوى الانطواء على نفسه الا انه برغم أننى ربما كنت الوحيد فى العالم من جعل قدره من نفسه (أى من القدر) قانونا له فاننى لا أستطيع أن أصدق أننى الوحيد من ذلك النوع الطبيعي ، برغم أننى لم أجده حتى الآن لدى أى شخص آخر .

وشطآن بحيرة « بين » أكثر ميلا للفضة والشاعرية من شواطئ « بحيرة جنيف » ذلك لأن الصخور والغابات هناك أكثر قربا فى مجاورتها للماء ولكنها ليست أقل بهجة . ولئن كان ما بها من زرع الحقول وكروم ومدن ومساكن أقل ، فانها تفوقها من ناحية الخضرة الطبيعية والمراعى ، وكثيف الايك تظللها الخمائيل ، والتباين الغالب بها والتنوعات المتقاربة . ولما لم يكن هناك على تلك الضفاف الباسمة من طرق كبيرة معبدة للعربات فان الاقليم لم يكن يؤمه المسافرون كثيرا ، وان كان يروق للمتأملين

(١) من الديار البديعة التي خلفت للدكرى الطيبة فى نفس روسو اقامته وهو طفل فى قرية بوسى Bossey بالريف عند القسى ليرسييه Lambercier وفى الشارميت Les Charmettes عند مدام دوفوران وفى ارميتاج Ermitage فى ضيافة مدام دابناى Mme d'Epinay ، ويلاحظان تلك الديار تحجما كانت تحيط بها المناظر الطبيعية التي اجبها روسو دون سواها .

(٢) استقر روسو فى جزيرة سان بيير فى النصف الثانى من سبتمبر ١٧٦٥ وعاش هناك حتى ٢٥ من اكتوبر من العام نفسه (الاعترافات الجزء الثانى عشر) ، حين امر بمغادرة مكانه بناء على امر مجلس شيوخ « برن Berne »

المنعزلين الذين يرغبون في أن ينتشسوا كما يشاءون بمفاتن الطبيعة ، وأن ينظروا على أنفسهم في سكون لا يتخلله أى صوت سوى صرخات العقبان وشقشقة متقطعة لبعض الطيور ، وهدير السيول التى تنحدر من الجبل . ويضم هذا الحوض الجميل ذو الشكل الدائرى تقريبا جزيرتين صغيرتين فى وسطه ، احدهما مأهولة ومزروعة محيطها نصف فرسخ تقريبا ، والأخرى تصغرها ، وهى قفراء قاحلة وسينقضى عليها فى نهاية الأمر بسبب ماينقل من أرضها تباعا لاصلاح ماتفسده الأمواج والعواصف البحرية فى الجزيرة الكبرى . وهكذا تستغل دائما مقومات حياة الضعيف لمصلحة القوى .

ليس فى الجزيرة سوى منزل واحد ، ولكنه كبير ، ولطيف ، ومريح ، وهو ملك لمستشفى برن Berne كالجزيرة كذلك ، ويقم فيه محصل مع أسرته وخدمه ، ويتولى هناك تربية عدد كبير من الدواجن ، كما أن هناك حظيرة للدواجن وأحواض للسماك ، والجزيرة على صغرها ، بلغت من التنوع فى أراضيها ومشاهدها ما جعلها تعرض للرائى أكل أنواع المواقع وتحتمل كل ألوان المزروعات : فيها حقول وكروم وغيابات وبساتين ومراع كثيفة تظللها الاعراش وتحفها الشجيرات من كل نوع ، ويكفل نضارتها مجاورتها للماء ، ويحف بطول الجزيرة شريط مرتفع من الأرض زرع به صفان من الأشجار ، وشيد فى وسطه بهو جميل يجتمع سكان الشواطئ المجاورة فيه حيث يأتون أيام الأحاد فى موسم قطاف الكروم .

كانت هذه الجزيرة هى المكان الذى لجأت إليه بعد رجم موتيه Motiers (١) وقد وجدت الإقامة فيها رائعة وعشت هناك حياة تنفق ومزاجى ، حتى أننى وقد عزمتم على أن تنتهى حياتى بها ، لم يساورنى أى قلق اللهم الا احتمال عدم تمكينى من تنفيذ هذا المشروع الذى لم يكن ليتفق ومشروع اجتذابى الى انجلترا ، الذى كنت قد بدأت أحس بوادزه . وفيما كان يعتورنى من أحاسيس تقلقنى ، وددت لو أنه جعل من ذلك المأوى سجنأ أبديا لى ووددت لو أننى احتبست فيه طيلة حياتى ولو أنه بسلبى كل قدرة وكل أمل فى الفكك منه حرمت على كل أنواع الاتصال بالأرض حتى اننى - يجهلى كل ما يجرى فى العالم - كنت أستطيع أن أنسى وجوده كما يستطيعون من به أن ينسوا وجودى كذلك .

(١) اعتبر أهل « موتيه Motiers » روسو خارجا على الديانة لما جاء في « اقرار ايمان كاهن من سفوا Profession de foi du Ciccire Savoyard فرجموا منزله بالحجارة . ويقول بعض الكتاب ان ذلك كان بشحريض من تيرين Thérèse لانها لم تكن تريد الإقامة هناك .

انهم لم يدعوني قط أفضى سوى شهرين فى تلك الجزيرة ، وكنت خليقا أن أفضى بها عامين بل قرنين ، بل والى الأبد ، دون أن ينال منى المسامحة لحظة واحدة ، برغم أنه لم يكن لى فيها مع صاحبتى من رفقة أخرى سوى رفقة المحصل وزوجه وخدمه الذين لم يكونوا جميعا - فى الحقيقة - سوى قوم طبيين . ولكن كان هذا بالضبط ما أنا بحاجة اليه . اننى أعد هذين الشهرين أسعد وقت مرى فى حياتى ، بل بلغت فيه درجة من السعادة كانت تكفينى طوال عمرى دون أن تولد فى نفسى ولو للحظة واحدة الرغبة فى حال أخرى .

أنى كانت اذن هذه السعادة ؟ وفيم كانت متعتها ؟ سادع من يعيشون فى هذا القرن يخمنون وصف الحياة التى كنت أحيها هناك . كان الفراغ الناعم *far niente* أول وأهم هذه المتع التى وددت التلذذ بتذوقها بكل ما فيها من حلاوة فلم يكن فى الواقع كل ما فعلته طيلة اقامتى سوى ذلك الانهماك اللذيذ الذى يلزم رجلا كرس نفسه للبطالة .

كان الأمل فى ألا يطلب أكثر من أن أترك فى هذا المقام المنعزل حيث قيدت نفسى بنفسى ، والذى كان من المستحيل الخروج منه دون عون وبغير أن ينتبه الى ، وحيث لم أكن أستطيع أن يكون لى اتصال أو مراسلة الا بمساعدة من كانوا يحيطون بى أقول ان هذا الأمل كان يبعث فى أملا آخر هو قضاء أيامى فى هدوء أكثر من ذى قبل . وكانت فكرة أنه كان أمامى متسع من الوقت لتدبير كل أمورى عندما يطيب لى ذلك ، قد جعلتنى لا أبدأ فى القيام بعمل أى ترتيب . ولما كنت قد نقلت الى هناك فجأة ، وحيدا ومجردا ، فقد أحضرت تبعا مدبرة بيتى وكتبى وأمتعتى القليلة التى وجدت لذة فى عدم فتحها تاركا حقايبى وصناديقى ، على حالها حين وصولها ، ومقيما بالمسكن الذى عولت على قضاء آخر أيامى به كما لو كنت أعيش فى فندق يتعين على مغادرته فى الغد . وظلت الأشياء جميعا وهى على ما هى عليه ، فى حالة طيبة حتى أن الرغبة فى ترتيبها خيرا من ذلك كانت بمثابة افساد جانب منها . وكان من أكبر المتع لدى أن أدع كتبى دائما محفوظة فى الصناديق وألا تكون لدى محبرة على الاطلاق . وحين كانت تضطرنى خطابات منكودة الى تناول القلم للرد عليها كنت أستعير - وأنا ضجر - محبرة المحصل وكنت أسارع بردها اليه بأمل عقيم فى ألا تدفعنى الحاجة الى استعارتها فيما بعد . وقد شغلت حجرتى بدلا من تلك الاوراق الكثيبة وكل هذه الكتب القديمة بالزهور والنباتات ذلك لأننى كنت اذ ذاك فى بداية شغفى بدراسة النبات التى

بت الميل اليها في نفسى الدكتور ديفرنوا D'Ivernois (١) حتى غدا هذا الميل شغفا . ولما كنت لا أرغب في القيام بعمل جاد فانه كان يلزمنى عمل مسلي يروقني ولا يسبب لى جهدا أكثر مما يرتضيه كسول لنفسه . وشرعت في تصنيف أزهار الجزيرة الصخرية *Flora petrinsularis* (٢) وفي وصف كل نباتات الجزيرة دون اغفال واحد منها وذلك بتفصيل يكفي ليشغلني بقية أيام حياتي . ويقال ان ألمانيا ألقت كتابا عن قشرة ليمونة ، وكان في استطاعتي تأليف واحد عن كل بقل من بقول المراعى وعن كل طحلب من طحالب الغابات وعن كل حزاز يمكن أن يوشى الصخور ، وقصارى القول اننى لم أكن أريد أن أترك خيطا من العشب أو ذرة من النبات دون أن أتناولها بالوصف الشامل ، وتمشيامع هذا المشروع البديع كنت أذهب كل صباح ، بعد الافطار الذى كنا نتناوله مجتمعين ، كنت أذهب وبيدى عدسة وأنا متأبط بكتابتى «نظام التقسيم الطبيعى للنباتات» *Systema naturae* (٣) كى أزور ناحية من الجزيرة التى كنت قد قسمتها لهذا الغرض الى مربعات صغيرة مستهدفا التجول فيها الواحد بعد الآخر في كل فصل . وليس هناك أغرب من تلك المقاتن والنشوات التى كنت أستشعرها عند كل ملاحظة أقوم بها فيما يتصل بالتركيب والتنظيم النباتى وفيما يتصل بدور الاعضاء الجنسية فى التلقيح الذى كان نظامه اذ ذاك جديدا تماما بالنسبة الى ، وكانت التفرقة بين المميزات النوعية التى لم يكن لدى من قبل أدنى فكرة عنها تستحوذ على مشاعرى عند تطبيقها على الانواع الشائعة وأنا أتوقع بأن تعرض لى أنواع اكثر ندرة .

وكان الشق الموجود فى نصلى Brunelle القلاع البرى الطويلين وبروز نصال *Ortie* اللسيح (القريص . ابرة العجوز) وحشيشة الزجاج *Pariétaire* (حشيشة الرمل) وتفتح ثمرة البهاء البلسمينية (النعناع الرومى) *Balsamine* وجوزة البقس والى حيلة للتلقيح كنت ألحظها لأول مرة فتعمنى سرورا . وكنت أذهب لأتساءل ان كان الناس قد شهدوا القلاع البرى Brunelle كما كان يسألهم «لافونتين»

(١) ديفرنوا D'Ivernois جان انتوان (١٧٠٣ - ١٧٦٥) هو طبيب كان أول من

تلقى روسو على يديه الميل الى دراسة النبات .

(٢) عمل روسو تصنيفا للازهار التى تثبت فوق الصخور فى الجزيرة .

(٣) كتاب نظام التقسيم الطبيعى للنباتات *Systema naturae* هو من تأليف عالم

النبات السويدى لينيه Linné (١٧٠٧ - ١٧٧٨) نشر الكتاب عام ١٧٣٥ ،

وكان روسو معجبا به .

La Fontaine ان كانوا قد قرءوا « حبقوق » (١) Habacuc
 وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات كنت أعود من هناك محملا بمحصول وفير
 هو زادى من التسلية بعد الغداء بالمنزل فيما لو أمطرت السماء . وكنت
 أقضى بقية فترة الصباح فى الذهاب مع المحصل وزوجه ومعنا تيريز ،
 لزيارة عمالهما ومحصولاتهما وكثيرا ما كنت اسهم فى العمل معهم بل
 وكثيرا ما وجدنى بعض أهالى « برن » الذين كانوا يأتون لرؤيتى معتليا
 أشجارا كبيرة وقد شد الى وسطى كيس كنت أملؤه بالفاكهة ثم أدليه
 الى الأرض بعد ذلك بواسطة حبل . وكان العمل الذى أقوم به فى
 الصباح ، والانشراح الذى يصحبه ، يجعلان الاستراحة عقب الغداء
 ممتعة جدا . ولكن حين كان الأمر يطول كثيرا بسبب اغراء الجو الجميل
 لم أكن أستطيع الانتظار أكثر من ذلك ، وبينما كانوا لا يزالون جلوسا
 الى المائدة كنت أتسلل وحدى لألقى بنفسى فى قارب أقوده الى وسط
 البحيرة ، حين يكون الماء ساكنا ، وهناك ، وأنا مستلق بجسمى كله فى
 القارب وعينائى متجهتان الى السماء ، كنت ادع نفسى أروح وأجىء مع
 التيار وفق هواء ، وكان ذلك يمتد أحيانا لساعات كثيرة أظل خلالها
 مستغرقا فى ألف حلم من أحلام اليقظة المبهمة ، الممتعة مع ذلك ، التى
 كانت فى رأبى أفضل مائة مرة من كل ما لقيته من أحلى المتع فيما يطلقون
 عليه مباحج الحياة وان لم يكن لها موضوع محدد أو ثابت . وكثيرا ما نبهنى
 غروب الشمس أن قد أذن وقت عودتى فأرانى وقد بعدت كثيرا عن الجزيرة
 مضطرا الى أن أسعى جاهدا للوصول قبل أن يرخى الليل سدوله .
 وكنت فى مرات أخرى أجد لذة فى محاذاة شطآن الجزيرة الخضراء التى
 كثيرا ما أغرتنى مياهها الصافية وظلها الرطيب بالاستحمام فيها ، وذلك
 بدلا من أن أوغل فى وسط الماء . ولكن أكثر تنقلاتى البحرية حدوثا
 كانت الذهاب من الجزيرة الكبرى الى الجزيرة الصغرى ، فأرسو هناك
 وأقضى بها فترة ما بعد الغداء طورا فى جولات محدودة جدا خلال أشجار
 الصفصاف والخوخ والفرزخ (نوع من الخوخ) وخلال الشجيرات من
 كافة الأنواع ، وتارة جالسا فوق قمة كتيب رملى تغطيه الحشائش
 (النجيل) والنبام والزهور بل وجلبان الحية (السلّة) والبرسيم التى
 يبدو أنها كانت قد بذرت عليه من قبل وهى مناسبة تماما لاقامة الارانب

(١) يخطئ روسو فيذكر حبقوق Habacuc وهو نبى له سفر فى العهد القديم ،
 بدلا من باروش Baruch الذى كان لافونتين La Fontaine قد قرأ
 سفرنا له فأعجبه وظل بعد ذلك يسأل كل من يصادفه اذا كان قد قرأ ذلك . وهى
 تكتة أدبية .

التي كان يمكنها أن تتكاثر هناك فى أماكن دون أن تخشى شيئا ودون أن تسبب ضرا لشيء . وقد أبديت هذه الفكرة للمحصل الذى طلب أن تستحضر من نيوشاتل أرناب ذكورا وأناتا . وقد توجهنا فى مظاهرة كبيرة : زوجته وإحدى أخواته وأنا لنضعها فى الجزيرة الصغيرة حيث بدأت تعمرها قبل رحيلى وحيث كان من الممكن أن تتكاثر بغير شك لو انها استطاعت احتمال قسوة الشتاء . ولقد كان تأسيس تلك المستعمرة الصغيرة عييدا . ولم يكن قبطان الارجنوت (١) Argonautes بأكثر منى فخرا وأنا أقود منتصرا الجماعة والأرناب من الجزيرة الكبرى الى الجزيرة الصغرى . وكنت ألحظ فى خيلاء أن زوجة المحصل التى كانت تخشى الماء الى أبعد حد وتحس بتأثير دواره عليها دائما ، قد أبحرت تحت قيادتى فى ثقة ، ولم تظهر أى خوف أثناء الرحلة . أما حين كان يضطرب ماء البحيرة بحيث لايسمح لى بالملاحظة، فاننى كنت أقضى فترة مابعدالظهرية فى التجول بالجزيرة ألتقط الاعشاب من يمين ومن شمال جالسا طورا فى النواحي الأكثر بهجة المعنة فى العزلة لأطلق فيها أحلامي كما يحلو لى ، وتارة فوق القلاع والقمم لأجول بعينى فى المناظر الرائعة الخلابة للبحيرة وشطآنها التى تتوجهها من ناحية الجبال القريبة والتى تتفرج من ناحية أخرى على سهول غنية خصبة ، يستطيع البصر أن ينطلق خلالها حتى الجبال البعيدة التى تحدها والتى يميل لونها الى الزرقة .

وحين يقترب المساء كنت أهبط من فنن مرتفعات الجزيرة ، وأذهب راضيا للجلوس على حافة البحيرة ، على الحصى ، فى أى ملاذ خبيء ، وهناك كان هدير الأمواج واضطراب الماء وهما يهدئان من نائرة حواسى ويطردان من نفسى أى اضطراب آخر ، يغرقانها فى حلم لذيذ ، كثيرا ماكان الليل يدهمنى خلاله دون أن أنتبه الى ذلك . وكان مد الماء وجزره ، وخريره المتصل ، الذى كان يعلو فى فترات متقطعة ، ويصك مسمعى ويبهر عيني دون توقف ويزيدان من الانفعالات الداخلية التى كان من دأب حلم اليقظة أن يخدها فى نفسى ، ويكفيان لاشعارى بلذة وجودى دون أن أحس عناء التفكير . وكان يومض من أن لآخر خاطر باهت خاطف حول عدم استقرار أمور هذا العالم الذى كان سطح الماء يعكس صورته لى . ولكن سرعان ما كانت تتلاشى تلك الانطباعات الخفيفة فى الحركة الرتيبة المتصلة التى كانت تهدهدى ، والتى كانت دون أن تتجاوب معها روحى

(١) الارجنوت Les Argonautes من أبطال الاساطير اليونانية الذين يزعم أنهم كانوا اخصمين من الإبطال تحت قيادة جازون Jason خرجوا في غزوة وعادوا منها منتصرين

- تقيدنى اليها لدرجة أنه حين كانت تدعونى الساعة والعلامة المتفق عليها لا أستطيع أن أنتزع نفسى من هناك دون مشقة .

أما بعد العشاء ، وحين تكون الأمسية جميلة فكنا نذهب كلنا سويا لنقوم بجولة على المرتفع كى نستنشق هواء البحيرة والنسيم العليل ، وكنا نستريح فى الفضاء ، ونضحك ، ونحدث ، ونغنى أغنية قديمة تفوق الأغانى الحديثة المعقدة ثم نذهب أخيرا لننام ، راضين عن يومنا ، لانرغب الا فى أن يصبح الغد على غزاه .

وعلى هذا المنوال ، بغض النظر عن الزيارات المفاجئة الثقيلة ، قضيت وقتى فى هذه الجزيرة خلال اقامتى بها . والآن فليقل لى الناس ما فى ذلك من أشياء جذابة تثير فى قلبى تلك الحسرات العميقة الرقيقة المقيمة ، حتى أننى بعد خمسة عشر عاما ، لا يزال من المستحيل أن أفكر فى تلك الدار الحبيبة دون أن أستشعر كل مرة أننى انتقلت اليها مرة أخرى على أجنحة الرغبة .

وقد لاحظت خلال مراحل حياة طويلة أن الفترات التى تزخر بأحلى ما فى الحياة من متع وأبلغ ما فيها من مسرات ليست مع ذلك هى التى تجذبنى ذكراها وتؤثر فى نفسى أبلغ الأثر .

فهذه اللحظات القصار من الهذيان والانفعال بكل ما فيها من قوة ليست مع ذلك ، وبهذه القوة نفسها ، سوى نقط تنتشر جلية على خط الحياة . انها لشديدة الندرة والسرعة بحيث لا تستطيع أن تشئء حالة ما ، أما السعادة التى يأسى عليها قلبى فليس قوامها مطلقا لحظات عابرة وانما هى حالة بسيطة ودائمة ليس لها فى ذاتها أية حيوية ولكن استمرارها يزيد فى سحرها حتى لأجد فيها فى نهاية الامر السعادة العظمى .

لكل شئ فى هذه الدنيا دورته ، وليس بها من شئ يحتفظ بصورة مستمرة ثابتة . ان مشاعرنا المتعلقة بالأمور الخارجية لا بد وأن تنقضى وتتغير مثلها - وهى قائمة دائما - من أماننا ومن ورائنا تذكرنا بالماضى الذى انقضى أو تنبئنا بالمستقبل الذى ليست هناك غالبا من ضرورة لوجوده ، فليس بها من ثبات يستطيع قلب المرء أن يتعلق به ، وليس لنا فى هذه الحياة ، على ذلك ، سوى لذة تنقضى أما السعادة التى تدوم فاننى أشك فى أن تكون معروفة فيها ، ولا تكاد توجد - ونحن فى أوج متعتنا - لحظة يستطيع القلب أن يقول لنا بحق « وددت لو أن هذه اللحظة ظلت أبدا ! »

وكيف يستطيع المرء أن يسمى سعادة ، حالة عابرة تخلفنا والقلب لا يزال
قلقا قارغا ، فتجعلنا نتحسر على شيء انقضى أو نظل نشتهي هذا الشيء
فيما بعد .

ولكن ان كانت هناك حالة تجد النفس معها مستقرا وطيدا تستطيع
أن تركز عليه بكليتها وتجمع فيه شتات كيائها دون أن تحس بحاجة
لتذكر الماضي أو تقفز نحو المستقبل حيث لا يكون للزمن بالنسبة لها
أى اعتبار وحيث يظل الحاضر قائما دون أن نلاحظ مع ذلك استمراره
أو أى أثر لتتابعه ودون أن نستشعر مع ذلك ، حرمانا أو استمتاعا ،
لذة أو المأ ، رغبة أو رهبة، اللهم إلا الاحساس بوجودنا وبأن هذا الاحساس
وحده يستطيع أن يملأ هذا الوجود كله . وما دامت تلك الحال قائمة
فان صاحبها يستطيع أن يسمى نفسه سعيدا : لا سعادة منقوصة ضئيلة
ونسبية كتلك التى تصحب مباحج الحياة ، ولكن سعادة كافية مكتملة
مطلقة لا تترك أى فراغ فى النفس يمكن أن تحس حاجتها الى ملئه . تلك
هى الحال التى كثيرا ما وجدتنى عليها فى جزيرة سان بيير خلال أحلام
عزلتى سواء كنت مستلقيا فى قاربي الذى كنت أدعه يسير وفق هوى
التيار أو جالسا على ضفاف البحيرة المضطربة ، وسواء أكنت فى مكان
آخر على حافة نهر جميل أو جدول يهدر على الحصباء .

بم يستمتع المرء فى مثل تلك الحال ؟ بلا شيء خارج ذاته وبلا شيء
اللهم الا ذاته وكيانه الشخصى وما دامت تلك الحال قائمة فان المرء يكتفى
بنفسه شأنه فى هذا شأن الله . ان الاحساس بالموجود مجردا من كل عاطفة
أخرى هو فى حد ذاته احتساس قيم بالقناعة والسلام يكفى وحده ليجعل
من هذا الوجود شيئا محببا حلوا يستطيع عن طريقه أن ينأى بنفسه
عن كل المشاعر الحسية الدنيا التى لا تفتأ تلهينا عنه وتفسد علينا
حلاوته . ولكن أغلب الناس الذين تستثيرهم شهوات مستمرة لا يدركون
تلك الحال الا قليلا، وما داموا لم يتذوقوها الا جزئيا فى لحظات قليلة
فانهم لا يحتفظون منها سوى بفكرة غامضة مضطربة المعالم لا تدعهم
يحسون سحرها . بل انه قد لا يكون من الخير فى شيء - والامور على
ما هى عليه - أن ينفروا بتلفهم على تلك النشوة الحلوة ، من الحياة
العاملة التى تملى واجبهم نحوها ضروراتها المتجددة دائما . ولكن امرأ
سييء الطالع أقصى من المجتمع ولا يسعه أن يقدم هنا على أمر فيه نفع
أو خير للآخرين أو لنفسه ، يستطيع أن يجد فى مثل هذه الحال تعويضا
عما يستمتع به الناس ، مما لا يمكن القدر والبشر أن يسلبوه اياه .

والحق أن ذلك التعويض لا تستطيع أن تحس به كل النفوس أو بتوافر في كل الاحوال فمن الضروري أن يكون القلب في سلام وألا تعكر صفو هدوئه أية عاطفة ، ومن الضروري أن يكون هناك استعداد لدى الشخص الذى يحس به وهو استعداد ضرورى كذلك عندما تتزاحم الأمور من حوله . ولا يستلزم ذلك راحة مطلقة أو اضطرابا زائدا. ولكن حركة رتيبة معتدلة لا تكننفها هزات أو فترات ركود . ان الحياة ليست سوى سبات ان خلت من الحركة . أما ان تفاوتت الحركة أو اشتدت فانها توقظ ، وهى حين تنبهنا الى الأمور من حولنا تهدم سحر الحلم وتتزعنا من صميم أنفسنا لتضعنا فورا تحت وطأة القدر والبشر وتسلمنا الى الاحساس بشقوتنا . ان السكون المطلق يسلم للحزن . انه يمرض صورة الموت . واذن فعون الخيال الباسم أمر ضرورى وهو يعرض بصورة طبيعية لأولئك الذين تنعم عليهم السماء به . ان الحركة التى لا تأتى من الخارج تعتمل اذن فى داخل نفوسنا . حقا ان الراحة أقل ، ولكنها كذلك ، أشد امتاعا حين تلامس - كما يقال - خواطر خفيفة حلوة صفحة النفس دون أن تثير أعماقها . ولا يلزم منها الا ما يكفي ليتذكر الانسان نفسه متناسيا آلامه ، جميعا ، وهذا النوع من الاحلام يستطاع تذوقه حيشا يمكن أن يكون المرء هائنا وطالما فكرت فى أننى فى « الباستيل » بل وفى « زنزانه » لا ترى عينى فيها شيئا ، كان يمكننى مع ذلك أن أستغرق فى أحلام جميلة .

ولكن يجب أن أعترف بأن هذا كان يحدث على صورة خير من هذه وأفضل فى جزيرة خصبة منعزلة لها حدودها الطبيعية ومنفصلة عن بقية العالم حيث لا تعرض لى الا صور ضاحكة ، وحيث لا شئ يجعلنى أستعيد ذكريات محزنة ، وحيث كان المجتمع المكون من عدد قليل من السكان متألفا طيبا دون أن يكون ذا شأن لدرجة يجعلنى أشغل باستمرار ، وحيث كان يمكننى أخيرا أن أستسلم طيلة اليوم دون ما عقبة أو شاغل لأعمال تتفق ومزاجى ، أو الى فراغ مترف . لقد كانت الفرصة مواتية من غير شك لحالم ، عرف كيف يتزود بأوهام حلوة وسط أشياء أشد تنفيرا فاستطاع أن يرتوى منها كما يحلو له وذلك باستجماعه كل ما أثر على حواسه فعلا . وكنت بعد أن أخرج من حلم طويل جميل وأشهد نفسى محاطا بالخضرة والزهور والطيور سارحا بنظرى بعيدا فى الشيطان الخيالية التى تحف امتداد المياه الشاسعة الصافية المتلألئة كنت اغذى خيالاتى بكل تلك الأشياء المحببة . حين أرانى فى نهاية الامر أرجع تدريجيا الى نفسى والى ما يحيط بى لم أكن أستطيع أن أميز الحد الفاصل

بين الخيال والحقيقة ما دامت تسهم جميعا كذلك فى أن ترفع من قيمة الحياة الانطوائية المنعزلة التى كنت أحيها خلال تلك الاقامة الجميلة ألا ليبتها تبعث من جديد ! ألا ليتنى أستطيع أن أقضى آخر أيامى فى تلك الجزيرة الحبيبة دون أن أبرحها أبدا أو دون أن أشهد بها البتة ايا من سكان القارة يستطيع أن يعيد الى ذكرى الكوارث من كل نوع التى طالما راق لهم أن يهيئوها على منذ أعوام كثيرة ! اننى بذلك سرعان ما كنت أنساهم الى الأبد ، ولكن ليس من شك فى أنهم ما كانوا لينسونى . ولكن ماذا كان يهمنى ما داموا لن يجدوا سبيلا لاقلاق راحتى ؟ اننى وقد تخلصت من كل شهوات الدنيا التى هى وليدة صخب الحياة الاجتماعية سوف تتسامى روحى مزارا متخفية ذلك الجو وتتصل سلفا بالادراك العلوى الذى تأمل فى الاستزادة منه فى مدى قصير . واننى لأعلم أن الناس سوف يحولون دون أن استمتع بمثل هذا الملاذ الهنىء الذى لم يشاءوا أن يدعونى فيه . ولكنهم لن يمنعونى على الأقل من أن أنتقل اليه يوميا على أجنحة الخيال ، ومن أن أتذوق فيه مدى بضع ساعات نفس اللذة كما لو كنت لا أزال أقيم به . وان أمتع ما كنت أفعله هناك هو أن أحلم كما يروق لى . أو لست أفعل نفس الشيء حين أحلم بأننى هناك ؟ بلى اننى أفعل أكثر من ذلك . اننى حين يجذبنى حلم معنوى يسير على وتيرة واحدة أردف له صورا رائعة تبعث فيه الحياة ، وغالبا ما كانت موضوعاتها تنفلت من حواسى أثناء انتشائى . أما الآن فكلما ازداد حلم يقظتى عمقا . صورها لى بجزيرة أكثر ، واننى غالبا ما أحس بنفسى محوطا بها مستمتعا بالذة اكبر مما عليه عندما كنت هناك فى الواقع ، والمؤسف فى الأمر أنه كلما فتر الخيال كان ذلك يتأتى فى جهد أشد ولا يستغرق طويلا . واأسفاه ! ان المرء ليشعر أنه أكثر ما يكون رزوحا بجسده حين يشرع فى التجرد منه !

الرحلة السادسة

ليست هناك أية حركة آلية لا نستطيع أن نجد لها تعليلا فى قلبنا
إذا ما نحن عرفنا كيف نتغلغل فيه بحثا عن ذلك التعليل .

بالأمس أثناء مرورى بالطريق الجديد ذاهبا للاستعشاب على ضفة
« البييفر » Bièvre فى ناحية جنتيى Gentilly أنعطف يمينا مقتربا
من سور دانفير d'Enfer وعندما توغلت مبعدا فى الحقول توجهت عن طريق
« فونتنبلو » Fontainebleau كى أصل الى المرتفعات التى تجاور ذلك
النهر . ولم يكن ذلك المسير ليعنى شيئا بالمرة فى حد ذاته ، ولكن حين
تذكرت أننى قمت بنفس الدورة تلقائيا مرارا من قبل فقد بحثت عن
الدافع عن ذلك فى نفسى ، ولم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك بعد
أن تبينته .

فى ركن من الطريق ، عند مخرج سور دانفير D'Enfer تقف
يوميا فى فصل الصيف امرأة تبيع الاعشاب الطبية tisane
وأرغفة الخبز الممتاز ولهذه المرأة ولد صغير لطيف جدا لكنه أعرج يروح
يلتمس الاحسان من المارة بشيء من الظرف وهو يتعارج على مكازيه .
وكان لى بهذا الغلام الصغير بعض المعرفة . ولم يكن يفوته كلما مررت به
أن يتقدم ليحيينى تحيته البسيطة التى كانت تتلوها دائما هبتى الصغيرة
وقد سرتنى رؤيته فى المرات الأولى فكنت أمنحه بارتياح كبير ، وظلمات
أفعل ذلك بعض الوقت بنفس السرور بل فان يلذ لى الى جانب ذلك فى
أغلب الأحيان أن أدفعه الى ثرثرته الصغيرة التى كانت تروقنى .

وقد تحولت - ولست أدرى كيف تحولت - هذه المتعة التى بادت
عادة بالتدرج الى نوع من الواجب ما لبثت أن أحسست بالضيق منه ،
وخاصة بسبب تلك الخطبة الافتتاحية التى كان لابد من الاستماع إليها ،
والتى لم يكن يفوته أبدا أن يدعونى فيها بالسيد روسو ليظهر أنه كان
يعرفنى معرفة كافية ، مما كان يجعلنى على العكس من ذلك أدرك أنه لم
يكن يعرفنى أكثر ممن لقنوه ذلك . ومنذ ذلك الحين كنت أمر من هناك

أقل رغبة ، وأخيرا اعتدت تلقائيا أن أنعطف في أغلب الاحايين حين كنت أقرب من ذلك الحاجز . ذلك ما اكتشفته وأنا أمعن الفكر فيه لأنه لم يكن قد عرض لذهنى بوضوح شيء من هذا كله حتى ذلك الوقت . وقد ذكرتني تلك الملاحظة على التوالي بكثيرات أخر أيدت لى تماما أن الدوافع الحقيقية الأولى لمعظم تصرفاتى لم تكن كذلك واضحة بالنسبة لى كما تصورتها طويلا . اننى أعرف وأدرك أن عمل الخير هو أقصى مراحل السعادة الحقة التى يستطيع أن يتذوقها القلب البشرى . ولكن مر دهر طويل منذ أن بوعد بين تلك السعادة وبينى ، ولا يستطيع من له مثل حظى المنكود أن يأمل فى أن يفيد مختارا موفقا من عمل واحد طيب حقا . ومادام قصارى جهد أولئك الذين يرسمون خطوط قدرى ألا يكون لى الا المظهر الباطل الخداع فان حافظا الى الفضيلة لم يكن مطلقا سوى خدعة تقدم لى لاجتذابى نحو فتح يراد اطباقه على . اننى أدرك ذلك ، اننى أدرك ان الخير الوحيد الذى هو فى مقدورى منذ الآن هو أن أمتنع عن العمل خشية أن أسىء دون قصد ودون دراية .

ولكن كانت هناك فترات أكثر سعادة كنت أستطيع خلالها أحيانا - مستجيبا الى خلجات قلبى - أن أدخل السرور الى قلب آخر ، وانى لأدين لنفسى بالشهادة المشرفة وهى أنه فى كل مرة استطعت أن أتذوق هذه المتعة وجدتها أعذب من أى متعة أخرى . كان هذا الميل قويا وصادقا وطاهرا ، ولم يحدث البتة أن نقصه شيء فى أعماق كوامن نفسى ، ومع ذلك فغالبا ما أحسست بثقل أعمالى الخيرة بسبب سلسلة الواجبات التى كانت تستتبعها ، ومن ثم فقد اختفت المتعة ولم أجد فى استمرار الرعاية نفسها - التى كانت تفتننى فى أول الأمر - سوى ضيق يكاد يكون غير محتمل . كان كثير من الناس يلجأون الى خلال أيام رخائى القصيرة ، ولم يحدث أبدا فى كل الخدمات التى استطعت أداءها لهم أن صددت أيا منهم ولكن على أثر تلك الحسنات التى كنت أسديها بانسراح كانت تنشأ سلسلة التزامات متتابعة لم أكن أتوقعها ولم أعد أستطيع التخلص من نيرها . لم تكن خدماتى الأولى فى نظر أولئك الذين كانت تسدى اليهم سوى عربون لما يجب أن يتلواها من خدمات ، وما ان كان يتسلط على يائس ما من أجل معروف أسدى اليه حتى ينتهى أمره عندئذ ، وتصبح هذه الحسنة الأولى - الخالصة الصادرة عن طواعية - حقا مطلقا لكل من يحتمل أن يحس الحاجة إليها فيما بعد دون أن يكفى لاعفائى منه ، حتى عدم القدرة على أدائه . وهكذا كانت متع بالغة الروعة تستحيل بالنسبة الى الى استعباد فادح فيما بعد .

ومع ذلك فلم تبد لي تلك القيسود ثقيلة جدا ، فطالما كان الناس يجهلونني كنت أعيش مغمورا ، ولكن ما ان اعلنت كتاباتي عن شخصي - وهو خطأ خطير ما في ذلك من شك ، ولو ان رزاياى قد كفرت عنه وأكثر - حتى أصبحت منذ ذلك الوقت المكتب العام الذى يرأسه المعوزون ، او من يزعمون انهم كذلك ، والمغامرون الذين يبحثون عن مغفلين ، وكل من يرغبون في فرض سلطانهم على بوسيلة أو بأخرى تحت ستار الثقة الكبيرة التى كانوا يتظاهرون بأنهم يولونني اياها . اذ ذاك أمكنتنى أن أدرك أن كل ميول للطبيعة - دون أن يستثنى منها عمل الخير نفسه - وسواء انطوت عليها جوانح أصحابها أو هم أتبعوها في المجتمع دون حذر . وكما اتفق ، فانها تتغير في طبيعتها بل غالبا ما تصبح ضارة بقدر ما كانت نافعة في وجهتها الأولى ، كم من تجارب قاسية غيرت شيئا فشيئا من استعداداتي الأولى ، أو بالأحرى ، علمتنى ، وهى تحتجزها في نهاية الأمر داخل حدودها الحقيقية ، أن أتبع - بعدم تبصر أقل - ميلي لعمل الخير حين لا يكون من شأنه سوى اذكاء روح البشر عند الآخرين .

ولكننى لا آسف مطلقا على تلك التجارب نفسها ما دامت قد زودتنى عن طريق التفكير ، بأضواء جديدة من أجل معرفتى بذاتى وبالذوايق الحقيقية لسلوكي في ألف من الملابس التى كثيرا ما خدعت فيها . ولقد وجدت أنه - لكى أستمتع باسداء الخير - كان يلزمنى التصرف بحرية دون اكراه ، وأنه ، لكى أسلب كل لذة من وراء عمل طيب كان يكفى أن يصبح هذا العمل التزاما ، ومن ثم كان ثقل الالتزام يغلب أحلى المتع عبثا . وكما قلت في كتاب ال « اميل » Emile (1) على ما أعتقد ، أننى كان من الممكن أن أعد لدى الأتراك زوجا فاشلا حين يدعوهم « المنادى» الى أن يؤدوا واجباتهم كأزواج .

ذلك هو ما يعدل كثيرا الراى الذى كونته منذ زمن بعيد عن فضائلى الشخصية لأنه لئس من الفضيلة فى شيء أن ينساق المرء وراء ميوله ، وأن يتفانى فى الخير عندما تدفعنا هذه الميول الى ذلك . ولكن تلك الفضيلة تمكن فى التغلب عليها حين يتطلب الواجب ذلك لنؤدى ما يملية علينا ، وهذا هو أقل ما استطعت عمله كرجل مجتمع . اننى وقد ولدت حساسا طيبا ، تنطوى نفسى على الرحمة الى حد الضعيف ، وأستشعر انتشساء

لم يقل روسو ذلك في اميل Emile « ولكن في « الاعترافات Les Confessions » عند الحديث عن آتسة من الراهبات كان يعطيها دروسا في الموسيقى . واما هذا القول الذى لا أساس له من الصحة اطلاقا فهو يدل على جهل فاضح من روسو بتعاليم الديانة الاسلامية .

الروح بكل ما يتصل بالكرم ، غدوت انسانا خيرا ، معينا للناس ، عن ميل ، بل وعن شغف ، ما دام الأمر لا يهم سوى قلبي . وقد كنت أصبح خير الناس وأكثرهم رحمة اذا ما قدر لي أن أكون أقواهم . ولكي أخدم في نفس كل رغبة في الانتقام ، كان يكفيني أنني أستطيع أن أنتقم . وكان من الجائز أن أكون عادلا كذلك بغير عناء ، وإن تعارض ذلك مع مصلحتي الخاصة ولكنني لم أكن لأستطيع أن أقنع نفسي بأن أكون كذلك ضد مصلحة من كنت أعدهم أعزاء على . وحين كان يتعارض واجبي مع قلبي فانه نادرا ما كانت تكتب الغلبة للأول اللهم الا اذا كان الأمر لا يتطلب سوى الامتناع من جانبي ، وعندئذ ، أكون قويا في أغلب الأحيان . وأما التصرف ضد ميلي فكان مستحيلا دائما بالنسبة لي . وسواء كان الأمر صادرا عن الناس أو الواجب أو الضرورة حين يصمت قلبي ، فان ارادتي تظل صماء ولا أعود قادرا على الطاعة . اننى أرى الشر الذى يتهددنى ، وأدعه يأخذ طريقه الى بدلا من أن أتحرك لتوقيه ، واننى لأبدأ أحيانا في جهد ، ولكن هذا الجهد يرهقنى ويستنزف قواى بسرعة فائقة فلا أقوى على الاستمرار . وفى كل ما يتصوره العقل يستحيل على أداء ما لا أجد متعة في القيام به .

وهناك ما هو أكثر من ذلك : فالأكره ، وان اتفق مع رغبتى ، كفيل بالقضاء عليها وتحويلها الى نفور ، بل والى اشمزاز مهما كان تجاوزه لحد العنف ضئيلا . وهذا هو ما يجعل العمل الطيب الذى يقوم به الانسان أمرا شاقا ، وهو ما كنت أؤديه طواعية حين لم يكن يفرضه أحد . ان عملا خيرا بغير مقابل مطلقا هو بالتأكيد عمل أرحب بأدائه ، ولكن حين يتخذ صاحب هذا العمل منه سندا كى يفرض استمراره والا تعرضت لكراهيته ، وحين يلزمنى أن أكون صاحب فضل عليه الى الأبد لأننى وجدت لذة فى ذلك فى أول الأمر ، حينئذ يبدأ الضيق وتلاشى اللذة ، ويكون ما أفعله حين أستسلم ، ضعفا وعارا كريها ، لا مكان فيه من بعد للرغبة الصادقة ، وبدلا من أن أتهلل لما أفعل أعتب على نفسى فى سريرتى لأننى فعلت الخير مكرها .

اننى أدرك أن هناك نوعا من العقود ، بل هو أكثرها قديمة : وصو المبرم بين المحسن وبين المحسن اليه ، وهو نوع من أنواع الشركة يكونها الأول مع الثانى ، أشد أحكاما مما يربط بين الافراد عامة ، ولئن التزم المحسن اليه ضمنا بالإعتراف بالجميل فان المحسن يلتزم كذلك بأن يحفظ للآخر - طالما هو لا يبدو غير أهل له - نفس الرغبة الصادقة التى سبق أن أبدتها نحوه ، وأن يجدد له نفس الافعال فى كل المرات التى

يستطيع فيها ذلك والتي يطلب منه أداؤها . وهذه ليست شروطا صريحة ، ولكنها آثار طبيعية للصلة التي قامت بينهما . وان من يرفض للمرة الأولى أن يسدى خدمة يطلب اليه أداؤها بغير مقابل لا يخول حق الشكوى لمن رفض أن تسدى اليه ، ولكن من يأبى في حالة مشابهة أن يتفضل على نفس الشخص بمثل ما تفضل عليه به من قبل فهو يخيب اذا أهلا سمح له أن يراوده بل هو يخلف ويخيب أمنية ولدها في نفسه . ان المرء ليحس في هذا الرفض شيئا من الظلم بل من الامعان في القسوة أكثر مما في الآخر ، ولكنه مع ذلك ليس الا نتيجة استقلال يحبه القلب ولا يستطيع أن يتنازل عنه بغير جهد . انى حين أرد دينا فان هذا واجب أوديه ، وحين أعطى منحة فانما هي متعة أوفرها لنفسى ، واذن فالنتيجة فى أداء المرء لواجباته هي من تلك المتع التي يبعثها الاعتياد وحده لممارسة الفضيلة، أما تلك التي تأتينا من الطبيعة مباشرة فلا تتسامى الى ذلك الحد .

لقد تعلمت بعد تلك التجارب المريرة أن أتبصر من بعيد عواقب استجابتي لنزعاتي الأولى وغالبا ما امتنعت عن أداء عمل خير كنت أحس رغبتى فيه وقدرتى على أدائه متخوفا مما سوف يفرضه على من سلطان ان أنا استسلمت اليه بغير روية . ولم أستشعر تلك الرهبة دائما بل على العكس من ذلك كنت أتعلق فى شبابى بأعمال الخيرة وغالبا ما كنت أحس كذلك أن أولئك الذين كنت أسدى اليهم معروفا انما كانوا يتعلقون بشخصى عرفانا بالجميل أكثر منه سعيا وراء مصلحة . ولكن الامور قد تغير وجهها تماما فى هذه الناحية ، كما فى غيرها ، بمجرد أن بدأت المصائب تجل بى ، وقد عشيت منذ ذلك الوقت فى حقبة جديدة لا تشابه الاولى فى شئ ، وقد اعترت مشاعرى تجاه الآخرين تغيرات وجدت صداها لديهم . ان نفس الاشخاص الذين لقيتهم على التوالى فى هذين الجيلين ، على اختلافهما ، قد تشابهوا جدا - على حد القول - ببعضهم البعض على التوالى كذلك ، فمن صادقين مخلصين كما كانوا فى اول الامر أصبحوا ما هم عليه الآن ، شأنهم فى ذلك شأن الآخرين جميعا . وفى هذا وحده تغير الزمن ، وتغير الناس كما تغير . . . ايه . . . كيف أستطيع أن أحتفظ بنفس المشاعر نحو أولئك الذين نقيت فيهم عكس ما ولد تلك المشاعر . . . اننى لا أكرههم قط لأننى لا أعرف كيف أكره . . . ولكننى لا أستطيع منع نفسى من الاحتقار الذى يستحقونه ولا أن أردّها عن اظهاره لهم .

ربما - دون أن ألاحظ ذلك - تغيرت أنا نفسى أكثر مما يجب : وأى

طبع يستطيع أن يثبت دون أن يتغير وهو يمر بحالة مثل حالتى ؟ اننى ، وقد أقنعتنى عشرون سنة (١) من التجربة بأن ما غرسته الطبيعة فى قلبى من استعدادات طيبة قد تحول - بسبب ما خط لى فى لوح القدر وبسبب من يتحكمون فى - الى اضرار بنفسى أو بالغير ، لم أعد أستطيع أن أنظر الى أى عمل خير يعرض على أداءه الا كشرى ينصب لى ويخفى تحته شرا ما . واننى لأدرك أنه مهما يكن أثر العمل فان جزائى عن نيتى الطيبة لن يكون أقل . أجل . . ان هذا الجزاء قائم هناك دائما من غير شك ولكن السحر الكامن فيه لم يعد موجودا . وما ان ينقض ذلك الحافز حتى استشعر عدم المبالاة والبرودة فى داخل نفسى ، وحين يتأكد لى اننى بدلا من أن أقوم بعمل نافع حقا لم أفعل سوى ما يفعله كل مغفل فان ثورة الكرامة - مضافا الى انكار العقل - لا تبعث فى الا نفورا وعنادا حيث كان من المحتمل أن أكون ممتلئا حمية وحماسا فى حالتى الطبيعية .

هناك ألوان من المحن تسمو بالروح وتقويها ، ولكن من بينها كذلك ما يحطمها ويقضى عليها ، كذلك التى أنا فريسة لها . فمهما يكن قليلا ما فى محنتى من خمرة فاسدة فان هذا القدر كان قليلا بأن يجعلها تختمر الى أقصى حد فتتهيجنى ، ولكنها لم تجعل منى الا عدما ، واننى لأمتنع عن التصرف حين لا أستطيع أن أقدم خيرا لنفسى أو للآخرين ، وتلك الحال التى لا تستمد براءتها الا من كونها اضطرارية ، تجعلنى أحس شبيها من الارتياح فى الاستسلام كلية ، دون لوم لىلى الطبيعى ، ولا شك فى أننى أذهب بعيدا جدا ما دمت أتحاشى فرص التصرف حتى حيث لا أرى سوى خير يستطيع أداءه ، ولكننى ، وقد ثبت لى أن الناس لا يدعوننى أرى الامور كما هى عليه ، فانى أمتنع عن الحكم بالظواهر التى يصفونها على تلك الامور . ومهما يكن الزيف الذى يحجب دوافع التصرف فانه يكفى أن تكون هذه الدوافع فى متناول يدى حتى أتأكد من أنهم مخادعون .

ويبدو قدرى وكأنما نصب لى منذ طفولتى الشرك الأول الذى يسر لفترة طويلة وقوعى فى الشرك الأخرى جميعا . لقد ولدت وأنا أشد الناس ثقة ، ولم يحدث مدى أربعين حولا كاملا أن غرر بتلك الثقة مرة واحدة ، أما وقد ألقى بى فجأة بين طراز آخر من الناس ومن الامور فقد سقطت فى ألف كمين دون أن ألحظ مطلقا من بينها واحدا ، وكانت عشرون عاما من التجربة تكفى بالتأكيد لتلقى الاضواء على مصيرى . وما أن اقتنعت أن ليس وراء اسرافهم فى منافقتى سوى كذب وزيف ، حتى تحولت سريرا

(١) يشير روسو هنا الى خصامه مع ديدرو عام ١٧٥٧ .

الى النقيض ذلك لأنه ما أن يخرج المرء عن طبيعته حتى لا تعود هناك حدود تعوقنا . ومنذ ذلك الوقت اشمازت نفسى من الناس ، وأما ارادتى التى تتنافس وارادتهم فى هذا المضمار فاتها لا تزال تقف بى بعيدا عنهم أكثر مما تفعل حيلهم جميعا .

ومهما يفعلوا فلن يستطيع هذا النفور أبدا أن يبلغ حد الكراهية . اننى حين أفكر فى التبعية التى وضعوا أنفسهم فيها بالنسبة لى مستهدفين أن تكون حالى بالنسبة لهم كذلك . فانهم بهذا يستدرون شفقتى الحقة . ولئن لم أكن تعسا فانهم لكذلك ، وفى كل مرة أرجع الى نفسى أجدهم يستحقون الرئاء دائما . ان الزهو قد يخالط كذلك هذه الاحكام ، فاننى لأحس بأننى أسمى منهم حتى أكرههم . ان كل ما يستطيعون على الأكثر أن يثيروه فى نفسى من اهتمام هو احتقارى لهم ، ولكن لن يبلغ ذلك حد الكراهية أبدا . وأخيرا ان حبى لنفسى من القوة بحيث لا أستطيع معه أن أستشعر الكراهية نحو كائن ما والا فاننى أكون كمن يحصر ويضغط كيانه بينا أنا أود لو وسع الكون كله .

اننى أفضل أن أهرب منهم عن أن أكرههم . ذلك لأن مرآهم يشير فى حواسى ، وعن طريقها فى قلبى ، انطباعات تجعلها ألف نظرة قاسية شاقة على نفسى ، ولكن لا يلبث الضيق أن يتوقف بمجرد أن تختفى دواعيه وانى لأشغل نفسى بهم على الرغم منى تماما فى حضورهم ، ولكن ذلك لا يحدث أبدا بتذكرى اياهم ، فعندما لا أراهم يفدون فى نظرى وكأنما لم يكن لهم وجود مطلقا .

انهم لا قيمة لهم كذلك بالنسبة لى الا فيما يتصل بى من أمور ، ذلك أنهم فيما يقوم بينهم من علاقات يستطيعون كذلك أن يثيروا اهتمامى وأن يؤثروا فى كما قد تؤثر فى شخصيات مسرحية أشهدها . لقد كان من الضرورى - كى تكون العدالة غير ذات بال بالنسبة الى - أن يقضى على كيانى المعتوى . ان منظر الظلم والشر لا يزال كذلك يدفع الدم الى الغليان فى عروقى غضبا ، أما الأعمال الصالحة التى لا أرى فيها أثرا للعنف أو المباهاة فاتها تجعلنى دائما أهتز فرحا ، وتنتزع كذلك الدموع الرقيقة من عيني . ومع ذلك ، فانه يجب ان أشهد تلك الافعال وأن أقدرها قدرها بنفسى ، ذلك انه بعد ما حدث لى شخصيا لا بد وأن أعقد مخبولا لأعشق - فى أى أمر من الامور - آراء الناس ولأصدق أى شىء على عهدة الآخرين .

لو أن وجهى وملامحى كانت مجهولة تماما لدى الناس ، كخلقى وطبعى ، اذن لعشت بينهم كذلك فى غير مشقة . ولكن من الجائز أن تروق

لى صـحبتهم ما دمت غريبا عنهم تماما . لقد كنت أحبهم كذلك لو لم يشغلوا أنفسهم بى ان انا استسلمت دون ضغط لميولى الطبيعية . لقد كنت أسبغ عليهم رعاية شاملة غير مفرضة اطلاقا ولكن دون أن أنشئ علاقة خاصة ودون أن اخضع لآى التزام ، وكنت أقدم لهم - بكامل حرىتى وعن طواعية - كل ما يلقون عناء كبيرا فى تقديمه مدفوعين باثرتهم مكرهين على أدائه بحكم شرائعهم جميعا .

لو أننى ظللت حرا ، منسيا ، منعزلا - كما خلقت لأكون - لما فعلت الا خيرا ، ذلك لأنه لىسبت بقلبى نواة لآى ميل للأذى . ولئن كنت محجوبا قديرا مثل الله لأصبحت خيرا كريما مثله . ان القوة والحرية هما اللتان تخلقان الرجال الممتازين ، أما الضعف والعبودية فلم يخلقا الا أشرارا . ولو كنت أملك خاتم « جيجيس » (1) Gyges لخلصنى من تبعىتى للناس ولجماهم تابعين لى . اننى كثيرا ما تساءلت فى « قصورى التى ابنيها على الرمال » فيم كنت أستخدم ذلك الخاتم ، ذلك لأن هنا يكون اغراء اساءة استعماله ممكنا . واذا ما أصبح فى مقدورى أن أشبع رغباتى وأن أقوم بعمل كل شىء دون احتمال أن يخدعنى أحد فماذا كنت أستطيع أن أشتهى بعد ؟ شيئا واحدا : هو أن أرى القلوب جميعا راضية . ان مظهر الهناء الشاملة هو وحده الذى كان من الممكن أن يمس قلبى بخنان دائم ، كما أن الرغبة الحائرة فى أن أسهم فى ذلك كانت عاطفتى المقيمة دواما . ولما كنت عادلا دائما بغير تحيز ، خيرا دائما فى غير ضعف ، فاننى كنت خائفا أن اجنب نفسى الشكوك العمياء والكرهية المثبته ، لاننى وقد رأيت الناس على ما هم عليه ، مستطلعا فى سر ما فى أعماق قلوبهم قلما كنت أجد من بينهم من بلغوا من اللطف حدا يستحقون معه كل محبتى ، أو بلغوا من القبح حدا يستحقون معه كراهيتى ، وأن نزعة الشر فيهم ذاتها تهيننى للاشفاق عليهم لمعرفةى الأكيدة بالضر الذى يصنعونه بأنفسهم وهو يودون اصابة الغير به . ربما كنت أستطيع فى لحظات المرح أن أعبت عبثا صبيانيا فى بعض الاحايين باتيانى أمورا معجزة ، ولكن ، لما كنت لا أستهدف أبدا أية منفعة شخصية وليست هناك من شريعة لى سوى ميولى الطبيعية، فاننى كنت أقوم بألف عمل من أعمال الرحمة والانصاف مقابل بعض الأفعال التى تتسم بالعدالة الصارمة . وكرسول للعناية الالهية وكناشر لقوانينها - على قدر استطاعتى - كنت أقوم بعمل

(1) جيجيس Gyges هو راع صغير من لىديا (من أقاليم آسيا الصغرى قديما) عاش فى القرن السابع قبل الميلاد كان له خاتم سحرى يستطيع بواسطته أن يصبح غير مرئى واستطاع بذلك أن يصل الى العرش وأن يؤسس أسرة حاكمة هناك .

معجزات أكثر حكمة وأشيد نفعاً من معجزات الاسطورة المذهبية
Légende dorée (١) وقبر القديس ميدار Saint-Médard (٢) .

ليست هناك سوى ناحية واحدة كان من الممكن أن تدفعني الى
الدخول ، متخفياً ، الى أى مكان للبحث عن مغريات ربما
ضعفت مقاومتى ازاءها . ولئن دخلت مرة قبي تلك الطرق المضللة فترى
الى أين تؤدى بى ؟ انه يكون من الجهل المطلق بالطبيعة وبذاتى أن أتغلل
بأن تلك التسهيلات لم تكن لتغرينى مطلقاً ، أو أن العقل كان يستوقفنى
عند ذلك المنحدر المشؤم . ومع ثقفتى فى نفسى فى كل أمر آخر ، الا
أننى ضيعت بسبب ذلك وحده . ان من ترتفع به قدرته فوق مستوى
البشر يجب أن يكون قوق مواطن الضعف الانسانى ، والا فان هذا
الفيض من القوة لن يجدى فى الواقع الا فى النزول به الى مستوى أدنى
من مستوى الآخرين ومن المستوى الذى كان من الجائز أن يلتزمه هو
نفسه ان ظل مساوياً لهم .

وبعد أن تمفنت جيداً فى الأمر كله ، فاننى اعتقد انى أفعلاً خيراً لو اننى
القيت بخاتمى السحري قبل أن يدفعنى الى الاقدام على حماقة ما . ولئن
كان الناس يصرون على رؤيتى على صورة تخالف تماماً ما أنا عليه ، وإذا
كان مظهري يثير ظلمهم فمن الواجب التهرب منهم كى أحجب عنهم هذا
المنظر لا أن أتوارى بينهم . انهم هم الذين يجب أن يختفوا من أمامى
وأن يحجبوا عنى حيلهم وأن يفروا من ضوء النهار وأن يغوصوا فى الأرض
كالخلد . وأما بالنسبة لى فلئن رأونى - ان استطاعوا الى ذلك سبيلاً -
كان ذلك خيراً ، ولكن هذا مستحيل بالنسبة لهم فانهم لن يروا أبداً فى
مكانى سوى الـ « جان جاك » الذى صاغوه لأنفسهم وشكلوه وفق هواهم
ليكرهوه كما يشاءون ، واذن ، فاننى أكون مخطئاً لو أننى تأثرت من
الطريقة التى يروننى بها ، اذ لا يجب أن أعيرها أى اهتمام حقيقى ، لأننى
لست أنا من يرونه على هذه الصورة .

ان النتيجة التى أستطيع أن أستخلصها من هذه الخواطر جميعاً
هى اننى لم أكن أبداً خليقاً حقاً بالمجتمع المتمدين حيث ليس هناك سوى

(١) الاسطورة المذهبية La Légende dorée هى مجموعة ضخمة من حياة القديسين

الفها « جاك دونوراجين Jacques de Voragine » فى القرن الخامس عشر

(٢) يقصد بمقبرة سان ميدار Saint-Médard « المقبرة التى دفن بها الشمس «باريس»

المتوفى فى عام ١٧٢٧ - وكان الباريسيون يتوجهون اليها لاعتقادهم فى امكان شفاء

المرضى عن طريق صاحبها . وقد أغلقت المقبرة بأمر السلطات العامة فى عام ١٧٢٢ .

الخرج والالتزام والواجب وإن طبعى الاستقلال جعلنى عاجزا على السوام
عن الرضوخ اللازم لمن يريد أن يعيش بين الناس . وما دمت أتصرف فى
حرية فأننى خير لا أفعل الا خيرا . ولكن ما أن أحس بالتسلط : تسلط
الحاجة أو تسلط الناس ، حتى أغدو متمردا أو بالأحرى ، جموحا : وعندئذ
أكون لا شئ . حين يكون لزاما على أن أفعل ما يناقض رغبتى فأننى
لا أفعله البتة مهما يحدث ، بل اننى لا أفعل كذلك ما يطابق رغبتى نفسها
لأننى ضعيف . اننى أمتنع عن العمل ذلك لأن كل ضعفى فى مباشرته ،
ولأن كل قوى سلبية ، ولأن كل زلاتى ناجمة عن الاحجام ، ونادرا عن
الاقدام . اننى لم أعتقد مطلقا أن حرية المرء تعنى انجاز ما يود ولكنها
فى الا يصنع مطلقا ما يريد أن يصنعه ، ذلك هو ما طالبت به دائما
وما التزمته غالبا وما كنت من أجله منددا بى لدى معاصرى : ذلك انه
بالنسبة لهم كعاملين نشيطين طموحين ، كارهين الحرية لدى الغير ، غير
راغبين فيها بالمرّة لأنفسهم ، ماداموا يفعلون أحيانا ما يشاءون أو بالأحرى
يسيطرون على مشيئة الآخرين يضيّقون طيلة حياتهم بأداء مايكرهون
ولا يتورعون عن الاستعباد مستهدفين السيطرة . واذن فان خطأهم لم
يكن فى أن يبعثونى عن المجتمع كعضو لا جدوى منه بل أن يبنونى
كعضو خبيث ، ذلك لأننى قلما فعلت الخير وأنا مقر بذلك ، أما عن الشر ،
فانه لم يدخل فى نطاق رغبتى فى حياتى ، واننى أشك فى أن هناك انسانا
فى العالم أقترف منه حقا أقل مما فعلت .

الرحلة السابعة

لم يكد يبدأ سجل أحلامي الطويلة حتى أحسست بها تشارف خاتمها وتتبعها متعة أخرى تستغرقني حتى لتسألني فترة الحلم . أننى لأستسلم لها نى ولع مفرط يضحكنى أنا نفسى حين أمن التفكير فيها ، ولكننى لا أقلل من أستسلامى لها ، ذلك لاننى - فى الوضع الذى انا به - لم تعد لدى قاعدة أخرى للسلوك اللهم الا ان أتابع ميولى فى كل الامور بغير اكرام . انى لا أملك شيئا حيال قدرى ، وليست لى سوى ميول بريئة ، ومادامت آراء الناس ليست شيئا بالنسبة لى منذ اليوم فان الحكمة نفسها تقتضى أن أقوم بعمل ما يرضينى فيما لا يزال فى متناولى، سواء أكان ذلك أمام الناس أم بينى وبين نفسى ، دون أن ألتزم قاعدة سوى ما يروق لى ، ودون معيار سوى ما بقى لى من قوة ضئيلة . أما بعد ، فهأنذا والاعشاب الجافة كل زادى ودراسة النبات كل شغلى . أما وقد تقدمت بى السن فاننى كنت قد تلقيت الانطباعة الاولى لعلم النبات فى سويسرا بالقرب من العالم ديفرنوا d'Ivernois وكننت قد جمعت الاعشاب خلال أسفارى بتوفيق يكفى لمام لا بأس به بمملكة النبات . أما وقد جاوزت الستين ، وأقيم فى باريس ، وقواى آخذة فى الاضمحلال بحيث تمنعنى من ممارسة الاستعشاب على نطاق واسع ، ومع هذا متفرع الى حد كبير لكتابة الموسيقى حتى لا أغدو وفى حاجة لأن أشغل بعمل آخر ، فقد هجرت هذه المتعة التى لم تعد ضرورة بالنسبة لى . لقد بعث معشبنى وبعث كتنبى قانعا بأن أعود أحيانا مشاهدة النباتات الشائبة التى كنت أعثر عليها حول باريس خلال تجولاتى . وخلال هذه الفترة كاد يمضى من ذاكرتى تماما القليل الذى كنت أعرفه ، بل انه انمضى فى سرعة تفوق ما استغرق نقشه عليها .

وفجأة ، وبعد أن انقضت خمسة وستون عاما من عمرى محروما من الذاكرة الضئيلة التى كنت أستمتع بها ومما كان متبقيا لى من قوى للتجول فى الريف بغير مرشد وبغير كتاب وبغير حديقة وبغير معشب ،

أراني وقد عاودني هذا التهوس ولكن في عنف أشد . كذلك مما انتابني عندما استسلمت له في المرة الأولى . هأنذا مشغول جديا بمشروع حكيم هو استظهار مؤلف « موري » Murray (١) عن المملكة النباتية Regnum vegetable والتعرف الي كافة أنواع النبات المعروفة على سطح الأرض . ولما كنت في حالة لا تسمح بمعاودة شراء كتب النبات فقد أخذت على عاتقي أن أنسخ ما كانوا يعيرونني اياه . ولما كنت أعتزم إعادة انشاء معشب أغنى في محتوياته من الاول ، وبأمل أن أضع فيه كل نباتات البحر والألب وكل أشجار الهند ، فأننى أبدأ كعادتي بالرخيص مثل « الرتم » (عين القط) Mouron (٢) و « الكريزة الخضراء » (المقدونس الافرنجي) cerfeuil و « لسان الثور » Bourrache « والمرار (حشيشة يعقوب) Seneçon وأنا أجمع العشب عن خبرة فوق قفص طيورى وكلما عثرت على نبتة جديدة من العشب كنت أقول لنفسى فى ارتياح « هاك أيضا نبات آخر » .

لست أحاول أن أبرر اختياري لمتابعة تلك الهواية . اننى أجدها معقولة جدا ، وأنا موقن ، فى وضعى الراهن ، أن استسلامى للمتعة التى ترضينى هو حكمة كبيرة بل هو فضيلة كبيرة كذلك : ان هذه الوسيلة التى لا تدع أية جرثومة للانتقام أو الكراهية تتوالد فى قلبى ولكى أجد فى حياتى طعما لتسلية ما ، يتعين على من غير شك أن يكون هناك طبع مصفى تماما من كل انفعالات الحنق . ان هذا لهو بمثابة انتقام من مضطهدى على طريقتى : ولم أك لأستطيع أن أنزل بهم من العقاب ما هو أقسى من أن أكون سعيدا بالرغم منهم .

أجل ، من غير شك ، أن الحكمة تبيح لى بل تملى على أن أستسلم لكل ميل يستهوينى ولا يعوقنى شيء عن الانسياق وراءه ، ولكنها لا ترشدنى عن سبب استهواء هذا الميل لى وعن أى اغراء أستطيع أن أجده فى دراسة عقيمة لا جدوى من وراءها ولا تقدم يرجى لها . وتعود بى الى تمرينات الشباب والى دروس التلاميذ بينا أناعجوز مخرف . وقد أصبحت متهالكا ثقيل الحركة قد ذهبت مرونتى وذاكرتى جميعا ، واذن فهذه مسألة بها من الغرابة ما أحب أن أفسره لنفسى . ذلك أنه يخيل لى ، حين تنجلي

(١) موري « جوان - أندرياس » Joannes-Andreas Murray طبيب وعالم نبات سويدي ولد في استكهلم سنة ١٧٤٠ ومات في جوتنجه بألمانيا سنة ١٧٩١ وهو واحد من تلاميذ لينيه Linné المقربين .
(٢) من «العجم المصور لاسماء النباتات» : القاهرة : ١٩٣٦ - لارمنالك . بديفيان .

تماما ، أنها تستطيع أن تلقى ضوءا جديدا على هذه المعرفة لذاتي ، تلك المعرفة التي كرسيت لتحصيلها أيام فراغى الأخيرة .

لقد فكرت أحيانا تفكيرا عميقا ، ولكن نادرا ما كنت راضيا ، بل كان ذلك فى أغلب الاحيان على غير رغبة منى وكانما بالاكراه . ان أحلام اليقظة تريحنى وتسرى عنى ، وأما امعان الفكر فيجهدنى ويحزننى . ان التفكير كان بالنسبة لى على السوام شاغلا شاقا لا سحر فيه . وقد تنتهى أحلام يقظتى أحيانا بالتأمل ، ولكن تأملاتى فى أغلب الامر تنتهى بحلم يقظة . وخلال هذا الشرود تهيم روحى وتسبح فى العالم على أجنحة الخيال فى نشوات تفوق كل متعة أخرى .

اننى كلما تذوقتها فى كل صفائها غدا كل شاغل آخر لا طعم له دائما بالنسبة لى ، ولكن ما أن كان يلقي بى فى المجال الأدبى بسبب دوافع غريبة حتى أحس بالاجهاد من جراء العمل الذهنى ومن عبء شهرة منكودة وحتى أحس فى الوقت نفسه بأحلام يقظتى الحلوة تسقم وتفتت ، وحالما أضطر لاشغل بارغم منى بوضعى المرير لا أعود أستطيع العثور من جديد - الا فى القليل النادر - على هذه النشوات العريضة التى ظلت خلال خمسين عاما تحتل منى مكانة الثراء والمجد ، والتى - من غير أن تقتضينى سوى الوقت - جعلتنى فى فراغى أسعد الاحياء طرا .

لقد كان ما أخشاه كذلك فى أحلام يقظتى أن يجنح خيالى بنشاطه فى نهاية الامر الى هذه الناحية مذعورا من نكباتى . وان الشعور المستمر بالآمى وهى تعترض قلبى تدريجيا ينوء على فى نهاية الأمر بكل وطائها . وفى هذه الحالة فرضت غريزة طبيعية لدى - تجعلنى أتحاشى كل فكرة مقبضة - السكينة على خيالى ، وجعلتنى - بتركيز انتباهى على كل ما يحيط بى من أمور - أتناول بالتفصيل للمرة الاولى مشهد الطبيعة الذى لم اكن قد تأملته اطلاقا حتى اذ ذلك الا ككل متكامل .

ان الأشجار والشجيرات والنباتات هى زينة الأرض ودثارها ، وليس من شىء يدعو الى الأسى كمشهد ريف عار أجرد ، لا تعرض للعين منه سوى أحجار وطمى ورمال . ولكن ما أن تجيب الطبيعة الارض فتعاود ارتداء ثوب عرسها بين خريير الماء وأهازيج الطيور حتى تقدم للانسان بين تناسق الممالك الثلاث مشهدا زاخرا بالحياة والاثارة والفتنة هو المشهد الوحيد فى العالم الذى لا تكلم منه عيناه وقلبه أبدا .

وكلما كانت للمتأمل روح حساسة كلما استسلم لنشواته التى تثير فيه هذا التوافق . عندئذ يستحوذ على حواسنه حلم يقظة حلو عميق

فيضل بخدر لذيذ في سعة هذا الكون الرائع الذي يحس انه امتزج به ،
وعندئذ تشرذ منه التفصيلات فلا يرى ولا يحس شيئا سوى ما يداخل
المجموعة . ولا بد من ظرف خاص يلم أفكاره ويحصر خياله حتى يستطيع
أن يلاحظ - مجزءا - هذا العالم الذي كان يجهد نفسه في الاطاحة به .

ان هذا هو ما حدث لي بطبيعة الحال عند ما كان قلبي - وقد حاق
به الضيق - بقارب ما بين ويركز كل انتفاضة من حوله كي يحتفظ
بهذه البقية من الحرارة على أهبة التبخر والضياح في ثنايا الانهيار الذي
كنت أنحدر اليه تدريجيا . اننى كنت أتسكع متجولا في تكاسل في
الغايات والجبال ، لا أجسر على التفكير خشية استشارة أوجاعى . وكان
خيالى الذى يتأبى عند الشاق من الامور يدع حواسي تستسلم للانطباعات
الخفيفة ، الحلوة مع ذلك ، لما يحيط بي منها . وكانت عيناي تجولان
باستمرار من شىء الى آخر ، ولم يكن من المستطاع وسط مثل هذا التباين
الكبير ألا يوجد فيه ما يزيد من تركيز انتباهها واستيقافها مدة أطول .

لقد راقت لي رياضة العيون هذه التى تريح وتسلى وتروح عن الذهن
وتوقف الاحساس بالالام حين يستشعر المرء الشقاء . ان طبيعة الأشياء
تساعد كثيرا على هذه السلوى وتجعلها أشد اغراء . ان الروائح الشذية
والالوان الزاهية والصور البالغة الرشاقة تبدو وكأنما تتنازع حق استرعاء
انتباهنا . وما علينا الا أن نحسب المتعة كي نستسلم الى أحاسيس بهذه
الدرجة من الحلوة ولو أن هذا الاثر لم يبد على كل من صادفتهم تلك
المتعة فان ذلك يرجع لدى البعض الى انعدام الحساسية الطبيعية ، وهو
لدى الأغلبية يرجع الى أن أذهانهم وقد شغلت بأفكار أخرى لم تعد
تتصرف الا خلسة الى الامور التى تصك حواسهم .

وهناك أمر آخر يسهم كذلك فى ابعاد انتباه ذوى الذوق السليم
عن المملكة النباتية ذلك هو اعتياد عدم البحث فى النبات عن غير
العقاقير والادوية . ولقد تناول «ثيوفراست» (١) Théophraste ذلك
من زاوية أخرى . ويمكن اعتبار هذا الفيلسوف كأنما هو عالم النبات
الوحيد فى العصور القديمة ، ولذا فهو لا يكاد يكون معروفا بيننا ، ولكن
بفضل من يدعى «ديوسكوريد» Dioscoride وهو مصنف مشهور لالوصفات
الطبية ، وبفضل شراحه ، استطاع الطب أن يستحوذ على نباتات محولة
الى عقاقير حتى لا يرى المرء فيها سوى ما كان لا يراه فيها أبدا ، بمعنى

(١) ثيوفراست Théophraste فيلسوف يونانى ولد في جزيرة لسبوس (حوالى
٣٢٢ - ٢٨٧ ق.م) ، كتب مؤلفا عنوانه Caractères

انه يرى فيها المزايا المزعومة التي ينسبها اليها «فلان أو علان» ولا يدرك المرء أن التنظيم النباتي يستحق في حد ذاته أن ينال عناية ما ٠٠ ان الأشخاص الذين يقضون حياتهم في ترتيب القواقع ترتيبا علميا يسخرون من علم النبات كأنما هو دراسة غير ذات نفع وذلك حين لا تلحق بها كما يقولون دراسة الخواص ، أى حين لا يهمل المرء ملاحظة الطبيعة التي لا تكذب أبدا والتي لا تروى لنا شيئا من هذا كله ، ليستسلم فقط لرأى الناس وهم كاذبون ، والذين يؤكدون لنا أشياء كثيرة يجب التسليم بها بناء على قولهم الذى يستند في أغلب الامر على أساس رأى الآخريين . قف فى مرعى مزهر كى تتفحص تباعا الأزهار التي يزدان بها ، فإن من يرونك كذلك سيظنونك « حلاق صحة » فيسألونك بعض الاعشاب لشفاء « قوبة الزيتون » للاطفال أو « جرب » الرجال أو « ننين » الخيل .

ان هذا الاعتقاد قد انهار جانب منه فى البلاد الاخرى وبخاصة فى انجلترا بفضل ليناوس Linnaeus (١) الذى أطل الى حد ما دراسة النبات فى مدارس الصيدلة ناقلا اياها الى حقل التاريخ الطبيعى وميدان الانتفاع الاقتصادى . أما فى فرنسا حيث كان تغفل هذه الدراسة أقل لدى الطبقة المتمدنية ، فقد ظلوا فى هذه الناحية من البدائية حتى ليصبح متطرف باريس متدخا ، حين يشهد فى لندن حديقة فريدة مليئة بالاشجار والنباتات النادرة ، قائلا : « هاكم حديقة بالغة الجمال لصيدلانى » وعلى هذا الاعتبار كان آدم الصيدلى الاول ، ذلك لانه ليس من الميسور أن نتخيل حديقة تجمع شتات النباتات خيرا من جنة عدن . هذه الافكار الطبية ليست بالتأكيد كفيلة بأن تجعل من دراسة النبات دراسة مستحبة ، فهى تذبذب ازدهار المراعى وتألقت الزهور وتحجف نضارة الخمائل وتجعل الخضرة والظلال تافهة ممجوجة . ان كل تلك المركبات الرائعة الرقيقة لا تهم بحال من لا يود الا أن يجمع ذلك كله فى هاون ، ولن يبحث المرء عن أكاليل للرعايات بين أعشاب لغسيل الامعاء . ان هذه الصيدلة كلها لم تكن تفسد أبدا صور الريف لدى ، فلم يكن هناك ما هو أبعد منها . أكثر من « منقوعات الاعشاب » و « اللزقات » وطالما فكرت ، وأنا أتأمل عن كئيب الحقول والبساتين والغابات وسكانها العديدين ، أن مملكة النبات كانت مستودعا للمواد الغذائية التي تمنحها

(١) كتاب نظام التقسيم الطبيعى للنباتات System naturae هو من تأليف عالم النبات السويدي لينيه linne (١٧٠٧ - ١٧٧٨) نشر الكتاب عام ١٧٣٥ ، وكان روسو

الطبيعة للانسان والحيوان ، ولكن لم يخطر ببالي مطلقا أن أبحث فيها عن عقاقير وأدوية • ولست أرى شيئا في هذه المخصولات المتباينة يرشدني الى مثل هذا الاستعمال • ولعلها كانت تحدد لنا الاختيار لو أنها أملتة علينا ، كما فعلت بالنسبة للمواد الغذائية ، بل انني لأحس أن المتبعة التي أنالها بتجولى بين الحماثل قد يفسدها الشعور بالضعف البشرى ان هو أتاح لى التفكير فى الحمى والحصوة والنقرس ومرض الشينخوخة • ومن ثم فلن أناقش البتة النباتات فيما ينسب اليها من مزايا ضخمة ، بل سأكتفى بأن أقول : انه بافتراض أن تلك المزايا حقيقية ، فإنه من الحبث المحض أن يظل المرضى غاى مرضهم لانه من بين كل الامراض التي يتعرض الناس لها ليس هناك مرض واحد لا يقطع دابره عشرون نوعا من الاعشاب •

ان اتجاهات الفكر هذه - التي ترجع دائما كل شيء الى مصلحتنا المادية والتي تدعو الى البحث فى كل شيء عن كسب أو دواء ، والتي كانت حربية بأن تدفع الى النظر الى الطبيعة جميعا بغير تحيز لو أن المرء كان دائما فى صحة طيبة - لم يكن لى منها نصيب مطلقا • وانى لأحس فى ذلك اننى على نقيض الآخرين ، فان كل ما يتصل بالاحساس بحاجاتى يحزن أفكارى ويفسدها ، ولم أجد مطلقا أى سحر حقيقى فى متع الفكر الا اذا أسقطت من حسابى تماما مصلحة جسدى • وهكذا - حتى حين كنت أومن بالطب ، وحتى لو أن الدواء كان مستساغا - فاننى لم أكن لأجد نفسى أشغل مطلقا بهذه المتع يضيفها تأمل خالص مجرد ، ولن تستطيع روحى أن تهتل وتحلق فوق الطبيعة ما دمت أحس بها تشبث بقيود جسدى •

هذا الى اننى برغم انه لم تكن لى مطلقا ثقة كبيرة فى الطب الا انه كان لدى الكثير منها فى أطباء كنت أقدرهم وأحبهم وكنت أترك لهم مطلق الحرية فى التسلسل على جسدى بسلطان كامل • أن خمس عشرة سنة من التجربة زودتنى بالعلم على حساب نفسى • أما وقد عدت الآن تحت سلطان قوانين الطبيعة وحدها فقد استعدت عن طريقها سابق صحتى • وحين لا يغدو للأطباء شكاوى أخرى ضدى فمن ذا يستطيع أن يدعش من كراهيتهم ؟ اننى البرهان الجلى على تفاهة فنههم وعلى عدم جدوى جهودهم •

كلا •• ليس هناك أمر شخصى ، وليس هناك من شيء يتصل بمصلحة جسدى يستطيع أن يشغل روحى حقا • اننى لا أفكر ولست أحلم مطلقا أحلاما أكثر امتاعا منها الا حين أتناسى نفسى • وانى لأحس انتشاء وسعادة غامرة لا يستطاع التعبير عنهما الى حد أننى أفنى - كما

يقال - في نظام الكائنات حتى امتزج بالطبيعة جمعاء . وطالما كان الناس أخوة لى فقد كنت أشيد مشروعات سعادة دنيوية ، ولما كانت هذه المشروعات دائما متعلقة بالمجموع ، فلم أكن أستطيع أن أكون سعيدا الا بسعادة الجميع ، ولم يحدث أن منست قلبى مطلقا فكرة السعادة الفردية الا حين رأيت اخوانى لا يبحثون عن سعادتهم الا فى شقوتى . وعندئذ كان من الواجب حتما تجنبهم حتى لا أبغضهم وعندئذ - بالتجائى الى أم الجميع - حاولت بين أحضانها أن أفلت مما يصيبنى به أبنائها ، وأصبحت منعزلا ، أو كما يقولون ، غير اجتماعى ، كارها للناس ، ذلك لأن أشد ألوان الوحدة قسوة كان يبدو لى أفضل من مجتمع الاشرار الذى لا يفتدى الا بالخيانة والبغضاء .

أما وأنا مضطر الى الامتناع عن التفكير خشية أن أفكر فيما حل بى من شرور على الرغم منى ، ومضطر أيضا الى اختزن مخفات خيالى الضاحك - وان كان فاترا - حتى لتستطيع كل تلك المفزعات أن تنفرنى فى نهاية الامر ، ومضطر كذلك الى محاولة نسيان أولئك الذين يهيلون على المهانات والسباب خشية أن يثيرنى الغضب ضدهم ، فانى لا أملك مع ذلك أن أتركز كلية فى ذاتى، لان روحى الفياضة تسعى - برغم ما بى - الى أن تبسط مشاعرها وكيانها على الكائنات الاخرى ، ولست أستطيع بعد - كما كانت الحال من قبل - أن أنقى بنفسى مطأطء الرأس فى محيط الطبعة الشاسع هذا ، لان ملكاتى - وقد ضعفت ووهنت - لم تعد تلقى أمورا على قدر من التحديد والثبات ، وفى متناولى كذلك ، بحيث أعلم بها فى عنف، ولا أحس معها بقوة تكفى لتمكننى من السباحة فى هذا الخضم من نشواتى القديمة . أن أفكارى لم تعد تقريبا سوى مشاعر ، وان مجال ادراكى لا يتعدى الامور التى تحيط بى مباشرة .

أما وأنا هارب من الناس وساع وراء العزلة وعاجز عن التخيل ، وعن التفكير أكثر عجزا وموهوب مع ذلك فى الوقت نفسه مزاجا متوقدا يبعدى عن البلادة المسقمة المحزنة . فقد بدأت أشغل بكل ما يحيط بى ، وفضلت بغريزة طبيعية جدا - الاشياء الأكثر امتاعا ، ولم يكن فى المملكة المعدنية فى ذاتها ما يجذب فيها أو يجذب اليها ، ان ثرواتها المدفونة فى باطن الارض تبدو كأنما أبعدت عن أنظار الانسان حتى لا تثير شرهه وهى هناك وكأنما أحتفظ بها لتستخدم يوما لتزود الثروات الحقيقية التى هى اقرب الى متناولها والتى يفقد لذة مذاقها كلما ازداد فسادا ، وعندئذ يجب أن يلجأ الى الصناعة والى الكد والعمل لتنقذه من فاقته . انه ينقب فى باطن الارض ويتوغل باحثا فى صميمها ، مخاطرا بحياته، وعلى حساب

صحته ، عن ثروات خيالية بدلا من الثروات الحقيقية التي كانت تهبها إياه عن طواعية عندما كان يعزف طريقه الى الاستمتاع بها . انه يهرب من الشمس والنهار اللذين لم يعد جديرا برؤيتهما . انه يدفن نفسه حيا ، وخيرا يفعل ، اذ لم يعد يستحق الحياة فى ضوء النهار . . هناك المحاجر والاغوار وورش الحدادة والافران ومعدات من السندان والمطارق ودخان ونار ، تخلف جميعها الصور الحلوة للعمل فى الحقول . . ان الوجوه المصفرة لاولئك البؤساء الذين يسقمون من جراء الابخرة الكريهة فى المناجم والحدادين السود والمسوخ المنفرين . . كل اولئك هم المشهد الذى تحله معدات المناجم - فى باطن الارض - محل الخضرة والازهار ومحل السماء الزرقاء والرعاة العاشقين والفلاحين الاشداء على سطحها .

اننى اعترف انه ايسر للمرء أن يجمع الرمال والاحجار وأن يملأ بها جيوبه ومكتبه ، وأن يضىء على نفسه بذلك سيماء دارس الطبيعة . أما الذين يتعلقون بهذه الالوان من المجموعات ويقتصرون عليها فهم فى العادة أغنياء جهلة لا يرومون من وراء ذلك سوى غرور المظهر . يجب على المرء أن يكون كيميائيا ومن علماء الطبيعة كى يفيد من دراسة المعادن .

يجب القيام بتجارب شاقة باهظة التكاليف ، والعمل فى المعامل وانفاق الكثير من المال والوقت بين الفحم والبواتق والافران والمعوجات ، بين الدخان والابخرة الخائفة ، معرضا حياته للخطر على الدوام على حساب صحته فى أغلب الامر . ومن وراء كل هذا العمل الكثيب المرهق يتأتى عادة من المعرفة اقل بكثير مما يتأتى من الغرور . وأين هو أقل الكيميائيين شأنا الذى لا يظن أنه قد استطاع أن يتغلغل فى أعماق العمليات الكبرى للطبيعة لانه كشف - ربما عن طريق الصدفة - بعض التركيبات الفنية الصغرى ؟

ان مملكة الحيوان أقرب اليانا من غيرها وهى تستحق كذلك من غير شك أن تدرس دراسة أوفى . ولكن أليست لهذه الدراسة أيضا فى النهاية صعوباتها ومازقتها ومنفراتها ومتاعبها ولا سيما بالنسبة لمعتزل ليس له أن يأمل فى عون أحد فى لهوه أو عمله ؟ كيف يمكن ملاحظة تشريح أو درس أو التعرف على الطيور فى مساربها والاسماك فى مسابحها والدواب أخف من الريح وأقوى من البشر . . . التى لا يزيد استعدادها لان تقدم لتعرض نفسها لباحثى عن استعدادى لمتابعتها بفتية اخضاعها عنوة لدراستها ؟ واذن فستكون مصادرى القواقع والديدان والذباب وسأقضى حياتى لاهثا سعيا وراء الفراشات خازقا للحشرات التمسمة ومشرحا للفتران - حين أستطيع الحصول عليها - أو جيف البهائم التى قد أصادفها

ميتة • ان دراسة الحيوان لا تعد شيئا بغير التشريح اذ به يتعلم الانسان كيف يرتبها ويميز بين أنواعها وفصائلها ، ويجب أن تكون هناك حظائر وأحواض وزرائب كى تدرس من ناحية طبائعها وخصائصها ، كما يجب أن ترغم بطريقة كائنة ما تكون كى تبقى متجمعة جولى • انه ليس لدى من الميل أو الوسائل ما يمكننى من أن احتفظ بها حبيسة ، كما انه ليست لدى الخفة اللازمة لتتبعها فى مراحها حين تكون طليقة • واذن فمن اللازم أن تدرس وهى ميتة وأن تقطع أوصالها وتنتزع عظامها وينقب بتؤدة فى أحشائها النابضة • يا له من جهاز كريبه ، معمل التشريح هذا ! فمن جثث عفنة ولحم رخو وسائل ••• ودم وأمعاء تثير الاشمئزاز وهياكل كريبه وأبخرة وبائية ! أقسم بشرفى أن جان جاك لن يلجأ اليها ليسعى وراء ملهاته فيها •

أيتها الزهور المتألثة •• يازينة المراعى ! أيتها الظلال الرطبة والجداول والاعراش والخضرة ! تقدمن لتطهير خيالى الملوث بكل هذه الامور الكريبه ! ان روحى اذ تقضى أمام كل الاحداث الكبار لم تعد تتأثر الا بالمحسوسات • انه لم تبق لى الا أحاميس ، ولم يعد الالم واللذة فى هذه الحياة الدنيا يستطيعان أن ينالا معنى الا عن طريقها • اننى حين يجتذبنى المبهج مما يحيطنى من أمور أتأملها وأشهدها وأقارن بينها ثم أعرف أخيرا كيف أصنفها • ثم هأنذا فجأة دارس نبات يحتاج الى أن يكونه من لا يود دراسة الطبيعة الا ليجد دائما أسبابا جديدة لتعشقها •

اننى لا أرمى البتة الى أن أتعلم فقد فات أو ان ذلك ، هذا الى أننى لم أر مطلقا ان كل ذلك العلم أسهم فى سعادة الحياة ، ولكننى أحاول أن أتزود بالوان من التسلية السارة الميسرة التى أستطيع أن أتذوقها فى غير عناء ، والتى تستطيع أن تلهينى عن متاعبى • لن يكلفنى شيئا أو يسبب لى ألما أن أتنقل متكاسلا من عشب الى عشب ومن نبات الى نبات لاتفحصها ولاقارن بين خصائصها المتباينة ولأسجل وجوه التشابه والاختلاف بينها ولألاحظ التنظيم النباتى بحيث أتتبع تطور هذه الادوات الحية والدور الذى تقوم به ، وبحيث أوفق أحيانا للكشف عن قوانينها العامة وسبب اختلاف تركيبها والغرض منه ، وبحيث أستسلم لسحر الاعجاب العارف بالفضل لليد التى جعلتنى أستمتع بهذا كله •

أن النباتات تبدو وكأنها قد نثرت بوقرة على الارض كما تنتثر النجوم فى السماء لثدعو الانسان - باغراء المتعة والفضول الى دراسة الطبيعة •• أما الكواكب فبعيدة عنا ويتطلب الوصول اليها وتقريبها لنا

معارف أولية وأدوات وآلات وسلالم بالغة الطول • أما النباتات فهي موجودة بالطبيعة هنا • انها تولد تحت أقدامنا وبين أيدينا - كما يقال - ولئن كان صغور أجزائها الاساسية يحجبها أحيانا عن العين المجردة ، فان الادوات التي تكشف عنها ذات استعمال أيسر بكثير من الآلات علم الفلك . ان علم النبات هو مجال دراسة المعتزل الفارغ الكسول ، وان سنا مديبة وعدسة هما كل ما يلزمه من جهاز ليفحص النباتات . انه يتنزه ويتجول بحرية من شيء الى آخر ويستعرض كل زهرة باهتمام وفضول وما ان يبدأ فى ادراك قواعد تركيبها حتى يتذوق فى ملاحظتها لذة بغير ألم • • شديدة مع ذلك - كما لو كانت قد تكلفت الكثير • ان فى هذا الشاغل الفارغ سحرا لا يحسه المرء الا فى هدوء العواطف الكامل ، ولكنه يكفى وحده عندئذ ليجعل الحياة سعيدة حلوة ، ولكن ، ما ان يخالطه دافع لمصلحة أو غرور اما لشغل وظائف أو لتأليف كتب • • أى أنه عندما لا يرغب المرء فى التعلم الا بقصد التعليم ولا يستعشب الا ليغدو مؤلفا أو معلما حتى يتلاشى ذلك السحر الحلو فلا يعود يرى فى النباتات سوى وسائل الهواية ولا يعود المرء يرى متعة حقة فى دراستها ، فهو لا يريد بعد أن يعرف ولكنه يظهر أنه يعرف • والمرء فى الغاب ، كأنما هو على مسرح الحياة ، مشغول بالعمل على اعجاب الناس به أو هو مقتصر على دراسة النبات فى المكاتب أو الحديقة على الاكثر بدلا من ملاحظة النباتات فى الطبيعة ، ثم لا يشغل نفسه الا بالطريقة والمنهاج وهما مادة خالدة للجدل لا تعرف بنبات جديد ولا تلقى أى ضوء حقيقى على التاريخ الطبيعى أو مملكة النبات . من هنا كانت الكراهية والاحقاد التى يثيرها التنافس على الشهرة لدى المؤلفين من علماء النبات على غرار ما يحدث بين العلماء الآخرين بل اكثر . وبتشويه تلك الدراسة المحببة ينقلونها الى داخل المدن والاكاديميات حيث لا يقل انحطاطها عما تنحط اليه النباتات المجلوبة التى يؤتى بها الى حدائق محبى الاستطلاع •

ولقد أسهمت استعدادات متباينة لتجعل من هذه الدراسة بالنسبة لى نوعا من الهوايات يملأ الفراغ الذى خلفته كل الهوايات التى لم يعد لدى منها شيء • • انى أتسلق الصخور والجبال وأتوغل فى بطون الوديان، وفى الغابات لاتوارى بقدر الامكان عن تفكير الناس وعن اذى الاشرار . وانه ليخيل الى وأنا فى ظلال الغابة أننى منسى ، حر ، هادىء ، كما لو لم يعد لى من أعداء أو كأنما عملت أوراق أشجار الغابة على حمايتى من أذاهم كما تبعدهم عن ذاكرتى • واننى لاتخيل - فى جهالتى اننى حين أقصيهم عن تفكيرى سوف لا يفكرون هم فى أيضا • اننى لأجد لذة كبرى فى هذا

الوهم حتى لا أكاد أستسلم له كلية لو أن مركزى وضعفى واحتياجاتى كانت تسمح لى بذلك . وكلما أوغلت العزلة التى أحيا فيها فى عمقها ، كلما كان من الضرورى أن يملا فراغها شيء ما ، فكل من ياباه خيالى أو تطرده ذاكرتى تشغل مكانه النباتات التلقائية التى تعرضها لعينى فى كل ناحية الارض التى لم يسخرها الانسان . ان اللذة فى الخروج الى الصحراء للبحث عن نباتات جديدة تطفى على لذة الهروب من مضطهدى ، وما ان أصل الى مواطن لا أرى فيها أى اثر للناس حتى أتشمس الهواء فى حرية أكثر كما لو كنت فى ملجأ لا تلاحقنى فيه بغضاؤهم .

انى سوف أذكر طيلة حياتى استعشابا قمت به يوما من الايام فى ناحية روبيلا Robaila جبل القاضى كلير (Clerc) . لقد كنت وحيدا وتوغلت فى منحنيات الجبل وأخذت أتقل من غابة الى غابة ومن صخرة الى صخرة حتى بلغت ملاذا بلغ من انزوائه أننى لم أشهد فى حياتى من قبل منظرا أكثر استيحاشا منه . كانت أشجار الشوح السوداء تختلط بأشجار الزان الضخمة التى تهاوى العديد منها من الشيوخوخة وتشابكت ببعضها البعض حتى احتجزت هذا الملاذ بحواجز لا يمكن اختراقها ، وكانت بعض الفتحات التى تتخلل هذا الحاجز المظلم لا تعرض للناظر من ورائها سوى صخور قطعت عموديا وسوى هوى مخيفة لم أكن لأجرؤ على النظر اليها الا ان انبطحت على بطنى . وكان البوم والمصاصة وعقاب البحر يتردد صدى نعيقها فى صدع الجبال وكان يخفف مع ذلك من وحشة هذه العزلة قليل جدا من الطيور الصغيرة المعروفة . وقد وجدت هناك حشيشة السنان السباعية Dentaire heptaphyllos وبخور مريم (سيكلامان) Ciclamen وعش النحل (سرخس عش الترن) Nidus avis وعشبا من الاعشاب الراتنجية والخيمية يشبه البقدونس Grand laserpitium وبعض نباتات أخرى فتننتى وأدخلت السرور الى نفسى طويلا . ولكننى ، وقد سيطر على الطابع القوى لهذه الاشياء دون أن أشعر ، نسيت علم النبات والنباتات وجلست على حشيات من المساكية (رجل الذئب) Lycopodium والعشب الندى والطحلب وأخذت أحلم فى مزيد من الراحة ، أرانى وكأنى فى مأوى مجهول من العالم جميعا حيث لا يستطيع مضطهدى أن يبتزغنى منه . وسرعان ما خانطت ذلك الحلم نزعة غرور فكنت أقارن نفسى بأولئك الرحالة الكبار الذين يكتشفون جزيرة مهجورة ، وكنت أحدث نفسى فى اعجاب قائلا : « لا ريب أننى أول كائن وصل الى هذا المكان » . وكنت أجد فى شخصى (كولومب) آخر . وبينما أنا أختال فى هذا التفكير ، سمعت على مبعدة قليلة منى قرقة ما خيل الى أننى أعرفها . فأصغيت ، وتكررت

الصوت نفسه وتضاعف فحقت من مكاني دهشا يجدوني الفضول ونفذت من خلال أجمة من الاعشاب في اتجاه مصدر الصوت ولاحظت وجود مصنع للجوارب في منخفض يبعد عشرين خطوة من المكان نفسه الذي كنت أحسبني أول من ارتاده .

ولست أستطيع أن أعبر عن الاضطراب الغامض المتناقض الذي أحسسته في قلبي عند هذا الاكتشاف ، كان اول ما انتابني شعور بالفرح حين وجدتني بين آدميين في مكان كنت أحسبني وحيدا فيه . ولكن هذا الاحساس - في أسرع من البرق - سرعان ما أفسح مكانا لشعور أليم أطول مدى كما لو كنت لا أستطيع في مغاور جبال الألب نفسها أن أفلت من القبضة القاسية لأولئك المتجسسين لتعذبي ، ذلك لانني كنت واثقا تماما أنه ربما لم يكن هناك رجلان في هذا المصنع لم يسهما جديا في المؤامرة التي كان يتزعمها الواعظ (مونمولين) Montmolin (١٧) والتي كان يحرك من بعيد دوافعها الأولى ، وسرعان ما أبعدت هذا الخاطر الكئيب وانتهى الامر بي الى أن أضحك في سريرتي وأضحك من غروري الصبباني ومن الطريقة الهزلية التي عوقبت بها من أجله .

ولكن في الواقع من ذا الذي كان يتوقع أن يجد مصنعا في هوة سحيقة ؟ انه ليست هناك في العالم سوى سويسرا التي تستطيع أن تعرض هذا الخليط من الطبيعة البرية والصناعة الانسانية . وليست سويسرا بأكملها - على حد القول - سوى مدينة كبيرة ، شوارعها أكبر وأطول من شوارع سانت أنطوان Saint-Antoine تنتشر فيها الغابات وتدخلها الجبال وتصل الحدائق الانجليزية ما بين بيوتها المتناثرة المنعزلة عن بعضها وبهذه المناسبة تذكرت استسعابا آخر كان دي بيرو du Peyrou وديشرني d'Eschery والكولونيل بيوري colonel Pury والقاضي كلير justicier Clere وأنا ، قد قمنا به منذ وقت على جبل Chasseron شاسيرون (٢) الذي يكشف المرء من قمته سبع بحيرات . وقد قيل لنا انه لم يكن هناك فوق هذا الجبل سوى بيت واحد ولم يكن في استطاعتنا التكهّن على وجه الدقة بمهنة ساكنه لو لم يصف الى ذلك القول بأنه كان

(١) كانت خطبة الواعظ مونمولين Montmolin ضد روسو سببا في خروج أهل موتيه Môtiers غاضبين فالتقوا بالحجارة على نوافذ بيت روسو في اليوم الاول من سبتمبر

عام ١٧٦٥ .

(٢) لا يقصد هنا جبل شاسيرون Chasseron بل شاسرال Chasseral ومن هذا الجبل يمكن مشاهدة البحيرات السبع .

كتيبا وأنه كان يباشر أعماله كذلك بنجاح كبير في الاقليم . ويخيل الى أن واقعة واحدة من هذا النوع تعرفنا بسويسرا أكثر من كل ما يقدمه المسافرون من أوصاف .

وهاك واقعة أخرى من هذا النوع - أو تكاد - ليست أقل تعريفا لنا بشعب مختلف عنا تماما : ذلك أنه خلال اقامتي في جنوبل Grenoble كثيرا ما كنت أقوم باستشعابات صغيرة خارج المدينة مع السيد بوفيه Bovier (1) المحامى بذلك الاقليم لا لأنه كان يحب علم النبات أو كان على دراية به ، ولكن لأنه نصب من نفسه حارسا لي وآلى على نفسه ألا يتركني خطوة واحدة ما استطاع الى ذلك سبيلا . وذات يوم كنا نتنزه على ضفة نهر الايزير L'Isère في منطقة حافلة بالصفصاف الابرى ورأيت على هذه الشجيرات فاكهة ناضجة ، وتملكني الفضول لتذوقها ، ولما وجدت بها بعض الحموضة التي راقت لي جدا ، أخذت أكل من هذه الثمار لأنعش نفسي . وكان السيد بوفيه واقفا الى جوارى دون أن يقلدني ودون أن يقول شيئا . وفجأة أقبل أحد اصدقائه الذي ما أن رأني ألتقط هذه الثمار حتى قال : ايه يا سيدى ! ما هذا الذى تفعله ؟ الا تدرى أن هذه الفاكهة سامة ؟ فصحت دهشنا جدا : هذه الفاكهة سامة ! فأجاب : ما فى ذلك من ريب ، وكل الناس يعلمون ذلك تماما حتى ان واحدا من الاقليم لم يفكر في تذوقها. فنظرت الى السيد بوفيه وقلت له : لم اذن لم تنبهنى الى ذلك ؟ فأجابني باحترام قائلا : آه يا سيدى ! اننى لم أكن أجرؤ لأسمح لِنفسي بهذه الحرية . . فأخذت أضحك من هذا التواضع الخاص بمقاطعة دوفينيه Dauphiné وأنا أتوقف مع ذلك عن الاستمرار فى تناول هذه الوجبة الصغيرة . وكنت مقتنعا - كما لا ازال - أن كل انتاج للطبيعة مستساغ الطعم لا يمكن ان يسبب اذى للجسم ، أو هو - على الاقل - لا يؤذيه الا بالافراط فيه . ومع ذلك فأعترف أننى طاوعت نفسى قليلا بقية اليوم وان خالط ذلك بعض القلق وتناولت وجبة عشاء في شهية كبيرة ونمت خيرا من ذلك وصحوت في الصباح وأنا أكمل ما أكون صحة بعد أن التهمت في اليوم السابق خمس عشرة أو عشرين ثمرة من ذلك الغاسول الرومى hippophoe الذى تكفى منه كمية ضئيلة جدا للتسمم ، على نحو ما قاله لي

(1) رواية المحامى بوفيه Bovier حوالى عام 1802 تختلف عن رواية روسو ،

وذلك في A. Jevy : Un document inédit sur le séjour de J.J. Rousseau à Grenoble en 1768 Vitry — le — Français, 1898, p.p. 42 - 8,

اذ يقول فيها انه لم يقرأ تفسير روسو لتلك الحادثة الا بعد نشر « الاعترافات » التى تلتها « أحلام اليقظة » .

الجميع قبي جزوبل فى اليوم التالى . وقد بدت لى تلك المغامرة من الطرافة بحيث لا أذكرها أبدا دون أن أضحك من الحذر المستغرب الذى أبداه السيد بوفيه المغامى .

كانت كل جولاتي لدراسة النبات والانطباعات المختلفة لمواطن الاشياء التى أثرت فى ، والأفكار التى بعثتها فى نفسى ، والاحداث التى خالطتها، كل ذلك خلف فى نفسى انطباعات تتجدد بمشاهدة النباتات التى تستعشب من تلك المواطن نفسها .

اننى سوف لا ارى مطلقا هذه المناظر الريفية الرائعة وهذه الغابات وهذه البحيرات وهذه الاعراش وهذه الصخور وهذه الجبال التى طالما مست رؤيتها شغاف قلبى . أما الآن وأنا لا أستطيع بعد أن أجوب هذه البقاع السعيدة فلست أملك سوى أن أفتح معشبي وسرعان ما ينقلني اليها . ان أجزاء النباتات التى جمعتها منها تكفى لتذكرنى بذلك المشهد الرائع . ان هذا العشب بالنسبة لى بمثابة يوميات استعشاب تجعلني أعاوده بسحر جديد ، ولها من الاثر ما هو بمثابة المنظار الذى يعيد تصويرها أمام عيني .

هذه هي سلسلة الافكار الثانوية التى تربطني بعلم النبات . انها تجمع وتعيد الى خيالى كل تلك الافكار التى تزيد من ارضائه . فالمرامى والامواه والغابات والعزلة ثم السلام بصفة خاصة والراحة التى يلقاها المرء خلال هذا كله . . انها جميعا تعاد الى ذاكرتى باستمرار عن طريق هذه السلسلة من الافكار الثانوية . . وهي تجعلني أنسى اضطهادات الناس وكراهيتهم واحتقارهم وامتهاناتهم وكل الآلام التى قدموها ثمنا لتعلقى ألتون الصادق بهم . . انها تنقلني الى ديار هادئة بين قوم بسطاء طيبين كأولئك الذين عشت معهم فى سائف الزمان . . انها تذكرني بإيام شبابى ومتعئ البرئة ، وتجعلني أستمتع بها من جديد ، وهي غالبا كذلك ما تجعلني سعيدا فى ثنايا قدر أشد ما يكون نكدا يمكن أن يكون قد ابتلى به انسان .

الجملة الثامنة

كلما أعمت الفكر في حالات نفسى وفي كل مواقف حياتي ، أذهشني للغاية أن أرى مبلغ خسارة التناسب بين تدابير قدرى المختلفة وبين مشاعري المعتادة - من هناء أو شقاء - التي اعترتني بسبب تلك المواقف . ان الفترات المختلفة لهنائي القصير لم تترك لي تقريبا أية ذكرى حلوة للاحساس الكامن المقيم الذي كانت تؤثر على به ، بل وعلى العكس من ذلك كنت أحسنى على الدوام ، خلال ما انتاب حياتي من مكاره ، مفعما بمشاعر رقيقة مثيرة حلوة ، كانت تبدو - وهي تسكب بلسما شافيا على جراح قلبي المظني - وكأننا تحول الالم الى لذة تعاودني ذكرها المحببة وحدها مجردة من ذكرى الالام التي كنت أستشعرها في الوقت نفسه . انه يخيل الى أنني تذوقت من حلاوة الوجود أكثر مما عشت حقيقة ، وذلك حين صحت يد القدر - كما يقال - مشاعري حول قلبي . فلم تكن لتبدد خارجة حول أمور هي موضع تقدير الناس لا تستحق لذاتها منه سوى القليل وهي الشغل الشاغل لأناس يظن أنهم سعداء .

حين كانت الامور منتظمة من حولى ، وحين كنت راضيا عن كل ما يحيط بي وعن الوسط الذي كان على أن أعيش فيه ، كنت أملؤه بمحبتى . وكانت روحي الفياضة ترفرف فوق أشياء أخرى . ولما كان يباعد بينى وبين ذاتى ألف لون من الميول عن طريق روابط الود التي كانت تحتل قلبي على الدوام ، كنت أتناسى نفسى بصورة ما وكنت أفرغ كلية لكل ما استغرب من أمر على ، وكنت أحس في اضطراب قلبي المستمر بكل تقلبات الامور الانسانية . ان هذه الحياة العاصفة لم تدع لي سلاما فى الداخل أو راحة فى الخارج . كنت سعيدا فى مظهرى ولم تكن لدى عاطفة تقوى على احتمال محنة التفكير أستطيع بها حقا أن أرضى عن نفسى . اننى لم أستشعر قط رضا كاملا عن الآخرين أو عن نفسى ، كان صخب الناس يبيش صوابى وكنت أضيق بالعزلة . كنت دائما فى حاجة الى تغيير المكان ولم أكن أحس بالراحة فى أى مكان . ومع ذلك فقد كنت موضع الترحيب وكان الناس يودوننى ويحسنون استقبالى ويدللوننى فى كل

مكان ٠٠٠٠ لم يكن لى من عدو أو حقوق أو حسود ، ولما كان الناس لا يسعون الا لاسداء المعروف لى ، فائنى غالبا ما كنت احسن بلذة اسداء المعروف لكثير من الناس . كنت بغير مال او وظيفة ولم يكن هناك من يزعمانى ولم تكن لدى مواهب كبيرة أحسنت تنميتها أو التعرف عليها ، وكنت أستمتع بالمزايا المتصلة بذلك كله ولم أكن أرى أحداً فى أية حال له من الحظ أفضل من حظى ، واذن فماذا كان ينقصنى لأكون سعيداً ؟ اننى لاجهل ذلك ، ولكننى اعلم اننى لم اكن سعيداً . ماذا ينقصنى اليوم لاكون أتعس الخلق طراً ؟ لا شىء من كل ما استنطاق البشر اضافته من عنده للوصول الى ذلك . واذن ففي هذه الحالة التى تستحق الرثاء لن أغير كذلك من حالى أو قدرى مقابل أسعدهم حظاً بل اننى أفضل أكثر من ذلك لو ظلمت أنا نفسى بكل شقوتى على أن أكون أياً من أولئك الناس بكل هنائهم . وباقتصادى على نفسى وحدى ، فائنى أعتدى حقاً على الغذاء الخاص بى ولكن هذا الغذاء لا ينفد اننى أكفى نفسى بنفسى ولو اننى اجترت - كما يقال - على لا شىء ، وان خيالى الذى نصب وأفكارى التى خدمت لم تعد تمد قلبى بزاد . . . ان روحى المثقلة التى تعطىها أعضائى تنهار يوماً بعد يوم ولم يعد لها - تحت وطأة هذه الاثقال - من قوة تستطيع معها ان تنطق ، كما كان العهد من قبل ، خارج رداؤها البالى .

ان هذا الرجوع الى أنفسنا هو ما تضطرننا اليه الشدائد ولعل ذلك ما يجعلها أقل ماتكون احتمالاً لدى معظم الناس . أما بالنسبة لى - أنا من لأجد فى لوم نفسى سوى هفوات - فائنى أتهم ضعفى من أجلها ، وأتعزى لان شراً مذبراً لم يخامر قلبى قط .

ومع ذلك - فما لم أكن غيبياً - انى لى أن أتأمل موقفى لحظة واحدة دون أن أراه كذلك مريباً كما شاء لهم أن يجعلوه ، ودون أن أقضى حزننا وبأساً ؟ اننى بدلا من ذلك ، وأنا أشد الناس حساسية ، أتأمله ولا أتأثر له ، كما اننى بغير صراع او مجاهدة مع ذاتى أرى نفسى بغير مبالاة تقريبا فى حال قد لا يستطيع أى انسان آخر ان يحتمل مشهدها دون فزع .

كيف وصل بى ذلك الى هذا المدى ؟ لقد كنت أبعد ما أكون عن هذه الحالة الامنة لدى أول شك فى المؤامرة التى حيكت خيوطها من حولى منذ امد بعيد دون أن أنتبه اليها مطلقاً . لقد قلب هذا الاكتشاف الجديد كيانى رأساً على عقب ، وفجأتنى النذالة والحيانة على حين غرة . ترى أية نفس فاضلة هيئت لهذه الالوان من العذاب ؟ انه كان يجب أن تستحقها

حتى تتنبأ بها . لقد سقطت في كل الشراك التي حفرت تحت أقدامى ،
واستحوذ على الغيظ والغضب والهذيان ففقدت اتزانى . لقد اضطرب
عقلى ، ومن خلال غياهب الظلمات الموحشة التى لم يكفوا عن ابقائى
مفرقا فيها . . لم أعد المح بصيصا من النور أهدى به أو سندا أو
متنفسا أستطيع بهما أن اظل ثابتا وان اقاوم اليأس الذى كان
يشندنى اليه .

كيف يستطيع المرء أن يعيش سعيدا وهادئا في مثل هذه الحالة
البشعة ؟ اننى لا أزال أعانيها ولاأزال غارقا أكثر من ذى قبل . ولقد
وجدت فيها الهدوء والسلام وهانذا أعيش فيها سعيدا آمنا وهانذا أسخر
مما ينسبته مضطهدى لانفسهم من عذاب مقيم ، لا يستطيع تصديقه .
في حين أنا احيا في سلام مشغولا بالازهار ونصالها والهو البريء . بل
ولا أفكر فيهم .

فكيف تم هذا الانتقال ؟ لقد تم ذلك طبيعيا ، دون أن أشعر وبغير
مشقة . لقد كانت المفاجأة الاولى مروعة ، لقد وجدتنى أنا الذى كنت
أحسب نفسى جديرا بالحب والتقدير ، أنا الذى كنت أعتقد اننى مجل
معززلاننى كنت أستحق ذلك . . لقد وجدتنى فجأة في اهاب وحش مرعب
لم يك له من قبل ضريب .

اننى لارى جيلا كاملا يندفع بأسره نحو اعتناق هذا الرأى المعجيب
دون تفسير أو شك أو خجل ، ودون أن أستطيع أن أصل قط إلى معرفة علة
هذا الانقلاب الفريب . لقد ناضت في عنف ، وكأنما تم عمل الا على
احكام قيدى . لقد أردت أن أضطر مضطهدى الى التفاهم معى ، ولكنهم
لم يابهاوا ، وبعد أن طال تعذيبى دون نتيجة كان لابد لى من أن استرد
أنفاسى ، ومع ذلك فقد ظل الامل يراودنى دائما . وكنت أحدث نفسى
قائلا : « ان خبلا على هذا القدر من التبلىد . . وتمنعا على هذا القدر من
السخف ، لا يستطيع أن يشتمل الجنس البشرى قاطبة ، فهناك ذوو عقول
لا يسهمون في هذا البنيان ، وهناك نفوس عدول تمقت المخاتلة والخونة .
فلأبحث على القى في نهاية المطاف انسانا فان وجدته فقد « أفجموا »
لقد بحثت عبثا ولكننى لم أجده مطلقا . ان التحالف شامل بغير استثناء
أو رجعة واننى لوائق من أننى سأختتم حياتى في هذا المعزل المخيف دون
أن أنفذ أبدا الى خفائه .

اننى فى هذه الحالة التى تستحق الرثاء ، بعد مخاوف طويلة ، وجدت
بدلا من اليأس الذى كأنما كان يجب أن يكون نصيبى فى نهاية الامر ،
وجدت من جديد الصفاء والأمن والسلام بل السعادة ما دام كل يوم من

أيام حياتي يذكرني في غبطة بالامس الدابر حتى لاأطمع في غدى في أكثر من ذلك

من أين يأتي هذا الاختلاف ؟ من أمر واحد : ذلك انني تعلمت كيف أحمل نير الحاجة دون تدمر ، ذلك انني كنت أجهد في أن أظل متعلقا كذلك بألف شيء ، وانه حين أفلتت مني تلك الدعائم تباعا واقتصرت على نفسي وحدى لقيت الاستقرار أخيرا . أما وقد ضيق على الخناق من كل جانب فانني أحتفظ بتوازني لانني لاأتعلق بشيء بعد ولا أعتد على غير ذاتي .

انني حين كنت أثور في كثير من الحماس ضد الرأي العام كنت أحمل كذلك نيره دون أن أفطن الى ذلك . ان المرء ليود أن ينال التقدير ممن يقدرهم ، وكلما استطعت أن أظن بالناس ، أو ببعضهم على الاقل خيرا لم يكن ممكنا أن أهمل آراءهم كذلك بالنسبة لي . لقد كنت أرى أن حكم الرأي العام عادل في أغلب الامر ، ولكنني لم أكن أرى أن تلك العدالة نفسها كانت نتيجة مصادفة ، وأن الأسس التي يقيم عليها الناس آراءهم ليست مستمدة الا من أهوائهم أو من معتقداتهم التي هي ثمرتها (أي الأهواء) ، وانه حتى عندما يصيبون في أحكامهم فانه غالبا ما تصدر كذلك هذه الاحكام الصائبة عن مبدأ فاسد كما يحدث عندما يتظاهرون بشريف قدر امرئ لنجاح وصل اليه ، لا بروح من العدالة ولكن ليتخذوا مظهر عدم التحيز وهم يفتابون نفس الشخص من نواح أخرى كما يروق لهم .

ولكنني حين رأيتهم - بعد كل هذا البحث الطويل العقيم - يظنون جميعا بغير استثناء في أشد النظم ظلما وسخفا استطاعت روح الشر أن تنشق عنها . . . وحين رأيت انه عندما يتعلق الامر بنى يطرد العقل من الرؤوس والعدالة من القلوب جميعا ، وحين رأيت جيلا متهورا يستسلم بأسره لفضيحة قادته العمياء ضد تعس لم يرتكب أبدا ، ولم يرد ، ولم يسبب اذى لانسان ، وحين - بعد أن جهدت عشا في البحث عن انسان ، كان من الواجب على في نهاية الامر أن اطفئ سراجي وأصيح قائلا : لم يعد هناك بعد من انسان . عندئذ بدأت أراني وحيدا على الارض وأدركت ان معاصري لم يكونوا بالنسبة لي سوى كائنات آلية لاتصرف الا بقوة الاندفاع التي لم اكن بمستطيع أن أقوم بعملية حسابية لحركتها الا عن طريق «قوانين الحركة» . ان أية نية أو أية عاطفة كنت أستطيع افتراضها في نفوسهم لم تك أبدا لتفسر لي مسلكهم نحوي في صورة أستطيع أن أدركها ، ومن ثم توقفت دخائل نفوسهم عن أن تكون شيئا ما بالنسبة لي . انني لم أعد أرى فيهم سوى كتل متفاسوة الحركة مجردة أمامي من كل قيمة خلقية .

اننا ننظر أكثر ماننظر حين يصيبنا الأذى الى النية أكثر من نظرنا الى الأثر . ان قطعة من القرميد تسقط من سقف قد تكون اصابته أشد ، ولكنها لا تسبب من الايلام ما تسببه قطعة من الحجر تسدد عن قصد بيد شريرة . ان الضربة قد لا تصيب الهدف أحيانا ولكن القصد لا يخطيء مرماه أبدا . فالإلم الحسى هو أقل ما يحسه المرء من اصابات القدر . وحين لا يعرف الاشقياء الى من يعزون ما يحسون من شقاء فانهم ينسبون الى القدر الذى يمثله شخصاً ، والذى يعرونه عيوناً وادراكاً يستطيع بها أيلامهم عن قصد . وهكذا يستشيط اللاعب غيظاً حين يصيبه الغم من جراء الحسارة دون أن يدري على من يصب جام غضبه . انه يتخيل قدراً يعتمد التحرش به عامداً لا يلامه ، وحين يجد ما يغذى غضبه ، يحتد وتشتعل ثورته ضد العدو الذى توهه . أما الرجل العاقل الذى لا يرى فى كل ما يحل به من رزايا سوى ضربات الضرورة العمياء فانه لا انتريه هذه الاهتياجات المجنونة . انه يصرخ فى ألمه ولكن دون هياج وبغير غضب ، وهو لا يحس من الإلم الذى غدا فريسة له بغير الاصابة المادية ، أما الضربات التى يتلقاها فهما أصابت جسده فانها لا تصل قط الى قلبه .

انه لكثير أن يصل الأمر فى ذلك الى هذا الحد ، ولكن ليس هذا كل شيء ان توقف عنده . ان فى هذا ايقافاً للإلم ولكن ذلك يعنى ترك الجذور ذلك لان هذه الجذور ليست فى الكائنات الغريبة عنا بل هى فى ذواتنا وهنا يتحتم العمل على اقتلاعها نهائياً . ان ذلك هو ما استشعرته جلياً منذ بدأت أعود الى نفسى . ان عقلى لا يرى سوى سخافات فى كل التفسيرات التى كنت أحاول أن أرجع اليها كل ما يحل بى . اننى أدركت أن أسباب هذا كله وأدواته ووسائله كان يجب أن تكون عدماً بالنسبة لى ما دامت مجهولة لدى ولا يستطيع تفسيرها ، وانه كان يتعين على أن أعد تفاصيل ما حل بى كما لو كانت من فعل القدر وحده ، وما كان على أن أفترض توجيهها أو قصداً أو دافعا خلقياً، وانه كان يجب على أن أخضع لها دون تفكير ودون تمرد لان ذلك لم يكن مجدياً ، وان كل ما كان على كذلك أن أقوم بعمله فى هذه الدنيا ، اذ اعتبر نفسى فيها ككائن سلبى سلبية مطلقة ، هو اننى يجب ألا أستنفد فى مقاومة غير مجدبة لقدرى ما كان باقياً لى من قوة تعينى على احتمالها . ذلك ما كنت أحدث نفسى به وكان عقلى وقلبى يؤمنان عليه ، ومع ذلك فقد كنت أحس بهذا القلب لا يزال يتذمر . . من أين جاء هذا التذمر ؟ لقد بحثت عنه ووجدته ، ان مصدره عزة النفس التى - بعد ان استثيرت ضد الناس - ظلت تقاوم العقل .

ان هذا الكشف لم يكن من السهولة بالقدر الذى قد يظنه المرء لان بريئا مضطهدا يظل طويلا ينظر الى زهو فرديته الضئيلة كأنما هي حب مجرد للعدالة . ولكن ما أن يعرف كذلك النبع الحقيقى معرفة تامة حتى يغدو من اليسير انضابه أو - على الأقل - تحويله . ان احترام المرء لنفسه هو أكبر محرك للنفوس العزيزة، كما أن حب الذات - الغزير فى أوهامه - يتخفى ليتبدى للبرء وكأنما هو هذا الاحترام للنفس ، ولكن ما أن ينكشف ذلك الغش فى نهاية الامر ، ولا يعود حب الذات يستطيع أن يستخفى ، حتى لا يعود هناك اذ ذاك ما يخشى منه ، ومع أن المرء يقضى عليه فى صعوبة الا أنه يقهره على الأقل فى يسر .

انه لم يكن لدى أبدا ميل كبير للاعتداد بالنفس ولكن هذه العاطفة المصطنعة كانت تتوقد فى نفسى حينما كنت فى المجتمع وبخاصة حين غدوت مؤلفا . ربما كان حظى منها لا يزال أقل مما لدى غيرى ومع ذلك فقد كان لدى منها قدر هائل .

ان الدروس القاسية التى تلقيتها سرعان ما احتجزته فى حدوده الاولى انه (أى الاعتداد بالنفس) ابتداء بالثورة ضد الظلم ولكنه انتهى بأن احتقره . وهو بانعكاسه على روحى وبقطعه للعلاقات الخارجية التى تجعله كثير المطالب وبغزوفى عن المقارنات والمفاضلات قنع بأن أكون طيبا بالنسبة لنفسى ، وعندئذ - وقد أصبح (الاعتداد بالنفس) حبا لذاتى - انتظم فى سلك الطبيعة ثانية وخلصنى من نير عرف المجتمع .

منذ ذلك الوقت استعدت سلام الروح بل وما يكاد يكون الهناء بعينه ، ذلك لانه فى أى موقف يجد المرء نفسه ، فانه لا يشقى دائما الا بسببه (الاعتداد بالنفس) وحين يصمت ، والعقل يتكلم ، فان العقل يعزينا فى نهاية الامر عن كل الآلام التى كان تجنبها يتوقف علينا بل وانه يقضى مادامت لا تؤثر علينا فورا ، ذلك انه من المؤكد عندئذ ان المرء يستطيع أن يتجنب أشد أصاباتها ايلاما بالكف عن الاهتمام بها . أنها لا شئ بالنسبة لمن لا يفكر فيها . ان الاساءات والاحن وهضم الحقوق والاهانات والمظالم ليست شيئا لمن لا يرى فى الآلام التى يقاسيها سوى الألم نفسه ، لا النية فيه ، ولمن لا تعتمد مكانته فى تقديره الشخصى على ما يروق للآخرين أن يأذنوا له به . وكيفما يود الناس رؤيتى فانهم سوف لا يستطيعون تغيير ذاتى . اننى برغم قوتهم وبرغم كل دسائسهم الدفينة سأظل - مهما فعلوا - كما انا ، بالرغم منهم . حقا ان ميولهم من ناحيتى تؤثر على مركزى الفعلى . ان الحاجز الذى أقاموه بينهم وبينى بسببى كافة موارد القوت والمعونة فى شيخوختى وعوزى . انه يجعل

من المال نفسه شيئاً غير ذى نفع مادام لا يقوى على ان يوفر لى المطلوب
الضرورية . انه لم تعد هناك صلوات ولا مساعدات متبادلة ولا مراسلات بينهم
وبيني . أما وقد غدوت وحيدا بينهم فانه لم يعد لى من مورد سوى ذاتى فقط .
وهذا المورد شحيح فى سنى هذه وفى الحالة التى أنا عليها . ان هذه
الآلام بالغة ولكننا فقدت كل وطأتها على منذ عرفت كيف أحتملها دون ان
أثور بسببها . ان النواحي التى نستشعر فيها الحاجة الملحة نادرة دائما ،
ويضعف منها التبصر والخيال ، وان المرء يستشعر القلق ويشقى نفسه
بسبب استمرار هذا الاحساس . وأما بالنسبة لى فمهما أعلم أننى ساقاسى
فى الخد فانه يكفى ، لاكون هادئا ، ألا أقاسى اليوم . اننى لا أتأثر اطلاقا
مما أتوقعه من شر ولكن فقط . مما أحس ، وذلك ما يجعله أمرا تافها ، ومادمت
وحيدا ومرضا ومهجلا على سريرى ، فاننى أستطيع أن أموت فوقه فإقة
وبردا وجوعا دون ان يشق ذلك على أحد . ولكن ما أهمية ذلك ان لم
يشق على أنا نفسى ، وكان اهتمامى بمصرى ، مهما يكن ، أقل من اهتمام
الآخرين به ! أليس هذا عبثا ، وعلى الاخص فى سنى هذه ؟ اننى تعلمت
ان أرى بغير اكتراث الحياة والموت والمرض والصحة ، والغنى والفقر ،
والمجد والعار على السواء . ان الشيوخ الآخرين جميعا يتوجسون من كل
شئ ، وأما أنا فلا يقلقنى أى شئ ، اذ يستوى لى كل ما يستطيع أن يحل
بى ، وليس عدم المبالاة هذا ثمرة حكمتى ولكنه من عمل أعدائى اذ هو
يصبح تعويضا عن الآلام التى يسببونها لى ، أما وقد جعلونى لا أتأثر
بالشدائد فانهم أحسنوا الى أكثر مما لو أنهم جنبونى رمياتها ، فقد كنت
سأظل أتهيئها مادمت لم أجربها بدلا من أن أقهرها فلا أعود أخشأها .

ان هذا الميل يسلمنى ، وانا بين ما يعترض حياتى من صعاب ، الى
اهمال ذاتى اهمالا يكاد يكون مطلقا كما لو كنت احيا أحيانا حياة رضية
تماما . وفيما عدا اللحظات القصار التى يردنى فيها وجود الاشياء الى أشد
ألوان الحيرة الموجعة ، فانه فيما بقى من زمن - وقد أسلمتنى ميولى الى
العواطف التى تجذبنى - يغتدى قلبى كذلك على المشاعر التى كان مخلوقا
من أجلها فأستمع بها مع الكائنات الخيالية التى تخلقها ، التى تنقاسمها
كما لو كانت تلك الكائنات موجودة فعلا . انها كائنة بالنسبة لى أنا من
خلقتها ، فانا لا أخشى أن تخوننى أو تهجرنى ، انها ستظل قائمة ، مادامت
شقتوى ، وستكون كفيفة بأن تنسينى اياها .

ان كل شئ يعود بى الى حياتى السعيدة الحلوة التى ولدت من أجلها :
اننى أقضى ثلاثة أرباع حياتى اما مشغولا بأمور ثقافية ، لطيفة مع ذلك ،
أسلم لها فى لذة فكرى وحواسى ، أو فى صحبة بنات خيالى التى خلقتها

وفق رغبة قلبي ، والتي يغذى اتصالى بها مشاعره ، أو مع نفسى فقط راضيا عن ذاتى وقد أفعمت هناء أحس اننى أستحقه . كان حبي لذاتى فى هذه الامور جميعا يقوم بكل المهمة ، أما عزة النفس فليس لها دخل فى ذلك . وليس الامر كذلك فى اللحظات الكثيرة التي اقضيها كذلك بين الناس العوبة للملاطفتهم الحداعة ومجاملاتهم المنتفخة الفارغة ومكرهم المعسول . وعلى أى وجه تلقيتها فانه كان للكرامة عندئذ دورها . فالكراهية والضغينة اللتان أشهدهما فى قلوبهم من خلال هذا الغلاف الغليظ تمزقان قلبى أسى ، هذا الى أن انسياقهم فى غباء وراء فكرة اعتبارى مغفلا تصيف الى هذا الاسي كذلك قدرا تافها من الغم هو ثمرة اعتداد بالنفس ابله ، أحس بكل حماقته وان كنت لأستطيع التغلب عليه . ان الجهود التي بذلتها لأتجلد أمام نظراتهم الشامتة والهازئة لا يمكن تصورها . لقد مررت مائة مرة بالمتنزعات العامة وبالأماكن التي يكثر تردد الناس عليها وليس لى من هدف سوى رياضة نفسى على هذه المعارك المريرة ولكننى لم أعجز عن الوصول الى ذلك فحسب بل اننى لم أتقدم البتة كذلك ، وقد خلفتني كل جهودى المضنية ، الفاشلة مع ذلك أيضا ، وقد أصبحت كما كنت من قبل من السهل ازعاجى واغاظتى واثارتى .

وحيث كانت تسيطر على حواسى لم أكن أستطيع اطلاقا مهما أفعل - ان أقاوم انطباعاتها ، ولطالما أثر الشيء عليها (على الحواس) فان قلبى لا يفتأ يتأثر بها ، ولكن تلك العواطف العابرة لاتدوم الا بقدر ما يدوم الاحساس الذى يسببها . ان وجود الرجل الحقود يؤثر فى تأثيرا عنيفا ، ولكن ما ان يختفى حتى تتوقف الانطباع ، وحالما لا أعود أراه . لا أفكر فيه بعد ، ومهما أعلم انه سيشغل بى فلن أستطيع أن أشغل به .

ان الألم الذى لأحسه الآن مطلقا لا يؤثر فى على أى وجه ، وان مضطهدا لأراه مطلقا ، هو لاشيء بالنسبة لى . اننى أحس فضل ما يضيفه هذا الموقف على من يتصرفون فى مصيرى . فليتصرفوا اذن كما يروق لهم بل اننى أفضل كذلك أن يعذبونى دون مقاومة على أن أكره على التفكير فيهم لأحتمى من ضرباتهم .

ان تأثير حواسى هذا على قلبى يسبب العذاب الوحيد فى حياتى . اننى حيث لا يقع نظرى على انسان لأفكر البتة فى مصيرى فلا أعود أحس بهذا المصير ولا أعود أتألم . اننى سعيد وراض حين لا يكون هناك شاغل أو عقبة ، ولكننى نادرا ما أفلت من ضربة محسوسة ، وحين يكون تفكيرى فيه ضئيلا فانه تكفى لأزعاجى ايماءة أو نظرة حقد المحها أو كلمة مسنومة تلتقطها أذنى أو خبيث ألقاه ، وكل ما أستطيع عمله فى مثل هذه الحالة

أن أنسى سريعا جدا وأن أهرب . ان اضطراب قلبي يختفى باختفاء دافع الاضطراب وأعود الى السكينة حالما أكون وحيدا . ولئن أقلقنى أمر ما فهنا الخوف من أن ألقى فى طريقى أمرا جديدا موجعا ، وعندئذ يكون عذابى الوحيد ، ولكنه يكفى ليبدل من سعادتى . اننى أقطن فى وسط باريس ، وعند خروجى من منزلى أتحسر على الريف والوحدة ، ولكن ، على أن أبحث عنهما بعيدا حتى انه قبل أن أستطيع أن أتفلسف كما أجد فى طريقى الف شىء يعترض قلبي . وينقضى نصف النهار فى هموم قبل أن اصل الى الملاذ الذى أسعى اليه وأكون سعيدا على الاقل اذا ما تركت أكمل طريقى . ان اللحظة التى أفلت فيها من موكب الاشرار لهنى لحظة ممتعة ، وحالما أجد نفسى تحت الاشجار وسط الخضرة أحسب اننى فى جنة على الارض وأتذوق متعة داخلية قوية كما لو كنت أسعد الاحياء طرا .

اننى لأذكر تماما أنه خلال فترات هنائى القصار كانت هذه الجولات الانفرادية نفسها التى أجدها اليوم بهذه المتعة ، لاطعم لها بل وتثير ضيقى وحين كنت فى زيارة أحد الناس بالريف كانت تدفعنى الحاجة الى القيام بشىء من الرياضة وتنفس الهواء الطلق الى الخروج وحيدا فى أغلب الامر فكنت أخرج للتنزه - هاربا كلىص - منطلقا الى الحدائق أو الريف . ولكن بدلا من أن أجد فيها الهدوء الممتع الذى أتذوقه فيها اليوم كنت أحمل اليها ثورة الافكار التافهة التى كنت اشغل بها فى المجتمع ، وكانت تلاحقنى هناك ذكرى الرفاق الذين خلفتهم ورائى . وفى عزلتى كانت عنجبية عزة النفس وصخب الناس تطفئ فى ناظرى نضارة الأعراش وتزعج أمن الانزعال . ومهما كنت أوغل هاربا فى أعماق الغابة كانت تلاحقنى حيثما ذهبت جماعة ثقيلة فتحجب عنى الطبيعة جميعا . ولم يحدث اننى عدت فوجدتها بكل مفاتيحها الا بعد أن تخلصت من العواطف الاجتماعية ومن موكبها التعس .

ولما كنت مقنعا باستحالة اشتمالى لهذه الحركات البدائية غير الارادية ، فقد كففت عن بذل جهودى فى هذا المضمار . اننى أدع دمي يتقد ، والغضب والاستنكار يستحوذان على حواسى لدى كل قطعة . اننى أترك للطبيعة هذا الانفجار الاول الذى لم تكن قواى جميعا لتستطيع ايقافه أو تعطيله . اننى أحاول فقط ايقاف ما يستتبعه ذلك قبل أن يكون له أى أثر . ان العيون التى يتطير منها الشرر ، واحتقان الوجه ، وارتعاش الاطراف ، والخفقان الحائق . . كل هذا يرجع الى الحس وحده ولا يملك التعقل حيالها شيئا . ولكن بعد أن يترك للسجية أن تطلق انفجاراتها الاولى لتعمل عملها ، يستطيع المرء أن يصبح مرة أخرى سيد نفسه الحقيقى

وهو يستعيد حواسه شيئاً فشيئاً . ان ذلك هو ما حاولت عمله دهرًا طويلًا
 دون أن أنجح ، ولكن وفقت إليه . في نهاية الأمر . وبعد أن توقفت عن
 استخدام قوتي في مقاومة غير مجدية ، أراني أنتظر لحظة الانتظار تاركًا
 التصرف لعقلي ، ذلك لانه لا يتحدث الى الا حينما يستطيع أن يجعلني أصغى
 اليه . ايه ماذا أقول ؟ وأسفاه . . عتلى ؟ اننى لاكون جد مخطيء كذلك
 ان أنا نسبت اليه شرف هذا الانتصار . ذلك لانه لانصيب له فيه : ان كل
 شيء يصدر كذلك عن مزاج متقلب تهزه ريح عاتية ولكنه يعود الى الهدوء
 نى اللحظة التى تكف فيها الريح عن الهبوب . انه طبعى المتوقد الذى
 يثيرنى ، وانه لطبعى المتراخى الذى يهدئنى . اننى لأستسلم لكل الحوافر
 الحالية ان كل صدمة تمنجنى حركة قوية وقصيرة ، وما ألا تعود هناك
 صدمة حتى تتوقف الحركة ، ولا يمكن أن يطول أمد أى من آثارها فى نفسى
 ان كل احداث القدر وكل مؤامرات البشر قلما تستطيع أن تنال من امرىء
 بهذا التكوين . كان من الواجب أن تتجدد الانطباعة فى كل لحظة كى يدوم
 احساسى بالآلام ، ذلك لان الفترات مهما قصرت تكفى لتعيدنى الى نفسى .
 اننى مايرضاه الناس طالما استطاعوا التأثير على حواسى ، ولكننى أصبح
 نانية ماأرادته الطبيعة بمجرد تراخيهم ، وتلك - مهما كان فى مقدورهم أن
 يفعلوا - حالى الأكثر استقرارا التى أتذوق عن طريقها - برغم القدر -
 سعادة أحس اننى خلقت لها . لقد وصفت تلك الحالة فى واحد من أحلام
 يتظمتى (١) وانه ليروقنى جدا حتى اننى لا أرغب فى أمر آخر سوى دوامها
 ولا أخشى الا ان أراها تتكرر . أما الألم الذى سببه الناس لى فلا يؤثر فى
 بآية حال . ان الخوف وحده من الألم الذى لايزال فى امكانهم أن يسببوه
 لى هو الكفيل وحده بأن يثيرنى ، وأما وقد غدوت على ثقة من أنهم لم تعد
 نديهم من وسيلة جديدة للنيل منى يستطيعون عن طريقها أن يؤثروا فى
 باحساس مقيم ، فاننى لأسخر من كل مكائدهم وأستمع بداتى بالرغم
 منهم .

(١) يقصد روسو هنا ماكتبه في معنى السعادة في الجولة الخامسة .

الجملة التاسعة

السعادة حالة مقيمة لا تبدو وكأنها هيئت للانسان في الحياة الدنيا .
ان كل ما على الارض في مد متواصل لا يسمح لشيء بان يتخذ سمة ثابتة .
ان كل شيء يتغير من حولنا . اننا أنفسنا نتغير وليس هناك من يستطيع
أن يطمئن الى أنه سيجب في الغد ما يجبهه اليوم ، ومن ثم كانت كل
مشروعات الهناء لهذه الحياة أوهاما . فلنغتنم رضا النفس حين يقبل
ولنحذر من أن نباعد فيما بيننا وبينه بخطئنا ، ولكن لا ينبغي أن نقدم على
مشروعات تقيده لان تلك المشروعات محض جنون . انني قلما رأيت قوما
سعداء بل ربما لم ألتق بانسان سعيد ، ولكنني طالما شهدت قلوبا راضية .
ومن بين كل ما أثر في كان ذلك الذي أرضاني شخصيا أكثر الرضا انني
أعتقد أن هذا تتابع طبيعي لسلطان الاحاسيس على مشاعري الداخلية . ان
السعادة ليست لها دلالة خارجية ، ولكي نتعرف عليها يجب أن نطالع
قلب الانسان السعيد . أما الرضا فيقرأ في العينين وفي المظهر وفي
اللهجة وفي السلوك ويبدو وكأننا ينتقل الى من يلاحظه . أهناك فرحة
أحلى من أن نرى شعبا بأكمله ينغمس في المرح يوم عيد ، ومن أن نرى
كُل القلوب تتفتح للأشعة المنتشرة ، للمتعة التي تمر سريعة ، ولكن قوية ،
في ثنايا سحائب الحياة ؟

حدث منذ ثلاثة أيام ان جاء م.ب. M.P. في عجلة غير عادية ليريني
هاكتبه السيد دلامبير M. d'Alembert (١) في مديح مدام جيوفرين
L'Eloge de Mme Geoffrin

(١) دالامبير D'Alembert (١٧١٧ - ١٧٨٣) ، كاتب وفيلسوف فرنسي أحد
مؤسسي دائرة المعارف الفرنسية L'Encyclopédie وعضو باكاديمية العلوم .
والتصود هنا خطابان أرسلهما الى كوندورسيه Condorcet نشر عام ١٧٧٧ .
(كوندورسه فيلسوف فرنسي كان سكرتيرا دائما لجمع العلوم) .
(Oeuvres postumes de l'Alembert, Paris. T.I. p.p. 132 - 271.)
وأما مدام جيوفرين Mme Geoffrin فهي سيدة صديقة للفلاسفة كانت تستقبلهم
في « صالونها » =

وقد سبقت المطالعة قهقهات طويلة مدوية على الجديد المضحك مما جاء في هذه القطعة ، وعلى التلاعب الهازل بالالفاظ الذى قال انها زخرت به . وقد بدأ القراءة وهو لا يزال يضحك وكنت أصغى اليه فى جن ساخرا منه وحين رأى اننى لا أجاريه مطلقا توقف فى نهاية الامر عن الضحك . وكانت الفقرة الأطول والاكثر تكلفا من هذه القطعة تدور حول المتعة التى كانت تحسها مدام جيوفرين عند رؤيتها للاطفال ودفعهم للحديث . وقد استقى الكاتب - عن وجه حق - دليلا على كرم الطبع من وراء هذا الميل . ولكنه لم يكن يقف عند هذا الحد فكان يتهم فى اصرار بلؤم الطبع والشر كل من لم تكن لهم نفس الميول حتى انه قال ان المرء لو سأل من يقادون الى المشنقة أو عجلة التعذيب فانهم جميعا سيجمعون على انهم لم يكونوا يحبون الاطفال . كان لهذه المزاعم أثر فريد فى المكان الذى جاءت به . وعلى فرض أن ذلك كله صحيح أفكانت تلك مناسبة قوله ؟ أو كان من الواجب أن يفسد مديح امرأة لها تقديرها بصور عن الاعدام والمذنبين ؟ لقد أدركت فى يسر سبب ذلك التصنع القبيح ، وحين انتهى م.ب. M.P. من القراءة كاشفا عما ظهر لى طيبا فى المديح ، علقت بأن الكاتب حين كان يسطر ما كتب كان يحمل فى قلبه من الود أقل مما يحمل من الكراهية . وفى اليوم التالى ، وكان الجو لطيفا - ولو أنه كان باردا - قمت بجولة حتى المدرسة الحربية (1) وفى حسابانى أن أجد هناك طحالب

= وهذا بعض ما كتبه دالامير :

« كان لمدام جيوفرين كل ميول روح حساسة حلوة . لقد كانت تحب الاطفال بشغف ولم تكن ترى من بينهم واحدا دون أن ترق له . كانت تهتم ببراة وضعف هذه السن . وكانت تحب أن تلاحظ فيهم الطبيعة التى - بفضل عاداتنا - أصبحت لا ترى الا فى الطفولة . كانت تسر من التحدث معهم ومن توجيه الاسئلة اليهم وكانت تضيق بالمرربات اللواتى كن يوحين اليهم بالاجابة . وكانت تقول لهم : « اننى افضل اجاباتهم الساذجة عما تملين عليهم » . وتضيف قائلة « وددت لو وجه هذا السؤال الى كل من التمساء اللذين سيلقون الموت بسبب جرائمهم : هل احببتم الاطفال ؟ واننى لو افقت ان الاجابة ستكون نفيا » .

ويستطيع المرء أن يحكم من ذلك بأنها كانت تنظر الى الابوة كآلة متعة فى الطبيعة ولكن كلما ازدادت قداسة هذه المتعة لديها وددت لو كانت ظاهرة خالية من المنفصات . ومن أجل ذلك كانت ترجو من لم يكن لديهم مال من بين أصدقائها الا يتزوجوا وكانت تقول لهم « ماذا سيكون مصير اطفالكم للقراء ان فقدوكم فى سن مبكرة ؟ فكروا فى الرعب الذى يستولى عليكم فى ساعاتكم الاخيرة حين تترونهم اشقبا من بعدكم ... اولئك اللذين كانوا أمه الناس لديكم » .

(1) المدرسة الحربية فى وسط باريس وتمتد منها الى «شان دومارس Champ de Mars

مروج خضراء لا يزال معظمها موجودا الى الآن .

مزهرة ، وأثناء ذهابي ، استغرقت في حلم موضوعه زيارة الامس وما كتبه مسيو دالمبير M. d'Alembert حيث كنت أعتقد تماما أن التركيبات الاضافية لم توضع بغير هدف ، وان مجرد التكلف لاحضار هذه الجزارة (الملزمة) لى - لى أنا من يخفون كل شيء عنه - عرفنى تماما ماذا كان الهدف منها . لقد كنت وضعت صفارى فى ملجأ اللقطاء (١) وكان هذا كافيا كى ابدو فى صورة أب فاسد ، ومن ثم - فبالتمادى فى هذه الفكرة واحتضانها - يستطيع المرء أن ينتزع منها تدريجيا نتيجة بديهية هى أننى كنت أكره الاطفال . وتتبع سلسلة هذه المراحل عن طريق الفكر ، كنت معجبا بالفن الذى تستطيع به الصناعة الانسانية أن تحول الأشنساء من الأبيض الى الأسود . ذلك لاننى لااعتقد مطلقا أن هناك انسانا أحب أكثر منى رؤية الصغار يمزحون ويلعبون معا ، وغالبا ماتوقفت فى الطريق وفى نزهاتى لأشهد مداعباتهم وألعابهم الصغيرة فى شغف لا أرى غيرى يشاركنى فيه وفى اليوم نفسه الذى قدم فيه م.ب. M.P. - قبل زيارته بساعة - كان فى زيارتى صغيران من أبناء سوسوا Sousoi هما أصغر اولاد مضيفى ، وكان أكبرهما يناهز السابعة من عمره ، وقد قدما لتقبيلى فى اخلاص . . وبادلتها بحنان كبير ملاطفتها حتى بدأ عليهما - رغم فارق السن - سرور صادق بصحبتى . وأما بالنسبة لى فقد طرت فرحا حين أدركت أن شكلى العجوز لم ينفرهما ، بل ان الاصغر بدا وكأنما تقدم نحوى مختارا حتى أننى احسست فى طفولة تزيد عن طفولتهما بأننى قد تعلقت به مفضلا اياه ونظرت اليه وهو يبرح المكان فى أسف وكأنما كان ابنا لى .

اننى أدرك أن اللوم على وضع أطفالى فى ملجأ اللقطاء ، انحدر فى يسر مع قليل من التحوير ، الى لوم على أننى أب فاسد وعلى كراهية للاطفال ، ومع ذلك فمن المؤكد أن الخوف من مصير أسوأ ألف مرة بالنسبة لهم - ويكاد لايمكن تحاشيه بأية وسيلة أخرى - هو أشد ماجعلنى اصر على اتخاذ هذه الخطوة . وما دام لا يعينى ماذا كان يمكن أن يصبحوا ،

(١) ملجأ اللقطاء Les Enfants Trouvés مؤسسة يرجع انشاؤها الى القرن السابع عشر ، اودع فيه روسو كما يقول اولاده الخمسة وظل ضميره يؤنبه على فعلته طيلة حياته . وقد اثار روسو بنفسه تلك المسألة الهامة عدة مرات :

مرة فى الجولة الرابعة فى « احلام اليقظة » ، وأخرى فى الاعترافات « الكتاب السابع والثامن » ، وفى كتابه « اميل » (الجزء الاول) . . وفى خطاب الى مدام دوفرانكى Mme de Francueil فى ٢٠ من ابريل ١٧٥١ . وكذا فى خطاب الى مدام دوشونفسو Mme de Chenonceau فى ٧١ من يناير ١٧٧٠ والى المسيو دوسانجرمان Mr. de Saint-Germain فى ٢٦ من فبراير ١٧٧٠ وفيها جميعا يحكم روسو على نفسه بناء على احساساته ومشاره لا على إيجاله .

ومادمت غير قادر على تنشئتهم بنفسى ، فانه كان من الواجب فى موقفى أن ادع أمر تنشئتهم لامهم ، التى ربما أفسدتهم ، ولأسرتها التى ربما جعلت منهم شياطين . اننى لا أزال أرتعد كلما فكرت فى ذلك . إن ما صنعه محمد بسعيد (١) ليس شيئا بجانب ما كان يمكن أن يصنع بهم حيالى وإن الشراك التى نصبت لى فيما يتصل بذلك الامر فيما بعد تؤكد لى الى حد كبير أن الخطة كانت معدة من قبل . والحقيقة أننى كنت أبعد من أن أتكهن حينئذ بهذه الدسائس الفظيعة ، ولكننى كنت أعرف أن أقل أنواع التربية خطيرة بالنسبة لهم هى تربية ملجأ اللقطاء فأودعتهم اياه . وربما كنت أعاود فعل ذلك وبقدر من التردد أقل بكثير أيضا اذا ما استوجب الامر ذلك . وانى لأعلم تمام العلم أنه ما من أب أشد حنانا منا كان من الممكن أن أكونه بالنسبة لهم مهما ضؤل عون الاعتیاد للطبيعة .

لئن كنت قد أحرزت بعض النجاح فى معرفة القلب الانسانى فإن السرور الذى كنت أحسه لدى رؤية الاطفال وملاحظتهم هو ما أكسببنى هذه المعرفة ، ونفس هذا السرور فى شبابى هو الذى وضع فى طريقها نوعا من العقبات ، ذلك لاننى كنت أهو مع الاطفال فى مرح شديد وبنفس خالصة حتى لم أكن أفكر مطلقا فى أن أدرسهم . ولكن حين تقدمت بى السن ولاحظت أن شكلى المتهدم يزعجهم امتنعت عن مضايقتهم ، وفضلت أن أحرم من متعة عن أن أكرر عليهم صفوهم . وأما وقد قنعت بارضاء نفسى بمشاهدة ألعابهم وكل تصرفاتهم الصغيرة ، فقد وجدت التعويض عن تضحيتى فى الأضواء التى يسرت لى الحصول عليها هذه الملاحظات عن الحركات الاولى والحقيقية للطبيعة ، هذه الحركات التى لا يعرف كل علماءنا عنها شيئا . ولقد ضمننت كتاباتى الدليل على أننى قمت بهذا البحث فى عناية بالغه لا يمكن معها أن أكون قد قمت به بغير لذة . ومن المؤكد أنه سيكون من أبعد الأمور تصديقا أن ال «هلويز» Heloise و «اميل» Emile كانا من عمل رجل لم يحب الاطفال .

انه لم يكن لى أبدا حضور البديهة ولا زلاقة اللسان ، ولكن منذ أن حلت بى المصائب تزايد ارتباك لسانى وعقلى . ان الفكرة واللفظ المناسب يضيعان منى على السواء ، فما من شىء يتطلب تمييزا أفضل ، أو اختيارا لتعبيرات أدق ، أكثر من الاحاديث التى نتبادلها مع الاطفال ، ومما يزيد أيضا من هذا الارتباك لدى هو اصفاء المستمعين . وما يصفونه من تأويلات

(١) نحن لاندرى ما يقصده روسو هنا بما صنعه النبى محمد بشخص يدعى سعيد ، وربما كان ذلك مثلا يتداول فى ذلك للوقت دلالة على نوع من التعصب الدينى ولو أن الديانة الاسلامية تخلو تماما من مثل ذلك .

ووزن لكل ما يصدر عن شخص يفترض فيه ، وقد كتب خصيصا للاطفال ،
الا يخاطبهم الا وحيا • ان هذا الحرج البالغ وما أسستشعره من عجز •
يربكنى ويحيرنى وربما كنت أروح نفسا أمام أحد ملوك آسيا منى أمام
طفل على أن أستدرجه الى الثرثرة !

وهناك عائق آخر يقينى الآن أكثر بعدا عنهم • اننى منذ حلت بى
المصائب أراهم بنفس السرور دائما ، ولكن لم تعد لى بهم نفس الألفة • ان
الاطفال لا يحبون الشيخوخة • ان منظر الطبيعة الأفلة كرية فى عيونهم •
ان نفورهم الذى الحظه يحزننى ، واننى لأفضل أن أمتنع عن ملاطفتهم عن
أن أسبب لهم ضيقا أو اشمئزا •

ان هذا الدافع الذى لا يؤثر الا فى النفوس المحبة حقاً لا قيمة له لدى
كل علمائنا وعالماتنا • ولم تكن مدام جيوفرين لتضيق الا أقل القليل بأن
يجد الاطفال متعة فى صحبتها مادامت تجد هى هذه المتعة معهم ، وأما
بالنسبة لى فان هذه المتعة تكون أسوأ من عدمها • انها سلبية حينما
تعوزها المشاركة ، فانا لم أعد بعد فى مركز أو سن أرى فيهما القلب
الصغير لطفل يتفتح مع قلبى لئن أمكن حدوث ذلك لى أيضا فان هذه
المتعة - التى أضحت أشد ندرة - لاتصبح بالنسبة لى الا أكثر قوة وكنت
أحسها تماما ذلك الصباح بسبب ما لقيته من ملاطفة صغار عائلة سوسوا
Sousoi لان الخادمة التى كانت تصحبهم لم تثر احترامى ، واننى لم أكن
أحس بالحاجة الى أن يصغى الى أمامها ، بل كذلك لان الروح المرححة التى
صاحبت اقترابهم منى لم تبرحهم قط ، ولانهم لم يظهروا استياء أو ضيقا
وهم فى صحبتى •

آه لو كانت لاتزال لىدى بضع لحظات من ملاطفات بريئة صادرة عن
القلب قد لاتصدر الا عن طفل لايزال صغيرا ! لو أمكننى أن أرى أيضا فى
بعض العيون الفرحة والرضا بوجودها معى فكم اذا من سرور وآلام كانت
تعوضنى عنها افصاحات قلبى القصيرة ، الحلوة مع ذلك ! آه اننى لن
أكون مضطرا الى البحث بين البهائم عن نظرة العطف التى أباهها على الآدميون
منذ الآن • اننى أستطيع أن أدلل على ذلك بقليل جدا من الامثلة التى هى
دائما عزيزة بين ذكرياتى • وهالك مثلا كان حريا أن أنساه تقريبا فى أية مناسبة
أخرى يصور الأثر الذى خلفه فى كل ما أعانيه من شقاء • حدث منذ عامين
وأنا ذاهب لآتنزه فى ناحية نوفيل فرانس Nouvelle France أن توغلت
مبعدا ثم إنعطفت يسارا مستهدفا الدوران حول مونمارتر Montmartre
فاخترقت قرية « كلينيانكور Clignancourt وكنت أسير لاهيا وحالما ، دون

آن انظر الى ما حولي ، حتى أحسست فجأة بركبتي وقد أمسك بهما ، ونظرت فوجدت طفلا صغيرا بين الخامسة والسادسة يحيط بركبتي بكل قوته وهو يتطلع الى في ألفة وحنان حتى تحركت جوارحي ، فأخذت أقول لنفسي : انه كان من الممكن أن أعامل على هذا النحو من صغاري . وأخذت الطفل بين ذراعي وقبلته مرات في فرح شديد ثم تابعت مسيرى . وأحسست خلال ذلك اننى أفتقد شيئا ما ، وردتني على أعقابى حاجة طارئة . لقد كنت ألوم نفسى على تركى الطفل فجأة على هذه الصورة واعتقدت اننى أرى فى عمله - بغير سبب ظاهر - نوعا من الوحى لا تجدر الاستهانة به . وأخيرا وقد استسلمت للأغراء ، ارتددت على أعقابى وركضت نحو الطفل وعاودت تقبيله ومنحته ما يشترى به من فطائر ناندير Nanterre التى كان يمر بآثارها هناك مصادفة . وبدأت أدفعه للثرثرة ، فسألته عن مكان أبيه فدلننى على أنه هو ذلك الذى يحزم البراميل ، وكنت أتهدى لترك الطفل لأتوجه للتحدث معه عندما وجدت أنه قد سبقنى اليه رجل عابس الوجه بدا لى وكأنما هو احدى تلك الحشرات التى يطلقها الناس فى أعقابى .

وبينما كان هذا الرجل يسر اليه شيئا فى أذنه إذ شاهدت عيني حازم البراميل تستقران على فى انتباه بنظرة ليس فيها شيء من الود . وقد اعتصر قلبى هذا الامر على الفور . فتركت الأب والطفل فى سرعة تزيد عما استغرقته فترة ارتدادى على أعقابى اليه من قبل ، ولكن لى قلق - أقل بعثا للرضا - غير من مشاعرى جميعا . ومع ذلك فغالبا ما أحسست بها تبعث فى نفسى من جديد منذ ذلك الحين . لقد عاودت المرور كثيرا بـ كلينيانكور Clignancourt بأمل معاودة رؤية ذلك الطفل ، ولكن لم أعد أراه لا هو ولا أباه ولم يبق لى من تلك المقابلة سوى ذكرى حية تختلط دائما بالحلاوة والمرارة ككل الانفعالات التى لا تزال تنفذ أحيانا حتى قلبى .

ان هناك عزاء عن كل شيء : لئن كانت لحظات سرورى نادرة وقصيرة فاننى أتذوقها - حين تمر بى - فى لذة أشد مما لو كانت مألوفة لدى . اننى أجترها - كما يقسمال - عن طريق الذكريات الكثيرة ، ومهما تبلغ ندرتها فربما أكون أكثر سعادة - اذا كانت نقيية خالصة - منى فى أسعد أوقاتي . ان المرء يحسن العنى فى القليل حين تبلغ الفاقة به أشدها ، واز الصعلوك الذى يعثر على قطعة écu (١) من العملة يتأثر بذلك أكثر من تأثر غنى يعثر على كيس من الذهب . ان المرء ليضحك ان شهد فى نفسى

(١) l'écu قطعة من العملة الفضية القديمة .

الانطباعة التي تخلفها أقل المسرات من ذلك النوع ، والتي أستطيع أن
اختلفها برغم يقظة مضطهدى . وقد عرضت واحدة من أمتعها منذ أربع
أو خمس سنوات لا أكاد أذكرها الا وأحس بنشوة الراحة لأننى قد
استمتعت بها تماما .

لقد توجهنا - زوجتى وأنا - ذات أحد لتناول طعام الغداء عند بوابة
مايو Maillot واخرقنا بعد الغذاء غابة بولوني Bologne حتى لامنييت
La Muette وهناك اقتعدنا الاعشاب فى الظل فى انتظار مغيب الشمس
حتى نعود بعد ذلك الهوينا عن طريق باسى Passy . وجاءت عشرون فتاة
تشرف عليهن راهبة وجلس بعضهن وأخذ البعض الآخر يمرحن على مقربة
منا . وفى أثناء لعبهن مر بائع حلوى يحمل « طبلته واسطوانته ودولابه »
باحثا عن مشتريين ، وقد لاحظت أن الفتيات الصغيرات كن يشتتهن كثيرا
قراطيسه ، ويبدو أن اثنتين أو ثلاثة منهن كن يحملن معهن بعض الـ
« ليارات liards (١) » فسألن الاذن باللعب ، وفى حين كانت المشرفة
تتردد وتناقش . . ناديت بائع الحلوى وقلت له : « دع كلا من هاته الأنسات
تسحب بدورها ويسادف لك عن الجميع . وقد أشاعت هذه الكلمة الفرحة
فى الجماعة كلها ، هذه الفرحة التي كانت وحدها تعدل أكثر مما فى كيس
نقودى لو اننى استخدمت كل ما به للحصول عليها . ولما رأيت كل واحدة
منهن تتعجل دورها باستعمال شىء من الفوضى ، رتبتهم جميعا - بعد
موافقة المشرفة - فى صف فى ناحية واحدة ، ثم أمرتهن الى الناحية المقابلة
الواحدة بعد الاخرى بمجرد أن يقمن بالسحب . وبرغم أنه لم تكن هناك
تذكرة بيضاء وأنه كان من نصيب كل منهن قرطاس على الاقل اذا لم يقدر
لبعضهن الفوز حتى لا تعود واحدة منهن غير راضية تماما ، فقد أسررت
الى بائع الحلوى - مستهدفا أن أزيد من فرحة المناسبة - أن يستخدم
مهارته المعتادة فى اتجاهها المضاد ، وذلك بأن يسقط بقدر المستطاع أكثر
ما يمكن من الأنصبة الطيبة ، واننى سأراعى ذلك عند محاسبته . وقد
وزع من طريق هذا التدبير ، ما يقرب من مائة قرطاس بالرغم من أن
واحدة من الفتيات لم تسحب أكثر من مرة واحدة؛ ذلك لاننى كنت اذاك
حازما بحيث لم أكن أود تحبيذ الافراط أو اظهار مفاضلات قد تبعث على
الاستياء . وقد أوحى زوجتى الى من كان من حظهن أنصبة طيبة أن يشركن
فيها زميلاتهن حتى تكون الأنصبة شبه متساوية وحتى تكون الفرحة أعم .

وقد رجوت الراهبة أن تسحب بدورها ، وأنا شديد الخشية أن
ترفض عرضى باحتقار ، ووافقت فى رقة وسحبت ، كما فعلت الطالبات ،

(١) Le Hard قطعة من العملة النحاسية القديمة .

وأخذت من غير كلفة ما جاءها ، واعترفت لها بفضل بالغ ووجدت في ذلك نوعا من التهذيب شد مازقني ، وأعتقد أنه يفوق أدب تكلف الرفض .
 وخلال كل هذه العملية وقعت منازعات عرضت على محكمتي وجاءت هذه الفتيات تدافع كل بدورها عن قضيتها وأعطينني بذلك فرصة للألاحظ أنه برغم عدم وجود واحدة جميلة بينهن فإن رقة بعضهن كانت تنسى المرء قبجنهن .

وأخيرا افترقنا وكل راض جدا عن صاحبه . وكان عصر ذلك اليوم واحدا من تلك الايام في حياتي التي أستعيد ذكراها بأكبر قدر من الارتياح . فضلا على ذلك فإن الاحتفال لم يفلسني إذ أنه مقابل ثلاثين « صلديا sols (١) » على أكثر تقدير حصلت على ما يساوي أكثر من مائة « ليار » liards من السرور ولو أن المتعة في الواقع لا تقاس بما ينفق في سبيلها ، والفرحة أشد صداقة لد « ليار » منها للجنه . لقد عدت مرات كثيرة الى المكان نفسه في الساعة نفسها أملا أن ألقى هناك مرة أخرى المجموعة الصغيرة ولكن هذا لم يحدث أبدا .

ان هذا يذكرني بتسلية أخرى من النوع نفسه تقريبا ظلت ذكراها مقيمة أمدا أطول من هذه : كان ذلك في العهد المنكود عندما كنت ، وأنا أخالط الاغنياء والادباء ، مضطرا الى مشاركتهم متعهم الكثبية . كنت في « لاشفريت La Chevrette (٢) » في وقت عيد رب الدار وكانت أسرته بأكملها مجتمعة لحيائه واستخدمت لهذه المناسبة كل مظاهر السرور الصاحب فلم يدخر شيء من تمثيل الى مادب الى صواربخ نارية ، ولم يكن هناك فراغ ليلتقط المرء أنفاسه بل انه كان يسلي نفسه بدلا من أن يتمتعها . وبعد الغذاء خرجنا لاستنشاق الهواء في الطريق حيث أقيم نوع من السوق هناك . وكان رقص ، وتنازل السادة فراقصوا الفلاحات ، أما السيدات فقد احتفظن بوقارهن وكانت تباع هناك فطائر حلوى des pains d'épice وخطر لشباب من الجماعة أن يشتري منها ليقدف بها الواحدة بعد الأخرى في وسط الحفل ، وقد سر الناس كل السرور برؤية كل هؤلاء الاجلاف يتدافعون ويتضاربون وينقلبون ليحصلوا عليها ، حتى ود الجميع لو ينغمسون في المتعة نفسها . . . واستمرت الفطائر تتطاير يمنا ويسرة ، وظلت الفتيات والصبية يجرون ويتساقطون فوق بعضهم البعض ويتداهسون وكان هذا يبدو رائعا للجميع . وفعلت مثلما فعل الآخرون بدافع الاستحياء وان كنت - في قرارة نفسي - لم أتسل بقدر ما فعلوا ،

(١) الصلدي le sol عملة قديمة تعول ه سنتيم او واحد على مشرين من الفرنك .

(٢) لاشفريت La Chevrette هو قصر مدام ديناي d'Épinay بالقرب من مونمورنسي .

ولكن حالما تضايقت بسبب نفاذ مالى فى سبيل دهس الناس ، خلفت هناك الصحاب وذهبت لآنجول وحيدا فى السوق . وقد أدخل تنوع المعروضات السرور فى نفسى طويلا ، ولاحظت من بين الموجودين خمسة أو ستة من أهل سفوا Savoyards يتحلقون فتاة صغيرة كان لا يزال على سفطها دستة من التفاح الضامر كانت تود لو أنها تخلصت منها . وكان السفوائيون من جانبهم يودون لو أنهم خلصوها منها . ولكن لم يكونوا يملكون جميعا سوى « ليارين » أو ثلاثة وهذه لم تكن مخرجا كبيرا لاستخلاص التفاح كان هذا السفط بالنسبة لهم حديقة هسبريد Hespérides (١) وكانت الفتاة عى التنين الذى يحرسها . وقد تسليت طويلا بهذه المزحة ووضعت خاتمة لها فى نهاية الامر ، وذلك بأن دفعت ثمن التفاح للفتاة الصغيرة وجعلتها توزعه على الصبية الصغار . وعندئذ شهدت واحدا من أحدى المناظر التى تستطيع أن تبهج قلب المرء ، هو رؤية الفرحة بمزوجة ببراءة السن تنتشر من حولى . ذلك لان الشهود أنفسهم شاركو فيها حين رأوها ، وأما أنا الذى شاركت فى هذه الفرحة بهذا الثمن الضئيل فقد زادت عليها لدى فرحة الاحساس بأنها كانت من صنيعى .

عند مقارنة هذه التسلية بنظائرها التى خلفتها للتو أحسست فى رضا بانفارق بين الميول السليمة والمتع الطبيعية وبين تلك التى تكون وليدة الثراء التى ليست سوى متع ساخرة وميتول خاصة هى ثمرة الاحتقار . ذلك لأن أى نوع من السرور ذلك الذى يستطيع المرء أن يجده فى مشاهدة قطعان من البشر أذلهم البؤس ساقطين فوق بعضهم البعض ويختنقون ويتداهسون فى خشونة لينتزعوا فى نهم بضع لقيمات من الفطائر وطئتها الاقدام وغطاها الوحل ؟

وأما من ناحيتى فانى حين فكرت جيدا فى نوع اللذة التى كنت أنذوقها فى هذه الانواع من المناسبات ، وجدت أنها تكمن فى عاطفة عمل الخير أقل منها فى متعة التطلع الى وجوه راضية . ان لهذا المشهد فى نفسى سحرا - برغم نفاذه الى قلبى - يبدو كأنما هو صادر عن الحس وحده . ولئن لم أر الرضا الذى أكون مبعثه - حتى ولو كنت مستوثقا منه - فابتنى لا أستمتع به الا نصف استمتاع ، بل هو كذلك بالنسبة لى متعة غير مفرضة لا تتوقف على مبلغ نصيبى منها ، ذلك أنه من بين الاحتفالات الشعبية ، كان دائما أشد ما يجذبنى بقوة اليها هو الاحتفال الذى أشهد فيه وجوها مستبشرة . ومع ذلك فإن هذه البغية طالما حرمت من تحقيقها

(١) هسبريد Hespérides من ثلاث بنات لملك خرافي يدعى اطلس Atlas من بلكن حديقة تنتج اشجارها ثمار تفاح من الذهب كان يحرسها تنين له مائة رأس .

في فرنسا ، ذلك لان هذا الشعب الذي يدعى المرح قلما يبرزه في العابه .
 اننى غالبا ما كنت اذهب فيما مضى الى المراقص الماجنة لأشهد هناك أفراد
 الطبقات الدنيا من الشعب يرقصون ، ولكن رقصاتهم كانت من الكآبة ،
 كما كان مظهرهم من الذبول والارتباك ، بحيث كنت أخرج محزوناً أكثر
 منى مستمتعا . ولكن في جنيف وفي سويسرا حيث لا يتصاعد الضحك
 باستمرار في خبث شديد فان كل شيء يعبر عن الرضا والفرح في الأعياد .
 ان الشقاء لا يظهر هناك مطلقا بمظهره البشع كما أن التعاطف لا يبين عن
 محبة . فالامن والاخوة والترابط تهييء القلوب للتفتح وكثيرا ما نشهد
 في غمرة المرح البريء الاغراب يجلسون متجاورين متعانقين داعين بعضهم
 البعض الى الاستمتاع سويا بمباهج اليوم . ولم أكن في حاجة الى أن
 أكون واحدا منهم لأستمتع بهذه الأحفلات اللطيفة ، بل كان حسبي أن
 أشهدهم فأشارك فيها بمشاهدتي اياهم ، واننى لشديد الثقة بأنه من بين
 كل الوجوه الضاحكة ليس هناك قلب أشد سعادة من قلبي .

وبالرغم من أن هذه ليست سوى متعة حسية فان لها من المؤكد علة
 روحية ، والدليل على ذلك أن هذا المشهد نفسه بدلا من أن يطربنى ويعجبني
 يستطيع أن يمزقنى ألما وغضبا حين أدرك أن دلائل السرور والفرح هذه
 على وجوه الاشرار ليست سوى علامات على أنهم أشبعوا ما بنفوسهم من
 خبث .

إن المرح البريء هو الذى تطرب دلائله قلبي ، أما دلائل المرح
 الوحشى الساخر فانها تمزقه وتحزنه برغم أنه قد لا تربطنى به أية صلة
 مطلقا . ولا شك أن هذه الدلائل قد لا تكون هي نفسها تماما اذا ما صدرت
 عن مبادئ على هذا النحو من التباين : ولكن على أية حال . . . سواء . . .
 فى دلالتها على المرح ، وما من شك أن ما فيها من تباين محسوس لا يتناسب
 وتباين الانتفاضات التى تثيرها فى نفسى :

أما دلائل الألم والعذاب فانا أشد حساسية بالنسبة لها كذلك ، حتى
 انه يستحيل على أن أتحملا دون أن أهتز أنا نفسى بانفعالات قد تكون
 كذلك أكثر حرارة من تلك التى ترمز اليها . ان الخيال بتدعيمه للحس ،
 يوحد ما بينى وبين المعذب من الناس ويسبب لي غالبا رعبا أشد مما يحس
 به هو نفسه . ان وجهها ساخطا هو كذلك منظر يستحيل على احتمالها
 وبخاصة ان كان هناك ما يحدونى الى الظن أن هذا السخط يتعلق بى .
 اننى لن أستطيع أن أقول كم من نقود ابتز منى الغلمان الذين يلوح على
 سيماهم التذمر والاكتئاب وهم يقومون بالخدمة متهجمين فى المنازل التى
 بلغت منى الحماقة فيما مضى حد الاستسلام لمن يقودوننى اليها ، وحيث
 جعلنى الخدم دائما أدفع غالبا جدا ثمن ضيافة السادة . ولما كنت دائما

شديد التأثير بالامور الحساسة ، وبخاصة ما يحمل منها دلالة اللذة أو الألم ، العطف أو البغضاء ، فأننى أنقاد لهذه الانطباعات الخارجية دون أن أستطيع مطلقا أن أتجاهها بغير طريق الهرب . ان اشارة أو ايماءة أو نظرة من مجهول تكفى لتعكر على صفو سرورى أو تسكن من آلامى اننى لا أكون ملك نفسى الا حين أكون وحيدا ، وأما فيما عدا ذلك فانا العوبة فى يد كل من يحيطون بى .

كنت فيما مضى أعيش مسرورا بين الناس حين كنت لا أرى فى كل العيون سوى عطف أو - على أسوأ احتمال - عدم مبالاة فى عيون أولئك الذين كنت مجهولا منهم . أما اليوم ، وهم لا يجدون مشقة فى تنبيه الناس الى وجهى أقل مما يجدون فى وضع قناع على طبعى ، فأننى لا أستطيع أن أخطو بقدمى فى الطريق دون أن أرانى محوطا بأشياء موجهة . اننى أتعجل الوصول الى الريف بخطا واسعة وحالما أرى الخضرة أبدا فى التنفس . أمن عجب بعد ، اننى أحب العزلة ؟ اننى لا أرى على وجوه الناس سوى الضغن ، أما الطبيعة فانها تضحك لى دائما . واننى أشعر مع ذلك أيضا - ويجب أن أعترف بهذا - بمتعة فى الحياة بين الناس طالما كان وجهى مجهولا لديهم ، ولكنها متعة لا تتاح لى مطلقا . لقد كنت منذ بضع سنوات ما أزال أحب أن أجول فى القرى وأن أشهد فى الصباح المزارعين يصلحون مدقاتهم والنساء على أبوابهن مع أطفالهن . ولست أدري ماذا كان يمس شغاف قلبى فى ذلك المنظر كنت أتوقف أحيانا دون أن أنتبه لذلك لاتطلع الى ما يقوم به هؤلاء القوم من أعمال صغيرة . وكنت أجدنى أتهدد دون أن أعرف لذلك سببا . وما أعلم اذا كان أحد قد رأى شغفى بهذه المتعة المتواضعة واذا كان أحد ود لحرمنى منها كذلك ، ولكنى من التغيير الذى ألحظه على الوجوه عند مرورى ومن الطريقة التى ينظر الى بها ، أرانى مضطرا أن أدرك أنهم حرصوا جد الحرص على حرمانى من هذا التخفى . ولقد حدث نفس الامر لى ، وفى صسبورة أكثر وضوحا ، فى الانفساليد Invalides (١) . ان هذه المؤسسة الجميلة كانت دائما محل اهتمامى واننى لا أشهد دائما الا بحنان وتوقير تلك الجماعات من المستين الطبيين الذين يستطيعون أن يرددوا ما ردهه شسيوخ لاسيديمون

Lacédémone (٢) ،

(١) الإنفاليك Les Invalides مبنى اثرى لى باريس من عهد لويس الرابع عشر كان

قد أقامه لأيواء مشوهى الحرب عام ١٦٧٠ م ، وقد حول فيما بعد (منذ ١٨٤٠ م)

الى مكان يضم رفات كبار قواد فرنسا وعلى رأسهم نابليون ،

(٢) لاسيديمون La cédémone (أو اسبرطه Sparte) مدينة قديمة من مدن

اليونان .

لقد كنا فى سالف الزمان

شبانا شجعانا جسورين

كانت واحدة من جولاتى المفضلة جولتى المفضلة حول المدرسة الحربية وكنت أقابل مسرورا هنا وهناك بعض مشوهى الحرب وقد احتفظوا بشهامتهم العسكرية القديمة فكانوا يخبوننى أثناء مرورهم . كانت هذه التحية التى يردها قلبى مضاعفة مائة مرة تطربنى وتزيد من السرور الذى كنت أحسه لدى رؤيتهم . ولما كنت لا أعرف كيف أخفى شيئا مما يؤثر فى فانتى غالبا ما كنت أتحدث عنهم ، وعن كيفية تأثير منظرهم فى نفسى ، ولم يكن الامر يتطلب أكثر من ذلك . وبعد فترة من الزمان لاحظت أننى لم أعد مجهولا لديهم ، أو بالاحرى اننى غدوت أكثر من ذلك بالنسبة لهم ماداموا كانوا ينظرون الى بنفس العين التى ينظر عامة الناس الى بها فلم تعد هناك لا شهامة ولا تحايا . وقد حل محل ما كانوا عليه من تهذيب فى أول الامر روح جفاء ونظرة شزراء . ولما كانت الصراحة القديمة التى تتسم بها مهنتهم لا تسمح لهم - كالأخرين - بأن يعجبوا ضغنهم بقناع هازىء خداع فانهم أظهروا لى بوضوح مبين أعنف كراهية ، وهذه هى قمة شقائى ، حتى لأجدنى مكرها على أن أميز ، فى تقديرى ، أولئك الذين يخفون عنى سخطهم أقل من غيرهم .

هناك ذلك الحين وأنا أنتزه ، فى متعصبة أقل ، بناحية الانفاليد ، وضع ذلك فما دامت مشاعرى نحوهم لا تعتمد على مشاعرهم نحوى فانتى لا أنظر أبدا بغير احترام وبغير اهتمام الى هؤلاء القدامى من الدائدين عن أوطالهم ، ولكن من أقتنى الامور على أن أجزى من ناحيتهم أسوأ الجزاء مقابل انصافى . اياهم ، ولئن حدث مصادفة أن لقيت من بينهم واحدا خرج على التعليمات المشتركة ، أو أنه لعدم معرفته صورتنى لم يظهر نحوى أية بغضاء ، فإن التحية الصادقة من هذا وحده تعوضتنى عن مسلك الآخرين الخشن . اننى لأنسباهم حتى لا أشغل بسواه واننى لأنخيل أن له واحدة من هذه النفوس التى تشبه نفسى حيث لا تستطيع الكراهية أن تنفذ اليها .

وقد سعدت كذلك بهذه المتعة فى العام الماضى حين كنت أعبر الماء لأذهب للتنزه فى جزيرة البجع وكان هناك محارب فقير مسنن فى قارب ينتظر مرافقا للعبور ، فتقدمت وطلبت الى صاحب القارب أن يرتحل . وكان الثيار شديدا واستغرق العبور زمنا طويلا ، ولم أجد فى نفسى جرأة كافية للتحدث الى هذا المحارب ، وربما كان ذلك خوفا من أن

أرجر وأصد كما هي العادة . ولكن هيئته النبيلة طمأننتي فتجاذبنا
أطراف الحديث ، وقد بدا لي رجلا على عقل وخلق ، ودهشت وفنتت
بلهجتة الصريحة الودية ولم أكن معتادا على مثل هذا العطف . ولكن
دهشتي توقفت حين علمت أنه وصل حديثا من الاقاليم ، فهدمت منه أن
أحدا لم يرشده بعد عنى ، أو يعطيه تعليماته . فاعتنمت هذا التخفى
لا تحدث بضع لحظات مع انسان ، وأحسست من وراء العذوبة التي لقيتها
كم تكون ندرة المتع الاكثر شيوعا قادرة على رفع قيمتها . وأثناء مبارحة
القارب كان يعد « لياريه » البائسين ولكننى دفعت أجرة العبور ورجوته
أن يعيد صر نقوده وأنا ارتعد خوفا من أن أستفزه . ولكن هذا لم يحدث،
بل بالعكس فانه بدا متأثرا من لفتتى هذه ، ثم بخاصة من لفتة أخرى ،
ذلك أنه لما كان أكبر منى سنا ، فقد عاونته على مغادرة القارب . من ذا
يصدق أننى تصرفت كطفل حتى بكيت من الهناء ؟ لقد كنت شديد الرغبة
فى أن أضع فى يده قطعة من ذات الاربعة والعشرين « صلديا » ليشتري
تبغا ولكننى لم أجرؤ أبدا . كان نفس الخجل الذى ردنى هو الذى كثيرا
ما كان يذودنى عن القيام بأطيب الاعمال التى كانت كفيلة بأن تغمرنى
بالبهجة التى لم أمتنع عنها الا وأنا أندب غباثى . وفى هذه المرة - بعد أن
تركت محاربي القديم - سرعان ما تعزيت وأنا أفكر فى أننى - كما يقال -
ربما كنت أتصرف ضد مبادئى الخاصة وأنا أخلط بالشريف من الامور
ثمنا من المال يحط من نبلها ويدنس من نزاهتها . انه من الواجب أن
يتعجل المرء مد يد المساعدة الى أولئك الذين هم فى حاجة اليها . ولكن
لندع فى اتصالات الحياة العادية العطف الطبيعى والتهديب يقوم كل
بعمله دون أن يكون هناك مطلقا نهاز أو جشع يجرو أن يقترب من منبع
بهذا الصفاء ليفسده أو يشوهه . انه يقال ان القوم فى هولندة يتقاضون
ثمن اخطارك بالوقت أو ارشادك الى الطريق ، ولا بد أنه شعب يستحق
بالغ الاحتقار ذلك الشعب الذى يتجر على هذا النحو بأبسط الواجبات
الانسانية . لقد لاحظت أنه ليست هناك سوى أوربا وحدها التى يباع
فيها كرم الضيافة . أما فى كل آسيا فانهم يستضيفونك بدون مقابل .
واننى أدرك أن المرء لا يجد هناك كل راحته ، ولكن ليس هذا الا كما لو
قال المرء لنفسه اننى انسان وهأنذا أستقبل من ذوى الانسانية ، انها
الانسانية الخالصة التى تمنحنى القوى ؟ ان الحرمان القليل يحتمل دون
عناء اذا ما عومل القلب خيرا مما يعامل الجسد .

الجولة العاشرة

اليوم - يوم عيد الفصح المزهر - مرت خمسون سنة منذ أول معرفة نى بمدام دوفواران Mme de Warens (١) وكانت فى ذلك الوقت فى الثامنة والعشرين اذ أنها ولدت مع مولد هذا القرن (٢) ، ولم أكن شارفت عندئذ السابعة عشرة ، وكان ميلى الوليد - وان كنت لا أزال أجهله مع ذلك - يمد بحرارة جديدة قلبا مليئا بطبيعته بالحياة . ولئن لم يكن عجيبا أنها أحست بعطف نحو شاب مليء بالحياة ، وديع حنى ذى طلعة حسنة مع ذلك ، فإنه كان أقل عجبا أن امرأة فاتنة ذكية رقيقة توحى الى - الى جانب اعترافى بفضلها - بمشاعر أكثر حنانا لم أكن أميزها . ولكن ما ليس طبيعيا أيضا ، هو أن هذه اللحظة الأولى كانت حاسمة فى حياتى كلها وأنها خطت - بسحر لا يمكن الفكك منه - مصيرى ببقية أيامى . ان روحى التى لم تكن أعضائى البتة قد أنمت أعلى ملكاتها ، لم تكن لها بعد أية صورة واضحة الحدود . انها كانت تنتظر فى نوع من القلق اللحظة التى يجب أن تعطىها اياها . وهذه اللحظة ، وقد عجلت بها هذه المقابلة ، لم تأت مبكرة برغم ذلك . ولقد لاحظت لأمد طويل - وأنا فى بساطة الطباع التى منحتنى اياها تربيتى - هذه الحال الهائثة ، السريعة مع ذلك ، حيث يستقر الحب والبراءة فى القلب نفسه . كانت قد أبعدتنى ، وكان كل شىء يذكرنى بها فكان من الضرورى أن أعود إليها ، وقد حددت مصيرى ههنا العودة . وقبل أن تكون لى بزمن طويل كذلك لم أكن أعيش الا بها ومن أجلها . أه لو اننى أشبعت قلبها . كما أشبعت هى قلبى ! كم من أيام أمنة حلوة كان من الممكن أن نمضيها معا ! لقد قضينا أمثالها ولكنها كانت قصيرة سريعة ، وأى قدر

(١) التقى روسو بمدام دو فواران de Warens فى انسى Ancey فى عام ١٧٢٨ ،
وإذن فتاريخ كتابه الجولة العاشرة الثانى من ابريل عام ١٧٧٨ وهى بذلك ترد
ما لجاء بالكتيب الثالث الى السادس من « الاعترافات » .
(٢) ولدت مدام دوفواران عام ١٦٩٩ .

ذلك الذى تبعها ! ما من يوم لا أتذكر فيه بنشوة وحنان هذه المرحلة الوحيدة القصيرة من عمرى التى كنت فيها بكل كيانى خالصا لذاتى بغير شائبة أو عائق ، وحيث أستطيع أن أقول اننى عشت ، اننى أستطيع أن أقول تقريبا كما قال مدير المحكمة الذى عزل فى عهد فسبازيان (١) *Vespasien* وذهب يختم أيامه فى سلام فى الريف ، « لقد قضيت فوق الأرض سبعين سنة عشت منها سبعا » اننى بغير هذه الفترة القصيرة الثمينة مع ذلك ، ربما بقيت غير مستوثق من نفسى ، ذلك لأننى فى كل بقية حياتى ، وقد كنت ضعيفا لا أقاوم ، كانت أهواء الآخرين تهيجنى وتتقاذبنى وتتجاذبنى حتى أننى وقد غدوت شبه سلبي فى حياة عاصفة على هذه الصورة كان من الصعب أن أميز ما هو ذاتى فى سلوكى الشخصى ، من فرط ما ظلت الحاجة القاسية تهظنى . ولكن خلال هذا العدد القليل من السنين وقد أحببتنى امرأة مليئة باللفظ والبرقة فعلت ما كنت أريد فعله وكنت ما أريد أن أكون ، وعرفت - عن طريق استخدام أوقات فراغى ، تعاوننى فى ذلك دروسها والمثل الذى تقدمه - كيف أعطى لروحي التى كانت لا تزال بريئة جديدة الصورة التى كانت تناسبها أكثر من غيرها والتى احتفظت بها دائما . لقد ولد فى قلبى الميل الى العزلة والتأمل مع مولد المشاعر الفياضة الحنون التى خلقت لتكون غذاء له . ان الصخب والضجيج تحصرها وتقضى عليها أما الهدوء والسلام فيبعثان فيها الحياة وينعشانه . اننى فى حاجة الى أن أعتكف كى أحب . لقد حدثت « أمسى » (٢) الى أن تعيش فى الريف ، وكان مأوانا بيت منعزل فى سفح واد ، وهناك - مدى أربع أو خمس سنوات - استمتعت بقرن من الحياة والهناء الصافى المطلق الذى يسبح فتنته على كل ما لحظى الحالى من بشاعة . كنت فى حاجة الى صديقة توائم قلبى ، وقد كانت لى . كنت راغبا فى الريف وقد حصلت عليه . اننى لم أكن أستطيع أن أحتمل الخضوع وقد كنت حرا تماما ، وأكثر من حر ، ذلك لأننى وقد خضعت لاهوائى وحدها لم أكن أعمل سوى ماكنت أريد عمله . كان وقتى كله مفعما برعاية تزخر بالحب أو بشواغل فى الحقول . اننى لم أكن أريد شيئا سوى استمرار حالى بهذه الهناءة ، ولكن الى الوحيد كان الخوف من ألا تستمر طويلا ، وهذا الخوف الناشء

(١) فسبازيان *Vespasien* أحد أباطرة الرومان حكم من ٦٩ - ٧٦ م .

(٢) لما رأى روسو مدام دو فواران غارقة فى الديون فكر فى مورد يعينها عن طريقه فوضع طريقة جديدة لرقم الموسيقى بدلا من السلم الموسيقى المعتاد ثم سافر الى باريس ليعرض مشروعه على أكاديمية الفنون .

عن حرج موقفنا لم يكن بغير أساس . وقد فكرت منذ ذلك الحين في أن
أمنح نفسي في الوقت نفسه ألوانا من التسلية تلهيني عن هذا القلق ،
وموارد تعينني على تفادي أثره . لقد فكرت في أن رصييدا من المواهب هو
أكثر الموارد أمانا ضد البؤس فعزمت على أن أستغل أوقات فراغي في
اعداد نشي لاكون قادرا . ان كان ذلك ممكنا - على أن أرد يوما من الايام
الى أكرم النساء ما تقبلت منها من معونة .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	تمهيد
١١	مقدمة وتعليق
٣٥	تقديم للجولات
٣٩	الجولة الاولى
٤٢	الجولة الثانية ..
٤٥	الجولة الثالثة
٥٠	الجولة الرابعة ..
٥٣	الجولة الخامسة
٥٧	الجولة السادسة
٦١	الجولة السابعة
٦٥	الجولة الثامنة
٦٨ ..	الجولة التاسعة
٧٣	الجولة العاشرة
٧٧	طباع روسو وحالته النفسية في آخر حياته
٨٣	أحلام اليقظة بين مؤلفات الكاتب الاخرى
٨٧	أصالتها وأثرها الادبي ..
٩٥	الجولة الاولى ..
١٠٣	الجولة الثانية ..

الصفحة

الموضوع

١١٣

الجولة الثالثة

١٢٧

الجولة الرابعة

١٤٣

الجولة الخامسة

١٥٣

الجولة السادسة

١٦٣

الجولة السابعة

١٧٧

الجولة الثامنة

١٨٧

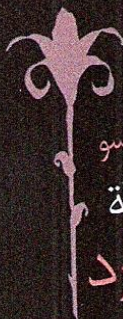
الجولة التاسعة

٢٠٦

الجولة العاشرة

-

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى : حسن كامل



چان چاك روسو أحلام يقظة جوال منفرد

منذ أكثر من مائة وثمانين عاما كتب چان چاك روسو الجولة العاشرة من "أحلام يقظة جوال منفرد"، ولم يقدر له أن يكملها، كان ذلك في الثاني عشر من أبريل عام 1778 في يوم "عيد الفصح المزهر"، أي قبل وفاته بما يقل عن ثلاثة شهور؛ إذ إنه قضى في شهر يوليو من العام نفسه.

هذه الجولات إذن هي مؤلفه الأخير، وآخر ما سجل من خواطر وحلجات سجلها ابتداء من ربيع عام 1776.